وحدكَ تعلم

إهداء:

إلى من رووا التراب السوري بدمائهم, إلى أنات المعتقلين المظلومين في كل سجون الدنيا, إلى آهات الأمهات.. و أخص الأمهات السوريات التي تتشرف أصابعي بكتابة ذكرهن في أول عملي, إلى كل سوري عانى ما عانى.. و لا يعلم ما مر به السوري إلا الله...

إلى كل الأرواح السورية في أي عالم كانت... تهدي روحي إليكم هذا العمل و تتشرف أن تكون واحدة منكم, و تمسح بكلماتها دموع خجلها أمام عظمتكم...

إلى من تحمل نوباتي و طقوس جنوني...

إلى أخت تنساب حنية الدنيا من أصابعها نوراً يهديني إلى بيتي كلما أضعت الطريق, أسترق من صوتها لحن أغنية ترددها أم لصغيرها لينسى هموم الدنيا و ينام.

إلى عينتيّ الصغيرتين...

إلى أخ ناصفني خبزاً معجوناً بالألم, فأكل عني أطرافه المحروقة و أعانني على إكمال نصفي..

إلى كل صديق و أخ كان عوناً لي فيها, أو كان انتظاره لها حافزاً لي كل يوم...

إلى كل روح طاهرة في هذا الكون تقبلي هذا العمل من روحي كضمة تتجاوز حدود المكان لنقوى بها على الزمان...

مقدمة:

أمام زجاج مطبخ أحد البيوت الدمشقية و في وقت المغرب كنت واقفاً أحملق في السماء و جبل قاسيون و البيوت التي تغزوه و تتغلغل فيه في أصابع حي يدعى المهاجرين, و كأنهم تركوا الأرض و بدأوا رحلة الهجرة إلى السماء, فلمعت الفكرة في رأسي كأي فكرة مجنونة تمر برأس مراهق ليجعل منها قراراً مصيرياً ثم يعود عنه في اليوم التالي.
سارعت في صبيحة اليوم التالي إلى شراء دستة من الورق المسطّر, و عدت للبيت سعيداً بمظهرها, وضعتها على الطاولة و وضعت إلى جانبها كأس شاي و قلماً و جلست خلف الطاولة كالكتّاب...
حملت القلم و وضعت رأسه على السطر الأول ثم وقفت... ليحل السكون.
كانت في رأسي تدور و لا تعرف كيف تنزل, فأنا لم أكتب من قبل...
ظللت على حالي تلك مدة طويلة, و أنا أتأمل الورق و الورق يتأملني, و الكلمات تضج في رأسي و لا تعرف إلى الورق طريقاً... كانت تلك أول لحظة ضعف و تراجع, قالت لي فيها نفسي إن فكرة الرواية هي واحدة ككل المشاريع التي بدأتها.. لن تكملها...
ثم و بعد سكون طويل, مر طيفها بي...
فانهمرت على الورق كدموع حبيسة كانت تنتظر الخلوة لتخرج من الداخل... و من يومها لم أعد قادراً على إيقافها.
أذكر أني سمعت مرة أحدهم يقول: "إن أكثر الكتاب حظاً هم الذين تمر الكلمات عبرهم و لا تخرج منهم..."
لقد مرت بي, و لم آت بشيء من عندي, كانت هناك و كانت كاملة.. كل ما كان عليّ هو التقاطها و تحويلها لكلمات دون أن أضيف عليها شيئاً... و لكأنه كتب بي, فله كل الشكر

أن فعل...

أما و أن روايتي هذه وصلت يديك, فإن من حقك عليّ أن أحذرك... هي قصة ثورة لكنها لن تصل بك إلى الحرية, قد تذيبك عشقاً لكنها ليست قصة حب, هي رحلة بحث عن الله... لكنها لن تعثر لك عليه...

الكاتب

ملاحظة:

لأسباب أمنية سيتم نشر هذا العمل الآن دون ذكر اسم الكاتب و لا حتى الاسم الوهمي له, و ستتوفر لها نسخة الكترونية فقط, إلى أن يشاء الله و يصبح بالإمكان نشرها في دور نشر حرة في سوريا.

و لحفظ حقوق النشر لن يتم التعامل إلا عن طريق الصفحة الرسمية للرواية على الفيس بوك حصراً.

-1-

الثاني من شباط **2011**

أغلق عمر باب غرفته, أرخى الستائر , أطفأ الضوء , أخذ حاسوبه المحمول و رماه على الطابق الثاني من سرير ذو طابقين .. صعد إلى السرير, رمى كل الكتب و مريوله الطبي إلى الأرض ثم استلقى على بطنه و جعل من الغطاء خيمة يعمل تحتها ...وجهه شاحب ,يداه الباردتان ترجفان , ريقه يجف , ينتظر بفارغ الصبر كاسر البروكسي أن يتصل لكي لا يراقب احد فعلته .. لم يكن ينو ارتكاب الفاحشة و لا منكر عظيم .. كان ينوي أن يفتح حسابه الوهمي "سوري متفائل" ليفتح "صفحة الثورة السورية " و يرى ما استجد بها دون أن يجرؤ حتى على التعليق او الإعجاب بما فيها...
يمشطها خبراً خبراً ... يبحث بشوق عن فعل جريء متمرد مهما صغر أو تفه... و يرى فيها عالماً آخراً فيه أناس يشاطرونه كثيراً من آرائه السرية و تطلعاته المحرمة...
عيناه المتوسعتان تمسح الصفحة مرة أخيرة بسرعة قبل أن يغلقها و يغلق المتصفح, و يمحي تاريخ ما تصفح و يعيد فتحه مرة أخرى ليطمئن أن كل ما فتحه قد حذف تماماً..
كل هذا الخوف و يعتبر نفسه قد تطور , فقبل أسبوع فقط لم يكن يجرؤ أكثر من أن يضع اسم الصفحة في مستطيل البحث ليرى بشوق كم ازداد عدد المعجبين بها ممن يشاركونه شغفه...

يطفئ عمر الجهاز و يمد جسمه ليضع الحاسوب على رف قريب ثم يعود ليستلقي على ظهره, ليسرح و يسترجع ما قرأ و يفكر كيف يمكن لهذا أن يتطور, و يسمح لخياله برسم

السيناريوهات ... اعتاد مؤخراً أن يفعل هذا كل ليلة, يختم بها نهاره الحالم, ليذهب في اليوم التالي و يشارك ما توصل إليه مع صديقه مضر...

عمر طالب السنة الرابعة دخل مدرسة الطب مدفوعاً بميل شخصي طفيف و ضغط كبير من أسرة شديدة لا تقبل الرفض جواباً...
لم يعتد طوال سنوات عمره الواحدة و العشرين أن يسلم للمشاكل و العيوب أو يستسلم لها, في حياته كانت أو في محيطه أو في نفسه على وجه الخصوص, و على الرغم من أنه لم يكن يحقق الكثير في حربه معها إلا أنه لم يكن ليمل أو يستسلم, فقد كان يكافح ظلام أحزان حياته بشمعة أمل, حرص ألا يخبت نورها.
و على الرغم من بطء المسير و تعثره كان لا يقطع الحلم بغد أفضل فيه عمرٌ أفضل و واقع أفضل, و كان يشعر أن جهوده سوف تحمله لحلمه و أنه مشرف على فترة هي فعلاً غير... و أن هذه الأيام تحمل في طياتها أكثر من مجرد محاولة أخرى لا يكتب لها النجاح المطلوب...
فقد كان يشتم عبقاً من بعيد تحمله رياح التغيير, تغيير على كل صعيد, على صعيد بلد و مجتمع و مستقبل و على صعيد نفسه... كان يشعر بشيء جديد ينمو بين جنبيه, نور أخذ يكبر يوماً بعد يوم...
أصبح ينظر إلى معالم وجهه أكثر في المرآة أثناء وضوئه و كأنه يتعرف إليها من جديد, و يسأل نفسه هل من الممكن؟ هل هو خيال؟ هل بإمكاننا نحن!؟ هل؟ .. و هل؟ ..
باتت حلاقة ذقنه تأخذ وقتاً أطول يسرح خلالها بمخيلته و هو يترنم بأغاني الثورة المصرية التي كان يتابع تفاصيلها بحماس و غالباً ما يردد شعاراتها بعد أن يحورها لما يناسب بلده سوريا...

يعرف عمر أنه شخص يجمع كثيراً من المتناقضات و المتضادات تتصارع في داخله لتجعله ما هو عليه... ففيه ما فيه من قوة يكسرها ما فيه من ضعف, و فيه طيبة و صدق يناقضها شيء من قيادية و حب للظهور, يحمل دماغاً لامعاً يتميز ببديهة عالية و سرعة في

اكتساب المعلومة و ذكاء يعاوض ضعفاً في القدرة على الدراسة و التركيز و نقصاً في الصبر على القراءة.
يضمر إيماناً و تديناً وسطياً و تبدو عليه معالم الانفتاح و المواكبة فيتبع في حياته نهجاً تيسيرياً يحلل أكثر مما يحرم.. فلا يرضي شباب الهوى و لا يرضي شباب الجامع..
يبدو شخصاً بعيداً عن الجديّة كثير المزاح خفيف الظل لا يحمّل الأمور أكثر مما يجب و يخفي فكراً عميقاً و آراءً متزنة لا تبدو إلا فيما ندر من النقاشات التي يتجنبها عادة...
دماغه غريب الأطوار, يقف تماماً على الشعرة التي تفصل بين العبقرية و الجنون, كلما مر معه أثناء دراسته مقرر الطب النفسي اضطراب دماغي أو نفسي معين, يقول لنفسه أظن أني أعاني من هذا, ثم و في درس بعده ينقض نظريته و يأفل في ذهنه نجم الاضطراب القديم ليلمع آخر و يقنع نفسه أنه مصاب به.
غالباً ما يبدو شخصاً لطيفاً اجتماعياً بشكل كبير و محبوباً للجميع, و أحياناً يستصعب الاختلاط و يستصعب كثرة الأشخاص و يضعف في مواقف كثيرة... فظهرت عنده مشكلة تطورت شيئاً فشيئاً بعد أن عرضته الحياة لامتحانات قاسية لتسبب له ما أدرجه لنفسه تحت اسم الرهاب الاجتماعي, و لم يكن برهاب اجتماعي...

إلا أنه اليوم يشعر بأنه يضع كل هذا أمامه ليكسره و يقلب الكفة... يجمع كل الأوراق السلبية في سلة واحدة ليضرم فيها النار, لا بد لشيء حلم به طوال حياته أن يلد مهما طال الحمل و صعب من بعده المخاض ...
و لقد بدأ تطلعه الجديد بالفعل يحدث عنده نوبات غير اعتيادية يظهر فيها عمرٌ جديد غير الذي ألفه.. حتى ما يعده رهاباً الاجتماعي و ارتباكه الشديد في حضور عدد من البشر, الكبار منهم على وجه الخصوص... يصبح من النسيان عندما يتعلق الموضوع بشغفه القديم الجديد...
فقبل يومين و في نقاش لعدد من أبناء الطبقة الراقية من أصدقاء أبيه.. انحنى أحدهم لينثر صفوة السيجار في الصحن و يقول بابتسامة صفراء " لا بأس انتظروا يومين و سوف تعين لهم أمريكا رئيساً جديداً " قاصداً بهم الشعب التونسي... فعلا صوت عمر بلهجة يبدو فيها الانفعال

" نعم, لكل دولة مصالح و الدول الكبرى لا ترحم و لا تترك شعباً يعيش بما يخالف مصالحها, نعم .. و لكن لم تستهينون بحلم الشعوب؟ لم لا تعدّوها في ميزان القوى؟ و الله إن الشعوب إذا استفاقت فإن أحداً لا يمكنه الوقوف في طريقها..."

قال جملته هذه ثم انتبه إلى العيون تنظر إليه, لقد عدّها بسرعة... اثنتان و عشرون عيناً فاحصةً تنظر إليه, لتشعره بأنه رمى نفسه في بحر لا يعرف الآن كيف يعود لشاطئه..

حتى صوت التلفاز سكت و كأنه ينظر إليه أيضاً, ضاق صدره بدقات قلبه المتسرع و ظهر الاحمرار جلياً على وجهه, و مرت ثوان طويلة قبل أن يرد عليه سيد السيجار "و ما أدراك يا عمو ... هذه أمريكا .. لا يحدث شيء إلا بأمرها.."

هز عمر رأسه و عاد لجلسته, لم يسمع الجواب حتى, المهم عنده كان أن يشيحوا بأنظارهم عنه...

-2-

الخامس من شباط **2011**

باندفاعه الصباحي دخل عمر باب الجامعة مستعجلاً في مشيته, يسحب كل زفير لأقصاه ليستشعر الهواء البارد المليء بالأمل في آخر سنخ من رئتيه, يطاول رقبته, و يجول بعينيه, يبحث بين الوجوه عن وجه مضر...
كان قد جهز له اليوم جرعة كبيرة من الأحاديث...
و ما لبث بعد بحث قصير أن لمح صديقه متوسط طول القامة يسدل حقيبته على كتف واحد و يطاول نفسه باحثاً عنه أيضاً...
قطع عمر نصف الطريق إليه قبل أن يراه مضر و يبتسم له و قد فهم من البريق في عيونه نصف الحديث...

- صباح الغضب... يقول مضر
- يرد ضاحكاً... يوم الغضب!...
- إذاً جاء اليوم المنتظر أخيراً.. هل تظن أن يحدث شيء؟
- إن كنت قد تعلمت شيئاً من الأيام الماضية.. فهو أن أمحي كلمة " مستحيل " من قاموسي...

- هل لاحظت شرطة المرور؟
- كنت أريد أن أسألك نفس السؤال.. من الصباح الباكر يقفون بكل شارع رئيسي.. و على كل مفترق طرق, و بحلل جديدة لا زالت نظيفة.. غالباً هؤلاء من الأمن و ليسوا شرطة مرور...
- كان منظرهم مرعباً مزعجاً.. ولكن يشعرك بنفس الوقت بخوفهم هم.. يا رب يتحقق ما.....

يقطع مضر كلامه و يغير موضوع حديثه لاقتراب أحد أصدقائهم, فلم يكونا ليجرؤا على مشاركة الموضوع مع صديق ثالث مهما قرب... و ما لبث أن جاء صديق آخر فآخر.. حتى اكتملت المجموعة التي اعتادا أن يمشيا معها...

كانوا مجموعة من طلاب الطب في نفس السنة الدراسية اعتادوا جميعاً أن يحضروا المحاضرات معاً و يتناولوا الفطور معاً و نادراً ما يخرجون جميعاً إلى مكان ما خارج الجامعة لقلة القواسم المشتركة فيما بينهم... و هكذا دخلوا المحاضرة دون أن يكمل عمر و صديقه ما بدأا به...

لم يستطع المحاضر أن يجذب تركيز عمر أكثر من دقائق خلال محاضرته كلها, على الرغم من وعود عمر التي يقطعها لنفسه كل فترة و خاصة مع بداية كل فصل بأنه سيركز و ينتبه و يدرس, و كان قد قطع آخرها بالأمس...

إلا أنه لم يستطع أن يخرج الحديث من باله فينساه و لا أتيحت له الفرصة ليحدث صديقه مضر عما يجول في رأسه فينفس بعضاً من الأفكار الجائلة في دماغه...

و مرت المحاضرة تلو المحاضرة و هو على تلك الحال...

حتى انتصف النهار و بقي للدوام محاضرة واحدة...

راح عمر يتمشى في أروقة الجامعة المتطرفة, بعيداً عن ضوضاء الطلاب و أحاديثهم... ثم خرج و وقف على باب المدرج سانداً ظهره إلى حائط المدرج الخارجي و أخذ ينظر في وجوه الطلاب المارين في ساحة الجامعة و يسأل نفسه...

"يا ترى هل يفكر أحدهم بما أفكر به؟ هل تثور هذه الوجوه البائسة يوماً؟ هل يشعرون

بما أشعر به حين أمر تحت تمثاله كل يوم؟ أم أن ما يبدونه من لا مبالاة و اقتصار التفكير و الحوارات على الحياة اليومية هو أكثر من مجرد تمثيلية يتجنبون بها مراقبة المراقبين؟ من منهم يا ترى يملك حساباً وهمياً كحسابي على مواقع التواصل الاجتماعي؟ ربما أحدث أحداً منهم كل يوم ولا أعرف..."

جعلته هذه الأفكار يبتسم ابتسامة أخذت تعرض دون أن يشعر حتى لمح وجه سامر يمشي مسرعاً باتجاه باب الجامعة الخارجي...

حمل عمر حقيبته من الأرض و رماها على كتفه و هرول بسرعة ليلحق به...

لقد أراد أن يجس نبضه, أن يتلمس نظرته, فقد كان سامر شخصاً مستقيماً و متديناً ممن يرتادون الجوامع و يحضرون دروس الدين بانتظام...

و لسبب ما كان عمر يشعر أن هؤلاء على عداوة دائمة مع النظام, فهو لا يلبث يراقبهم و يضيق عليهم, و هم لا يلبثون يتخفون في صلواتهم و اجتماعاتهم, كعدوين لدودين تفضح ابتسامتهما الصفراوية لبعضيهما الكثير عن حربهما الباردة, علاوة على أن سامر صاحب فكر و ثقافة و هؤلاء هم ألد أعداء النظام...

اقترب سامر من باب الجامعة دون أن يدركه عمر, فطباع سامر الحادة تتجلى حتى في مشيته السريعة, فلم يجد بدّاً من أن يناديه.

التفت سامر بوجهه الجاد و لحية مشذبة غير طويلة و بنية قوية عليها قميص منسدل فوق البنطال قد زرر من أوله حتى آخر زر فيه...

- عمر! سلامٌ عليكم...

- و عليكم السلام.. كيف حالك؟

- الحمد لله, صاحب الفضل الأول و الأخير.. كيف دراستك؟

رد عمر ضاحكاً.. لم أبدأ بعد.. آخر همي الآن...

- لم آخر همك يا عمر؟ و ما يشغل بالك إذاً؟

- لا شيء محدد, آمال و تطلعات و أحلام...

أكمل سامر حواره و هو يسير خارج باب الجامعة و عمر يحث السير لئلا يتأخر عنه..

- و ما هي تطلعاتك يا عمر بيك؟

- و الله اليوم بالذات أشعر بأنها تشبه تطلعاتك, ربما طريقي تشبه طريقك, فأين أنت ذاهب, نذهب سوية, أنت فقط اذهب...
ضحك سامر.. ما قصتك غرابتك اليوم, و كأنك تخفي سراً أو تعطيني لغزاً...
- لا.. لا أخفي شيئاً, فقط أقول لك.. أني سند و ظهر.. اذهب فأذهب معك..
- حذار يا عمر اليوم الخامس من شباط... قد آخذك لما يذهب بك دون رجعة..
ضحك عمر.. هذا تماماً ما أردت الحديث عنه...
لم يبد سامر موقفاً واضحاً قبل أن تأتي حافلة (جوبر – مزة أوتوستراد) ليقطع سامر الحديث..
- سامحني يا عمر.. و الله أنا في عجلة من أمري.. للحديث بقية صديقي.. و أخشى أن أترك هذه الحافلة فأنتظر فترة طويلة لتأتي التي بعدها...
ودّع عمر سامر و لم يحصل على نتيجة واضحة من الحوار...
تضايق عمر من الموقف كلّه, فعلى الرغم من ابتسامه و إظهاره لهجة المزاح في حواره.. إلا أنه انزعج للحاقه بسامر بتلك الطريقة و عدم الخروج منه بنتيجة في نهاية المطاف...
وجد عمر نفسه على الطريق السريع فقرر فجأة العودة للمنزل تاركاً المحاضرة الأخيرة و تاركاً مضر دون أن يخبره حتى برحيله... و أوقف أول سيارة أجرة صادفها.
ركب السيارة و قد بدأ الإحباط يتسرب إلى قلبه..
كان ينظر عبر النافذة إلى شوارع دمشق و يتمتم كلمات بصوت خافت...
كان يعدها بيوم باسم.. يعدها بحقبة جديدة و لون جديد... يتوعد ساحاتها بأن أفواجاً من الناس سوف يجتاحونها... يعد أبنيتها المهترئة أن وقت الترميم قد حان... و مشاريعها المتوقفة أن وقت الاستئناف قد حلّ... و أشجار طرقاتها أن وقت الإزهار قد اقترب.. و ما زال يعطي وعوداً في كل شارع و حارة.. حتى وجد نفسه في شارع بيته...

وصل عمر منزله, رنّ الجرس, و قضى فترة الانتظار كعادته يحرك برجله بساطاً وضع خارج باب البيت ليصحح وضعته و يجعله مواز للخطوط الفاصلة بين البلاطات على الأرض..
واحدة من عادات مألوفة لمن يعرف عمر, يقوم بتعديل وضعيات الأشياء و إعادة تنظيم

المكان حين يكون باله مشغول, كأن يرتّب غرفته و هو شارد البال مشغول بالتفكير..
تفتح والدته الباب, يرد على ترحيبها بجبين مقطب و ملامح تبدي انشغال باله...
- ما بك يا عمر؟ تسأل أمه..
قبل أن يهم بالإجابة يلاحظ حذاءً ليس لأحد من أهل البيت بقرب الباب..
- أمي.. علا عندنا؟
- نعم, هي و أختك ينتظرنك لتوصلهن إلى مكتب جمعية "خيرات الشام"
- حسمن أمرهن بالتطوع؟
- نعم, و سيكون عليك توصيلهن مرةً بالأسبوع و على أبيك المرة الثانية في طريقه لدوامه المسائي...
يهرول عمر ليخطف كأس ماء يشربه و يحمل بيده قطعة حلوى و ينزل لينتظر في السيارة..
على الطريق يقود عمر السيارة بهدوء السارح, يمشي على يمين الطريق, يقف على معظم الإشارات و كأنه يتعمد البطء لتنقلب حمراء.
تصل إلى أذنه بعض الكلمات واضحة من تهامس الفتاتين, و استطاع أن يستنتج بربط الكلمات أنهما كانتا تتحدثان عن الثورة المصرية و بالتحديد عن خفة الظل التي اتسمت بها بعض طرق الاحتجاج في ميدان التحرير, لم يستطع عمر أن يمنع نفسه من الدخول في الحديث, فقال موجهاً كلامه لعلا...
- و هل رأيت ذلك الشاب طويل الشعر الذي حمل لافتة كتب عليها "هترحل, يعني هترحل, انجز بسرعة ع شان أحلق شعري"؟
- نعم! و كذلك مثلها حمل أحدهم لافتة تقول الولية بتولد بتولد و الوليد مش عايز يشوفك, ارحل!"
- شعب خفيف الظل, و ثورة جاءت مفاجئة خلابة رائعة, لا أستطيع أن أبتعد لحظة عن مواكبة كل تفاصيل أحداثها... إيه...
- دبت فينا روحاً جديدة, و أرتنا فكراً و ألواناً لم نعتدها, جعلتني أحضّر خيمةً علّنا ننتظر دورنا للنزول لميدان خاص بنا...

قالت جملتها الأخيرة بضحكة المازح, إلا أنها جملة كانت كفيلة بدفع حماس عمر ليطفو للسطح, حماساً بات السمة الأوضح لعمر حين يحلّ هذا الموضوع.
فنظر إليها في المرآة العلوية.. بعيون جادة في بريقها الكثير من الوعيد..
- نعم و الله, و أنا أنتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم, و لم لا؟ شعبنا رائع, شعب عانى الكثير, شعب يستحق كل خير, شعب مضطهد مسلوب الحقوق و الخيرات...
لحظات صامتة مليئة بحماس و سرور متمازجين مرت بسرعة قبل أن تصل الفتاتان لمقصدهن و تهما بالنزول..
ودعتا عمر.. تركتاه مبتسماً حالماً.. و قد تحسن مزاجه, و عدّل شعوره بالإحباط الذي أحسّ به سابقاً في ذاك اليوم, عدّله شعور بالتفاؤل و شعور بأن أناس مثله - ربما كثر- يشاركونه الحلم و طريقة التفكير, شيء من طمأنينة حلّت به, أنه ليس وحده من يشتمّ عبق رياح التغيير التي تعصف بالمنطقة و تملأ الجو برائحة الأمل... أكمل طريقه للبيت مستأنفاً إعطاءه الوعود للشوارع و الحارات و الأبنية...

-3-

السابع عشر من شباط **2011**

اعتاد عمر و مضر الاجتماع كل خميس في أحد جوامع دمشق المرموقة بعد صلاة العشاء.
كان عمر قد اتخذ في رمضان الماضي قراراً بأن يجدّ في مسألة حفظ القرآن, فقد كان قبل ذلك يحفظ سوراً و أقساماً ليست قصيرة من القرآن شدّته إليها بمعانيها أو العاطفة فيها فحفظها, إلا أنه في صراعه مع نقص مثابرته على أي عمل يبدؤه, دفع نفسه إلى الالتزام مع شاب يكبره بعامين اسمه عبد الله ليسمّع له كمية صغيرة لا تتجاوز الصفحتين في الأسبوع, و بطبيعة الحال سحب معه مضر إلى نفس الالتزام.
و على الرغم من حثّ عبد الله لهما ليزيدا الصفحتين إلى أربع أو ست, كانا لا يحبا أن يلزما نفسيهما بقدر أكبر و يتحججا لذلك بالدراسة و مشاغل الحياة, أيضاً كثيراً ما حاول عبد الله جرّ عمر إلى دروس فقه إلا أن عمر كان يتهرب من التعمق, بوعي أبو بدونه و لأسباب يتجنب عمر أن يصرح بها حتى لنفسه...
كان اجتماعهما هذا الخميس غير المعتاد... فالكثير من الكلام و الأحاديث في

جعبة مضر هذه المرة, و كان يبدو من ابتسامته و إشراق وجهه منذ دخوله المسجد أنه يضمر كلاماً يسر الخاطر...
اصطف الشابان للصلاة دون أن يفضي مضر بما يحمل, رادّاً على طلب عمر منه أن يبوح بما أخبرت عنه معالم وجهه بالانتظار لبعد الصلاة..
انقضت الصّلاة و فرغ الجامع من معظم المصلين و لم يبق فيه إلا "أهل الجامع" من شيخه و طلابه و منهم عبد الله...
يطفئ الطلاب في هذا الوقت معظم أنوار الجامع و يغلقون بابه و يجلسون إلى ما يجمعهم من دروس تجويد و تسميع للقرآن أو حتى اجتماعات صداقة أسسها الجامع الذي يجمع بينهم من مختلف الأعمار و مجالات الحياة.
كان معظمهم من شباب العشرينات و ما دون, استساغ عمر معظمهم و وجد فيهم لطفاً, و لم يندمج مع اثنين أو ثلاثة منهم لا أكثر, إلا أن عبد الله كان الأقرب, للطف فيه و ود, مما جعله يختاره ليكون أستاذه إن صح التعبير.
عادة ما ينفض هذا الجمع إلى مجموعات تودع بعضها و تذهب كل واحدة في طريق إلا إن كان هناك ما يجمعها و يوحد طريقها, كالمباركة لزواج أو العزاء لفقيد أو مجرد السهر في بيت أو مزرعة أحدهم فيذهب الجمع سوية...
أما عمر و مضر فحبهما للتسلية كان يدفعهما للذهاب مع المجموعة صاحبة المشروع الأجمل, و غالباً ما ينتهي بهم المطاف مع عبد الله على عشاء في مطعم قريب يليه شرب العصير عند محل شهير في منطقة عرنوس...
جلس الشابان على الأرض في حلقة مغلقة مع عبد الله ليسمّعا له ما حفظا...
قبل أن يبدأا بالتسميع, التفت عمر ليسأل صديقه.. فاستبقه مضر موجهاً الحديث لكليهما بصوت خافت و بنبرة السّرّ المشوّق...
- اليوم صباحاً في منطقة الحريقة, تحول شجار بين سائق سيارة و شرطي مرور إلى تجمع احتجاجيّ, حيث تطور الصدام و تجمع الناس مارة و تجار ليدافعوا عن الشاب, حقيقةً لا أعرف تفاصيل المشكلة و لا كيف كبر الشجار ليثير غضب الناس, إلا أن المسألة تطورت لتصبح كبيرة و ذات أبعاد, لدرجة اضطرت وزير

الداخلية بنفسه أن ينزل لفضّ الجمع و تهدئة الناس الذين وصل بهم أن يهتفوا " الشعب السوري ما بينذل ! "
قاطعه عمر باندفاع و دهشة: يا الله ! " الشعب السوري ما بينذل" هكذا هتفوا؟
- نعم, و صار وزير الداخلية يهدئهم بوعود أنه سيحاسب الشرطي تارة و بالتهديد تارة أخرى و قد قال "عيب! هذه مظاهرة "
ضحك ثلاثتهم, و أردف عمر: طبعاً المظاهرة عيب, في بلد الصمت هي عين العيب...
تابع مضر: رد عليه عدد من الأشخاص الواقفين في الجمع - غالباً هم دخلاء من الأمن أو جاؤوا مع وزير الداخلية- "لا ليست مظاهرة, كلنا نحب سيادة الرئيس", و كل هذا مصور بهواتف بعض المتجمعين, و بإمكانك مشاهدته على الإنترنت.
ابتسامة عريضة و نظرات سرور و دهشة اعتلت وجه عمر الذي كان كالطفل الصغير يفتح بحماس هدايا عيده, يكرر الأسئلة على مضر و يجعله يعيد تفاصيل القصة مرات تلو المرات, الأمر الذي لم يمله مضر فلم يكن يقل حماساً عنه...
حماس حاولا نقله إلى عبد الله الذي اكتفى بالابتسام و هز رأسه موافقاً, ما دفع عمر إلى التساؤل
- ألم يدهشك الحدث يا عبد الله؟
- بلا, حدث هام و تطور غير متوقع.
- إذاً لم أشعر أنك لم تشاركنا الدرجة نفسها من الحماس؟
- لا, في الحقيقة أنا متحمس, لكن ربما هو التعب غلب ملامحي أو أن شيئاً من تعقل أو ترو أو حتى تخوف, كبح مشاعر الاندفاع أو الانتصار التي تشعر بها...
- تعقل؟! تخوف؟!
- عمر.. انظر.. وضع بلدنا حساس جدّاً, تكوين مجتمعنا أيضاً كذلك, طبيعة النظام الذي يحكمنا, تركيبته الأمنية, قبضته الحديدية كلها فريدة في قسوتها, كوني شاب جامع أعرف الكثير عن طبيعة مخابراتنا, حذرهم, مراقبتهم كل شاردة

و واردة, معرفتهم عنا و عن طريقة تفكيرنا أكثر مما نتصور, ولاءهم الشديد, تنافس الفروع في إحكام السيطرة, أنا أقدّر شغفك و أعرف طبيعتك الطامحة للتغيير و أحلامك التي ضاقت بقيودهم, لكني في الحقيقة إن خيرت بين تغيير كبير سريع و بين تغيير محدود بطيء نسعى إليه خطوة خطوة لاخترت الثاني لما أراه فيه من سلامة و تجنب للفوضى و فقدان للأمن و نزاع طويل لا ينتهي أراه كما أراك امامي الآن إن هبت في بلد كبلدنا ثورة, فليست بلدنا بتلك البساطة... ثم إن الرئيس على ما به من علل, و أنا لا أحبه طبعاً و لا أدعمه شاب و طبيب مدني, يفرق كثيراً عن أبيه ذي الخلفية العسكرية و اليد الحديدية الباطشة, لا أقول لك هو إنسان جيد و لكني أرى في التفاوض معه و محاولة الحصول منه على نتائج بالتدريج هو سبيل خير بكثير من الاندفاع للفوضى أو المظاهرات التي قد تتحول لما هو أكثر عنفاً.
الرئيس كثيراً ما يلتقي بعدد من كبار الشيوخ على سبيل المثال, فيسمع منهم و يترك لهم كامل الحرية في التعبير و التصريح, و لو أنه للأمانة لم ينتج عن هذه اللقاءات شيء جدّي ملموس...

كان كلام عبد الله كالزيت المغلي يلقى على النار فيشعل في عمر انفعالاً و اندفاعاً و كان أكثر ما أشعله وصفه للرئيس بالشاب الطبيب, استفزه الكلام و حرك شيئاً ما بصدره و وضع حمرة في وجهه و انتباجاً في عروقه, و ضغط زراً في دماغه الفريد...
لا يدري لم.. لكنه كان يشعر باختناق ما, يشعر أنه يتمنى لو أن الناس يرون بعيونه, أن يوضح لهم ما يراه... أن يسمعوا حقوقهم و يبصروا الإجحاف النازل بهم, كلمات ككلمات عبد الله تزيد الضغط في مخزن أحاسيسه لدرجة تفجر الكلمات الحبيسة المغلولة في صدره و التي يشعر أحياناً برغبة بأن يصرخها عالياً ليسمعها للبشر جميعهم, يسمعها للنائمين البائسين...

- عشر سنوات مدّة كافية لأن يبدي فيها الطبيب الشاب حسن النية و الإرادة الجدية بأن يسمع لشيوخك الكرام, عشر سنوات كافية لتبدو ملامح الانتقال من العسكر إلى التمدن, في تلك العشر سنوات نهضت دول كتركيا و حفرت اسمها بين الدول الكبرى في العالم اقتصادياً و سياسياً فيما حفر الرئيس الشاب اسم أقاربه و جباته على كل منشأة تجارية و سياحية و كل شركة مواصلات, حتى قطاع الاتصالات و الهواتف المحمولة الذي تعتمد عليه اقتصادات دول جعله باسم ابن خالته راعي اقتصاد البلاد, الذي لا تملك الفرصة لأن تبدأ مشروعاً دون أن تشاركه أو أمثاله.
احتكر سياسة في الفساد و الإفساد, فساد ينخر في كل مؤسسة من أصغر موظفيها حتى رئيسهم, فكل فاسد يضمن بقاءه بأن يلطخ أيدي من دونه بالفساد, سياسة الفقر و الإفقار لجعل أبسط حقوق المواطن في دول العالم هو سقف الحلم في مواطن بلدنا, فمنتهى أحلام الشاب هو أن يحصل على منزل يقضي فيه سنين حياته فلا يرفع رأسه أعلى من ذلك و لا يشكل خطراً بطموحاته و أحلامه...
كم أكره أن أسلم بالمعادلات التي تحكم بها الأنظمة شعوبها, أنظمة تقول لنا إما أنا أو الخراب و الاقتتال و الفوضى و فقدان الأمن...
ثم إني ليس لي مشكلة معه كشخص, مشكلتي مع نظامه بكامله, نظام المخابرات و الزنزانات المعتمة تحت الأرض, نظام الماضي الخشبي, نظام الأمس و آلامه و لكأن أبيه يحكمنا من قبره, فصبغ كل مركز ثقافي و كل معلم سوري بلونه, نردد شعاراته في مدارسنا و نمجد اسمه في كتبنا, نتبنى فكره فلا نفكر و نسبح بحمده و نكبّر و من خيره و خيرات حركته التصحيحية نستمطر, اسمه على أبواب الجامعات و الجسور و المنشآت و حائط قلعة دمشق و مدخل الأموي...
أحلم بوطن يحتضنني فأعيش فيه عزيزاً و لا أضطر للسفر لا لاختصاص و لا لعيش كريم, و طن لا يتجاوز فيه أبي الخمسين من العمر و ما زلنا لا

نراه إلا ساعتين في اليوم, وطن لا يعمل فيه المواطن موظفاً في دائرة صباحاً و سائق تكسي مساءً و عنصر مخابرات ليحصّل لقمة العيش!, وطن يحترم فكري لا يلاحقه... وطن لا يلاحق فيه المفكرون أكثر من تجار المخدرات و لا يعامل فيه المميزون معاملة العاهرات, أحلم بوطن يستبدل فيه بدولاب التحقيق و بساط الريح جهاز كشف الكذب تستبدل فيه وسائل التحقيق الحديثة بأدوات التعذيب, أحلم بوطن لا يحكمه الفكر الواحد و الحزب الواحد و القائد الخالد, أحلم أن أمشي بشوارع الشام فلا أرى عيونه ترقبني على كل حائط, أحلم أن أراها عذراء لا لأحد, أحلم أن أراها كما كانت قبله يابان العرب, أرى جامعاتها رائدة في العلم و شبابها قادة في الإبداع, و يكون فيها المخصص من الدخل للبحث العلمي أكثر من المخصص لفروع المخابرات, مساجدها مراكز ثقافية تجذب الباحثين لا المتسولين, لا يضيق فيها على المصلي و لا طالب العلم الديني و غير الديني, الحدائق فيها أكثر من المعتقلات, و قاسيون أخضر و بردى يجري رقراقاً كما كان و ياسمين الشام.....

استمر عمر بكلامه ذاك, و طال الحديث أكثر مما توقعوا, و انخرط ثلاثتهم في نقاش طويل حتى تناسوا أمر تسميع الصفحتين, حاول فيه كل من عمر و مضر أن يقنعا عبد الله بأن لا حل لوضع البلد إلا بالثورة و أن بوادرها قد لاحت, فحدث اليوم ليس مجرد حدث عابر, و كل كلمة في عبارة "الشعب السوري ما بينذل" أكبر دليل على ذلك, فيما كان عبد الله يقر لهم بسوء النظام و لكنه يتحفظ على خطورة الثورة و ما يراه من نتائج "كارثية" لها.
استمر بهم الكلام طويلاً, لم يصل فيه الشبان الثلاثة إلى مكان في نقاشهم و بقي كل منهم على رأيه إلا أنهم اجتمعوا على قرار بأن يصلي بهم عبد الله ركعتين دعوا فيها ربهم بالخير للبلد و أن يختار لها السبل الأفضل لذلك, ثم غادروا المسجد إلى بيوتهم.

أوصل عمر و مضر عبد الله إلى بيته, و قبل أن يصعد اطمأن عمر ألا ضغينة ولدها النقاش في نفسه, و أبدى أسفه عن أي اندفاع زائد قد يكون ترك جرحاً في نفس عبد الله, الذي أزالت ابتسامته الودودة كل شك في نفس عمر أن شيئاً من ذلك قد حدث, تودعا إلى لقاء الأسبوع القادم على أن يكون التسميع لأربع صفحات بدل الاثنتين التي أخذ النقاش الطويل وقتها...

-4-

التاسع عشر من آذار **2011**

في كل يوم و قبل بداية الدوام كانت دقائق الصباح بهدوئها و هوائها المنعش الأغنى بالأحاديث, يجلسان في مقهى الجامعة يشربان النسكافيه و يتناولان آخر المستجدات, كانت من أسعد الأيام التي مرت عليهما, أيام جمعت بين روح الشباب الجامعي, و شغف التطلعات, الأمل و اتساع مجال الاحتمالات في حياتهما, في مستقبلهما و علاقاتهما و بلدهما...

عموماً لم تعد الأحاديث تدور حول إمكانية حدوث ثورة من عدمها, فقد بات الأمر بالنسبة إليهما حتميّ يرونه في كل تفصيل حدث في الأيام الماضية و إنما كان الحوار كيف ستكبر كرة الثلج التي بدأت و أي مسار ستأخذ و ما الدور الذي سيشكلانه منها كفردين من هذا الشعب...

كان الأسبوع الأخير حافلاً, عاشاه تفصيلاً تفصيلاً, رصدوا أحداثه بشغف, أحاديث و أحلام لا تنتهي تراقب نمو وليدهم المنتظر الذي شهدا بداية تكونه من استنفار الأمن, و تواجدهم في كل زقاق و شارع لا يهدؤون لا يرتاحون و حتى بسياراتهم

ينامون كانوا يخشون من عبارة كتبت في الظلام "إجاك الدور يا دكتور" كتبت بإصرار و تحد على أحد الجدران في منطقة البرامكة, شهدا بداية تكونه في اعتصام أمام السفارة الليبية للتضامن مع الشعب الليبي و في عبارة "خاين الي بيقتل شعبو".

شهداه في رفرفة أجنحة الحمام قرب الجامع الأموي في 15 آذار, الحمام الذي طار بسبب صرخة قالت "الله.. سوريا .. حرية و بس"

شهداه في اعتصام قرب وزارة الداخلية لأهالي المعتقلين السياسيين, يومها كان المرة الأولى التي يطلق فيها إعلام النظام عليهم لفظة المندسين.

شهداه في أنامل أطفال درعا الذين كتبوا على حائط مدرستهم "الشعب يريد إسقاط النظام" فما كان من ذاك النظام الذي لا يعرف إلا العنف لغة إلا أن اقتلع أظافر تلك الأنامل...

و في جمعة سميت بجمعة الكرامة غصت فيها جوامع درعا بالثائرين فانفجرت المظاهرات في أحياء و شوارع درعا التي حملت شرف كونها مهد الثورة السورية ضد نظام البعث و آزرتها على استحياء مظاهرات في بانياس و أخرى من الجامع الأموي الذي قاطع فيه المتظاهرين خطبة شيخ السلطان رافضين الطاعة بعد اليوم...

في تلك الجمعة ارتقى خمسة شهداء برصاص الأمن كانوا أول من بدأ بدمه كتابة تاريخ سوريا الجديد و أعطوا بتضحيتهم دفعاً آخراً لكرة الثلج لتعصف بالنظام الذي لم يعد مناسباً للزمن الحاضر و آن أوان رحيله...

شهداه ذاك الصباح في موقف مع سامر, سامر نفسه الشاب المتدين ذو الملامح الجادة, سلم عليهم بالإيماء بيده و افترار شفتيه دون أن يصدر عنه صوت من بينهما, هذه المرة كان جوابه على السؤال عن رأيه بما حدث يوم الجمعة الماضي بصوت مبحوح و ابتسامة صغيرة:

- كانت رائعة, لأول مرة أرى الجامع الأموي بهذا الجمال, و اسأل من رأى و ذاق...

فاجأت جملة سامر الشابين و أصابتهما بالذهول, لم يتوقعا أن يكون شخص كسامر ممن قد يشاركون في حدث كهذا, كان للأمر في رؤوسهم هيبة كبيرة و كأن من يشارك فيها ليسوا بشراً عاديين...

انهال الشابان على سامر بالأسئلة, عن عدد المتظاهرين و ردة فعل كل من الخطيب و الناس و عن ماذا فعل الأمن و عن كيف انتهى المشهد الذي تطور يومها إلى مظاهرة كبيرة وصلت حتى ساحة المرجة حاصرها الأمن و أنزلوا عدداً كبيراً من أتباعهم من الباصات كالنعاج ليحيطوا بالمظاهرة و صوروهم بكاميرات التلفزيون ليعرضوها على أنها مسيرة تأييد.

تحول سامر في نظرهم إلى بطل اليوم, و كان مفاجأة لم يتوقعاها تركت أثراً استمر في نفسيهما طويلاً, و وضع كل منهما أمام نفسه يسألها متى دورك؟

-5-

التاسع عشر من نيسان **2011**

الساعة الثالثة صباحاً....
يختلط صوت المنبه بالحلم و يتعالى شيئاً فشيئاً حتى يدرك في لحظة ما أنه ليس جزء من الحلم و أن نومه الدافئ قد انتهى.
يتناول بحركة متوترة مستعجلة هاتفه المحمول ليخرس صوته المزعج, ثم يستقر في سريره ناظراً إلى السقف متململاً كارهاً للنهوض, إلا أنه يحارب رغبته تلك بالبقاء في بطن السرير و الاختباء بدفئه, لينهض و يلحق قدر الإمكان من المقرر لاختبار الغد.
اعتاد عمر نمطاً خاطئاً من الدراسة, يراكم فيه دراسته طوال العام ثم ينقض في ليال الفحوص والمذاكرات على الكتب يخرج من بين صفحاتها ما يمكن لعقله أن يصور من معلومات قد تنقذه بالنجاح بشكل تجاري بحت, و استعان لذلك بعقل يعمل بآلية "النوبات" و يصبح سريع التفكير وقت الشدة, و غالباً ما يسهر طوال ليال الفحص أو ينام ساعة أو ساعتين.

كانت مذاكرة الغد في مادة الأعراض و التشخيص, يكرهها.. يشعر أنها كل الطب ملخص في كتيب...
حمل نوطها المرمية على الطاولة تحت إبط و حاسوبه المحمول تحت الإبط الآخر و خرج من الغرفة على رؤوس أصابعه ليتجنب إيقاظ أهله.
وضع حمله على طاولة المطبخ, و وضع إبريق الشاي على النار, ليصلي ركعتين ريثما يصحو من نعاسه, و يجلس إلى نوطه...
وضع كأس الشاي على الطاولة, أعاد عد المتبقي من النوط للمرة العاشرة في ذاك اليوم, قسّم عليها الوقت المتبقي, ثم بدأ يقرأ...
ما أن قرأ سطرين من النوطة في يده, حتى بدأت نفسه تحدثه بأن يفتح حسابه لوقت قصير جداً, فقط ليطالع أجد ما حدث و يعود لدراسته فوراً.
هي مذاكرة و ليست فحصاً, كما و أنه إن بذل جهداً, و قرأ بشكل سريع مارّاً بعيونه على المهم فقط فإنه سيلحق إنهاء المفيد, لن تضر دقائق معدودة من النت... و بعد أقل من دقيقتين من صراع غير متكافئ في نفسه يفوز الشر و يفتح النت.
حمص... هو الاسم البارز اليوم, الاسم الذي خطف كل كلمات الصفحات الثورية, و ملأت صورها كل حسابات أصدقائه الثوريين... حضرت له اليوم حمص مفاجأة لم يكن ليراها في أحلامه لو أكمل نومه أسبوعاً كاملاً و بعدها أسبوعين..
سيول من البشر انسابت من أحيائها لتتجمع في ساحة الساعة, الساحة التي لا يجمعها مع عمر إلا مروره بها مرور الكرام بالسيارة في طريق عودته مع أهله من اللاذقية ليستريحوا في حمص و يشتروا حلاوة الجبن, ترسم اليوم أجمل صور الشجاعة, أجمل صور الإنسانية, أجمل الصور السورية الدافئة التي سيذكرها طويلاً.
حشود بألوان شتى رسموا لوحة فسيفسائية فريدة, شباب و شيب من مختلف الطبقات وقفوا يصلون و آخرون حولهم لا يصلون, وقفوا جميعاً يهتفون للحرية و رحيل نظام السواد..

حمص ثارت!...
بعيون لا تسمح للجفن أن يرف فيقطع مشاهدتها, قرأ عمر كيف تطور الاعتصام الذي بدأ بتشييع شهداء سقطوا في حي يدعى باب سباع, و شاهد فيديو يظهر إمام المسجد يقول لهم: سنخرج في تشييع الشبان الـ 12 من هنا و بالطريق الفلاني للتوجه للمقبرة, لا صيحات طائفية لا شعارات استفزازية... ثم يذكر بعدها أسماء الشهداء واحداً واحداً, فتنفجر بعد كل اسم تكبيرة من الحشود تكاد تشقق الجدران و يقشعر لها بدن عمر, و تعكس ألم الحرقة و القهر لفراق الشهيد.
جموع غفيرة أكملت نزوحها باتجاه المقبرة, ثم توجهت بعد الدفن إلى ساحة الساعة التي حدث فيها الاعتصام الأول المطالب برحيل النظام في سوريا, اعتصام كشف عن الوجه الجميل المخبأ تحت رماد الصمت...
ما علمه عمر هو أن المشهد كان أكثر من رائع انساب من شاشة حاسوبه إلى داخل قلبه و عقله, جعله سعيداً مرتاحاً مبتهجاً, لم يعد لهم مادة الغد مكان في عقله, و انتابته مشاعر لم يخبرها إلا عندما رأى حشود ساحة التحرير لأول مرة في مصر, إلا أنها هذه المرة كانت في بلده...
ما علمه عمر هو أن شعبه يعرف أنه شعب مظلوم و قد اتخذ القرار لإنهاء هذا الظلم, لكن ما لم يعلمه عمر هو أن مجزرة هائلة كانت تحضر لفض ذاك الاعتصام و أن طريق النضال أطول مما يظن و يظنون و أن حمص بدأت اليوم عهداً جديداً لا يشبه في شيء ما كانت تعيشه...
بابتسامة عريضة و عيون غادرتها آثار النوم و حل مكانها النشاط الذي بثه فيه الحدث, كان يدندن بصوت خافت لئلا يوقظ أهله أغنية "نحن الثورة و الغضب" لجوليا بطرس, و ينتقل من صفحة لأخرى يبحث بنهم عن صور و فيديوهات أخرى للاعتصام.. صور من زوايا مختلفة للساحة تثير دهشته و سروره, و يحفظها كلها على وحدة تخزين خارجية اعتزم أن يحفظ عليها أرشيفاً يضم صور و فيديوهات الثورة.
لم يبق على صورة لم يحفظها عنده, ثم أخذ يتنقل بين الصفحات يقرأ ردود أفعال

الناس, أصدقائه منهم على وجه الخصوص.
ثم راح يتفقد حسابه بشكل سريع, فأخذه الحال و صار يقلب الصفحات دون مقصد محدد, تنتقل به لمواضيع أخرى دون أن يشعر, إلى أن صار يقلب في صفحات للنكتة و للصور وأخرى للفنون و بعضها للآراء و مجموعة صفحات تدعو " لتحرير العقل"...
و فجأة وجد نفسه أمام صفحة عربية تدعو للإلحاد و تحرير العقل من قيود الدين...
إلا أن الصفحة كانت تتبع طريقة رخيصة قذرة, بعيداً عن أي منطق يحادث العقل أو الفكر و إنما تتحدث بطريقة استفزازية مسيئة, بذيئة الكلمات قذرة اللغة و فيها من التحد و التجريح بمشاعر الناس الكثير.
أغلق الصفحة بانزعاج و نفور و شيء من صدمة أو خوف, مستغرباً ما الذي أوصله لها أصلاً.
أشاح بنظره عن الحاسوب ناظراً في كأس الشاي الذي بدأ يبرد, ليسمع نفسه تطالبه أن يعيد فتحها بدافع الفضول...
لقد كان عدد المعلقين فيها على أحد الجمل كبير جداً... لم يا ترى؟ و هل هم موافقون لهذا الكلام؟
ففتح الصفحة مجدداً ليرى أن معظم المعلقين أناس يشتمون صاحب الصفحة أو يدعون عليه, و هو لا يأبه بهم, يكتب كل فترة جمل قذرة فيها من جرح مشاعر الناس و إهانة معتقداتهم و سب الذات الإلهية الكثير, يحرف الآيات و يجعلها جمل بذيئة مستهزئة, و يبدأ معهم في كل صباح بتحد لله إن كان فعلاً موجوداً و هو فعلاً سيد الكون القادر على كل شيء أن يدافع عن نفسه بالقضاء عليه أو شلّه مثلاً...
عاود عمر إغلاق الصفحة بشكل سريع بعد أن كانت صدمته هذه المرة أكبر, لم يصادف قبل هذه المرة صفحة بهذا الشكل و من هذا النوع, لم يعتد أن يرى تعدياً على المقدسات الفكرية بهذه الطريقة, ما زرع به منذ الصغر يتعرض لشتم

و تشكيك للمرة الأولى في حياته, شيء من خوف, انزعاج, أو شعور بالضعف انتابه لما رأى في تلك الصفحة.
فبزوغ شعر ذقن في وجهه, و حلقه إياها كل يومين, حمله لكتب طبية كبيرة و مريول لا يفارقه, و إلمامه الثقافي الجيد... كله لا يغير حقيقة أن الشاب كان يخفي في داخله طفلاً, عاد لتوه من مدارس الدين و مساجد تحفيظ القرآن.
انشغلت شفاهه بالاستغفار, بينما كان عقله يحاول فهم الصدمة التي أصيب بها و حالة المرض التي شعر أن صاحب الصفحة مصاب بها, شعر تجاهه بنقمة خالطها شيء من الشفقة عليه, و فكر بكلمات يرد بها على بعض جمله, إلا أن الطابع القذر البعيد عن المنطق لم يترك مكاناً للعقل لينطق...
أغلق المتصفح و عاد للصور و الفيديوهات التي حفظها عنده يقلب فيها, ما أجملها... كثير منها كانت مأخوذة من نقاط مرتفعة, لتظهر جمال منظر الحشد و ضخامته, يرى فيها أملاً كبيراً و شيئاً ينسيه ما عكر مزاجه و أزعجه.
" الله.. الله يا حمص" قال مبتسماً...
نظرة من جانب عينه إلى النوط المتراكمة إلى جانب الحاسوب, نظرة إلى الساعة التي جاوزت الخامسة... شعور بالندم...
"ضاعت المادة"
يغلق الحاسب فوراً و يحمل نوطته.. يحاول استجماع تركيزه المشتت بين صرخات الحرية و إسقاط النظام و سيناريوهات ما يمكن أن ينجم عن هذا الحدث و يتطور عنه وعن موعد نزوله إلى ساحة الأمويين ربما...
يحاول إبعاد الأفكار كلها, يجهد دون جدوى أن يغوص في القراءة, يذكر نفسه بأن علامته عن المذاكرة الماضية لم تكن جيدة, و أن ما بقي له لمذاكرته ساعات فقط عليه أن يستغلها لأقصاها...
كل المحاولات هذه للتركيز لم تنجح, و لم يلحق في النهاية أكثر من نصف المقرر للمذاكرة, إلا أن علامته فيها لم تكن بالسوء المتوقع...

-6-

الحادي و العشرون من أيار **2011**

طبيعة عمر كثيرة التفكير و القلق لم تسمح له بنوم هانئ في الليلتين الماضيتين.
فمنذ أن أعطى سامراً وعداً بالقدوم معه إلى إحدى المظاهرات "الطيارة" المقررة اليوم و هو في صراع بين ما يشعر بأنه واجب عليه تجاه بلده و مبادئه و أحلامه و بين الخوف الشديد.
خوف من هول الحدث و ما قد يلحق به من أذى و من ظلمة المعتقل و وحشية المعتقلين بالإضافة إلى تأنيب الضمير تجاه أهله, فكان جل خوفه من الاعتقال هو أن يحمل أهله ما لا طاقة لهم به و هو وحيدهم الشاب.
يومان قضى معظمها يرسم في مخيلته ما سيحدث, يتخيل التكبير و الهتاف و الركض و الهراوات و الاختباء و المعتقل, يتخيل الخوف و الألم و أساليب الرعب و الأسئلة الكثيرة, يتخيل جواباً لكل سؤال و يطيل في التفاصيل حتى يسمع صراخ جاره في المعتقل في أذنيه و يشعر بألم الشبح على باب المعتقل في يديه, ثم يعود من خياله إلى غرفته, يغمض عينيه الشاخصتين و يقول "لا بإذن الله لن أعتقل, بإذن الله سأعود بخير و سأحدث عن القصة أصدقائي".

ما هي إلا دقائق عدة حتى يعود لرسم صورة باص الاعتقال و ارتطام ركبته بحافة درج الباص و هو يرمى بداخله معصوب العينين...
رغم أسر الثورة لتفكيره و هيمنتها على أحاديثه حتى قبل ولادتها فغير الملاحم الالكترونية و النقاشات الطويلة مع المؤيدين و بث فكر الثورة أينما حل, غير هذا كان حتى هذا اليوم حبيس الخوف من المشاركة في فعاليات جادة في الثورة إلا اللهم من بعض الاندفاعات الصغيرة هنا أو هناك... كالكتابة بأقلام تلوين بلاستيكية أشبه بالشحم في كل مكان تتاح له الفرصة لذلك, عبارات ثورية ينثرها أينما مر.. على جدران حارته مقاعد جامعته جسور المشاة.
و يشارك بها في المعارك الكلامية بين المؤيدين و المعارضين على أبواب حمامات الجامعة – المكان الوحيد الذي تضعف فيه مراقبة الحريات – فيمحي ما كتب من التأييد و يخط عبارة اعتاد أن يكتبها "يسقط الديكتاتور قاتل الأطفال".
و ربما كانت المشاركة الأوضح هي وقوفه مراقباً لقدوم الأمن من شوارع يفصلها عن مكان المظاهرات شارع أو اثنين فكانت مهمته أن يتصل بشخص داخل المظاهرة ليهموا بالفرار.
أتاحت له تلك المهمة أن يتعرف على بشاعة وجوه رجال الأمن, غلاظتهم, السواد و الحقد في وجوههم, الرائحة النتنة التي تفوح منهم و هم يركضون بكل حقد إلى مكان المظاهرة و الكره يملأ عيونهم و كأن المتظاهرين قد قتلوا آباءهم أو اغتصبوا أمهاتهم.
كان يتعجب من اندفاعهم و في وجوههم تجهم و غضب و كأن أمن البلاد في خطر داهم سببه حفنة من الشباب, يستغرب الكره الكامن فيهم و ركضهم كالضباع التي أطلقت لتلحق فريسة لتمزقها و تفتك بها و تفجر بها سنين من الغرائز النجسة و الجوع لإلحاق الضرر بالآخرين, يحملون ما تيسر لهم من عصي و أدوات خصصت للأذى يتكلمون بها لغة لا تشبه في شيء لغة البشر...
استيقظ صبيحة اليوم و في قلبه نوع من هدوء و سكينة نوع من طمأنينة أن شيئاً سيئاً لن يحدث له, صلى ركعتي استخارة طلب فيها الخير من الله, طلب

فيها أن يعامله برحمة و إن كان في هذه المظاهرة سوءاً لأحد ألا تنجح أصلاً.
توجه إلى جامعته و في وجهه الهدوء و التسليم و لمسة من قلق تطفو كل فترة إلى السطح فتظهر جلية في قلة كلامه و سكون ملامحه...
قبل عودته للمنزل كان قد حضر لأمه حجة غياب بأن عليه لقاء سامر و محمد بعد توصيله لأخته و صديقتها, و أنه قد يتأخر لتناول العشاء مع صديقيه.
قبّل وجنتها بسرعة لئلا يدع مجالاً لشيء من تأنيب الضمير تجاهها أن يراوده.
أخذ طاقية و كمامة طبية و نزل إلى السيارة... احتار بادئ الأمر أن يضعهما في تلك الجيبة أم تلك, في كيس أم في صندوق السيارة, ثم استقر به المطاف أن رماهما تحت كرسي السائق.
رسم بدقة في مخيلته كيف سيضعهما تحت قميصه ليخرجهما فور بدء التكبير و يرتديهما بحركة خفيفة سريعة.
ظلّ يكرر السيناريو في رأسه إلى أن نزلت الفتاتان من البيت و انطلق فور ركوبهما, ثم انشغل معظم الطريق بأحاديث الثورة و تطورها.
صبيحة ذاك اليوم كان قد أخبر أخته بنيته التظاهر بعد توصيلهما لمقصدهما, فلا بد لأحد مقرب أن يعلم بأمر ذهابه و خاصة في حال حدث له مكروه, و في معرض الكلام مع علا أخبراها أيضاً بمقصده.
كان حماس علا واضحاً, حتى أنها أبدت رغبة بالذهاب للمظاهرة إلا أنه صد الطلب بأنه لا يستطيع أن يتحمل المسؤولية في أمر كهذا... و يخشى الشعور بالذنب إن حدث لأحد مكروه, حتى أنه لم يخبر صديقه المقرب مضر برحلته هذه خوفاً من حدوث أي مكروه له بسببه.
حماس الفتاة و اندفاعها أهدأ بعضاً من نوبات القلق النابض في صدره بين الفينة و الأخرى, و راح يستطرد لها بالحديث عن تحضيره لنفسه و الاستخارة و الكمامة و الطاقية و حتى البوط الرياضي...
- لبسته لأنه مريح للركض إن اقتضى الأمر... و أتمنى ألا أعتقل لأنه جميل أحبه و أتمنى ألا أخسره..

ضحكت علا قائلةً:
- حقاً جميل... أحببت ألوانه و الأبيض في أسفله...
بانتظار عودتك مساءً لتأخذنا للبيت.. ردك الله سالماً...
مع نزول الفتاتين إلى مركز الجمعية و اقتراب موعد المظاهرة تقاصرت المدة الفاصلة بين نوبات الخوف حتى باتت كنوبة واحدة عارمة تجتاح كيانه, و كأنه يمشي إلى الموت بنفسه.
يحاول أن يبعد عن ذهنه فكرة الاعتقال, إلا أنها تركض عائدة إلى باله و كأنه المصير الحتمي لنهاية ذلك اليوم.
يزداد الخوف و تضيق أنفاسه بالخوف الخارج و الداخل معها في كل شهيق و زفير, حتى بدأت نفسه تحدثه بصوت خافت: لست مضطراً اليوم, دعها ليوم آخر... ربما يكون العدد أكبر في يوم آخر و الفرصة أقل للاعتقال, علّها تكون المرة القادمة في مكان أأمن... و غيرها من المسوغات التي ساقتها نفسه لتقنعه بالانسحاب.
إلا أنه ذكرها بشعور الإحباط الذي ينتابه في طريق عودته من المسجد كل يوم جمعة من الأسابيع الماضية التي لم ينهض فيها أحد ليكبر أو يتظاهر, ذكرها بشعوره حين يعود و يفتح الحاسوب ليرى المحافظات تتظاهر فيما يقف الناس خارج مسجده يشترون الخضار, ذكرها بشعور الانزعاج للتحامل على دمشق و أهلها بأنهم متخلفون عن ركب الثورة و أنه لا يريد أن يكون جزءاً من ذلك أو سبباً له, و ذكرها بشعوره إذا عاد أصدقاؤه اليوم من هذه المظاهرة يصفون ما حدث معهم فيها و هو نادم يتحسر, فصمتت نفسه صمتاً مطبقاً و آثرت شعور الخوف على الإحباط..
التقى عمر مع سامر و محمد في منطقة تبعد عن المسجد المقرر الخروج منه شارعاً واحداً.
محمد صديق قديم, أراد القدر أن يكون مع عمر في نفس المدرسة في الفترة الإعدادية ثم نفس الكلية في الجامعة...

معرفة عمر به قليلة و سطحية لكنها حسنة لما في محمد من طيبة و تشابه في كثير من الأمور و الصفات مع عمر, علاوة على ذلك فهو بسيط يتجنب الأضواء سريع الولوج للقلب.

رأى عمر في الشحوب في وجه محمد خوفاً يماثل خوفه...

- هذه المرة الأولى لك أيضاً يا محمد؟

- نعم المرة الأولى.

- و الله غرر بنا سامر... ضحك ثلاثتهم...

بعد مشي سريع باتجاه الجامع أعطى فيه سامر عدداً من النصائح و الملاحظات الهامة ليتقيدا بها, تذكر عمر فور دخوله المسجد أنه نسي الطاقية و الكمامة في السيارة, ضحك على نفسه, و تناسى المسألة بابتسامة ساخرة و أقبل على الصلاة...

أربع ركعات للعشاء لم يركز عمر فيها لحظة واحدة.. ربما لا يذكر حتى الآيات القصيرات التي تليت فيها, كل ما يذكر منها هو غلاظة الهراوات في مخيلته.

يسجد الإمام فيتمنى عمر لو يطيل في سجوده أكثر, يقوم فيتمنى لو يطيل في قيامه أكثر, في كل ركوع يدعو قائلاً "يا ربي كما أديتها لك فاعصمني أن أؤديها لغيرك"..

يدعو أن يحميه الله من إركاعهم له باعتقال أو غيره من أذى.

يستشعر في محمد الواقف إلى جانبه خوفاً يكاد يخرج قلبه من مكانه, يظهر جلياً في حركاته المتوترة, و يسمع صوت رعشة في زفيره الهائج أثناء سجودهما...

فيقرب عمر متعمداً خنصره ليلمس خنصر محمد أثناء السجود, فيجد يده باردة قد سحب منها الدم المشبع بالخوف, يحاول أن ينقل له رسالة من قلبه "لا تخف أنا معك و حالي من حالك".

هي السجدة الأخيرة إذاً, يهمس له همساً من قلب كامل الوصول...

- يا رب, لا تتركني.. أنا بحمايتك...

يقوم الإمام من سجدته فيتأخر عنه عمر و كأنه لا يريدها أن تنتهي...

يلاحظ في تشهده أن سبابته ترتجف من الخوف.

لحظات يسلم بعدها و يجلس يتأمل في الوجوه الشاحبة حوله, سكون لا يتخلله إلا همسات المسبحين بحمد الله بعد الصلاة.... ماذا سيحدث الآن؟ من سيبدؤها؟ يلاحظ أن معظم المتواجدين شباب و أن معظمهم نهض و تناول حذاءه, حينها فهم عمر أن البداية ستكون من خارج باب المسجد.

ينهض بسرعة مع محمد يتناول حذاءه ليقف في الخارج..

لحظات تمر كساعات ثقيلة, يخيم فيها الصمت و الترقب, حتى سأل عمر سامر..

- ما الأمر؟ هل ألغيت؟

- لا أعرف ربما العدد غير كافٍ..

شعور بالراحة يجتاح صدر عمر كبقعة حبر دافئ زهري اللون بدأت في المركز و أخذت تنتشر, و كأنه رمى عن كاهله حمل الدنيا...

لقد أسقط عن نفسه ما توجهه له من تهمة بالجبن, و كأنه أخذ ثواب النية و ما عليه الآن إلا أن يتعشى مع الشباب ثم يذهب ليأخذ الفتاتين إلى بيتهما و يعود لينام بين أهله...

فأخذ يتمشى بضع خطوات يوزع الابتسامات, ثم التفت إلى محمد ليسأله: إلى أين الآن؟

فجأة من بين الجموع صرخة تشق الصمت و تلفح وجوه الواقفين

- تكبير!!

بدون أي محاكمة عقلية, رمي للذات بكل استسلام و بانسياب لطاقة دافئة تغسل الخوف فينزح خارج جسمه و تحول البسمة الأليفة على وجهه إلى تجهم يخرج ما اختبأ بين صخور همومه من رجولة ممزوجة بطعم القهر رد صارخاً بصوت واحد مع الواقفين: اللـه أكـبر..!!

كرة حمراء ملتهبة كانت كامنة داخله, تراكم عليها طبقات رمادية صلبة من الآلام و الكبت, انفجرت في تلك اللحظة محولة ما فوقها إلى شظايا خرجت من كيانه و أذابت روحه مع أرواح الصارخين حوله يمدهم بوهج الطاقة تلك و يمدونه.

كانت وجوههم مألوفة, فكثير منهم يعرفه حق المعرفة من أيام المدرسة أو من

الجامعة و الآخر شعر بأنه يعرفه بسبب ألفة خلقت بينهم, شعور بالانتماء و التكاتف.

من بين الرؤوس لمح وجه شاب, كان وجهه بعكس وجوه المتظاهرين ينظر إليهم, يعرفه... كان معه في الابتدائي, كانوا صغاراً تجمعهم براءة الطفولة, اليوم هو شاب في العشرينيات.

يدقق عمر ليجد شفاهه تتحرك معهم, فلقد كان صوت عمر عالياً لدرجة أنه لم يكن يسمع إلا صوته, نعم هو يهتف معهم, لا بل هو يقود المظاهرة.

تلتقي عيونه بعيون عمر, لا مجال للعيون الغاضبة أن تبتسم الآن, لكن في الداخل سلما و تعانقا, قال له عمر.. أنت معنا, أنت أشجع مني, سوف أذهب معك لآخر الطريق, نحن أخوة الآن...

أين الخوف المهيمن؟ تقزم حتى اختفى, و فجأة ... مات...

كانوا يمشون بمحاذاة حائط بحيث يبقى الحائط على يمينهم و الشارع بسياراته على يسارهم, وقف الناس مدهوشون, منهم من كان قد خرج معهم من المسجد و منهم من كان هناك بحكم الصدفة و كثير منهم كبار بالسن..

قرأ عمر في عيونهم استغراباً و دهشة و لسان حالها ينطق بعبارة

"شباب مجانين!"

واحد من الواقفين كان في نظرته خبث و كان يتحدث عبر الهاتف و قد تدلت سيجارة من فمه, كان منظره غير مريحٍ البتة.

جاءت عينه بعين عمر فوقف عن الهتاف لمرة واحدة فقط, و فوراً من بين الناس اندس عمر للداخل إلى محاذاة الحائط, هنا لا يمكن لأحد أن يراه...

خفت صوت الهتاف قليلاً, و كأنهم قلب واحد سويةً شعروا أنه حان وقت تغيير الهتاف.

هذه المرة بدأها عمر, لم يكن ينو قيادة المظاهرة, و كانت بعيدة كل البعد عن رغبة إظهار الذات, كانت بسيطة كل البساطة, لقد قال ما يريد, قاله بصوت عال و قالها الجميع من بعده:

الشـعب يـريد إسـقاط النـظام...!!
كانت تخرج من أعماقه و كأن قوة داخله تشد جميع كراسي العالم و ترمي بها إلى الأرض.
كان الهتاف مرفقاً بصفقة, عادوها مرات و مرات علّ صراخهم يحرك شيئاً في نفوس النائمين.
التفت دماغه لحظة واحدة ليديه, كان يصفق بأشد ما أوتي من قوة, و شعر أنهما تورمتا و أصابهما الخدر من شدة التصفيق, لم يلق بالاً لهما, تابع ما بدأ به.
لمح إلى جانبه شاباً بذقن منكوشة و شعر طويل و لباس غريب الطابع, لا يعرف أي موضة هذه, كانت بألوان صارخة بعيدة عن المألوف, ابتسم عمر لقد لفت المشهد انتباهه, لأول مرة ينظر عمر ابن البيئة ذات الحدود الضيقة لشاب كهذا على أنه أخ, لقد خرج يخاطر بنفسه بدافع الإنسانية بدافع سوريته و جمعه معه دين الشرف و القيم... دين الحرية...
علت فجأة كلمة غريبة سكت بعدها الجميع و توجه كل منهم في طريق يهرول...
كلمة "فركش" عرف بطبيعة الحال أن معناها: وقت الهروب قد حان...
سحبه سامر من مرفقه فانعطف يساراً و معه محمد...
ركضٌ متناوب مع الهرولة تبعدهم عن مكان المظاهرة ليدخلوا في شوارع أخرى, بعدها راح يمشي بخطوات سريعة ثبتها على الأرض بكل قوته و هو يقول لنفسه إياك أن تنقصف ركبتيك تحتك و أنت تمر أمام حرس السفارة, إياك أن تنظر في عيون الحراس قد يشكون فيك, كن على طبيعتك...
أمتار أمام السفارة هي الأخطر في طريق الهروب كانت كأميال.. مرت بسلام..
ينعطفون للمرة الأخيرة ليصلوا إلى الشارع الذي ركن فيه عمر السيارة.
يحاول التقاط انفاسه و يبلع ريقه ثم يلتفت إلى محمد..

- اشتر **3** قناني عصير من هذا المحل

- عصير !! الآن؟

- نعم, بسرعة ريثما أدور بالسيارة...
يدور بالسيارة, جاعلاً مقدمتها باتجاه طريق الخروج.
يقفز محمد إلى السيارة مع قناني العصير و بسرعة ينطلقون, يصادفون أثناء خروجهم باصين للأمن يدخلان عكسهم لمكان المظاهرة, و قد تدلى من أبوابهما رجال أمن بأسلحتهم... ربما كانت أعدادهم تفوق أعداد المتظاهرين...
كيف لحقوا؟ ما هذه السرعة؟ لم تدم المظاهرة أكثر من دقائق.
يتجاوزون الباصين و الوجوه المتجهمة اللاهثة إلى فرائسها, ينظرون إليهم و قناني العصير في أيديهم ببراءة اللصوص...
و يخرجون إلى الشارع العام, لحظات و يتلاشى كل توتر, و يبدأ شيء من الهدوء الدافئ ينسل إلى أفئدتهم, و ينقلب انفعال الخوف إلى بهجة...
بصوت مبحوح لحنجرة مجروحة استنفذت كل طاقتها, و ابتسامة بقمة الإشراق...
- كيف يا محمد؟!
- تذهب العقل, يا الله ما أجملها!!
- الحمد لله على سلامتكم يا شباب...
تنعكس حالة السرور و الانفعال التي كان بها على قيادته السيارة لتصبح سريعة متهورة..
ضحكات, سعادة, نصر.. سقط النظام من داخلهم..
شردوا في حديثهم و نشوة نصرهم حتى وجدوا أنفسهم فجأة بعيدين على طريق مشروع دمر.. يضحكون على أنفسهم سكرانين .. ما الذي أوصلنا هنا؟
تتصل أخت عمر لتطمئن عليه, يحادثها يطمئنها و يلمح شرطياً قد رآه و هو يتحدث على الهاتف أثناء القيادة, فيبتسم عمر ابتسامة بلهاء, و يغض الشرطي الطرف...
يقضي ساعة مع صاحبيه يتناولان فيها سندويشات سريعة, يوصلهما إلى بيتهما, ثم يعود لاصطحاب الفتاتين و يروي لهما مغامرته الأولى مع نظام الأسد, سعادة و راحة أكمل عليها طريقه, شجعته على العودة مستقبلاً مرات و مرات...

يصل لبيته, يخلع حذاءه و يضعه في مكانه مع ابتسامة رضى, لقد بات لهذا الحذاء أسباب جديدة ليحبه...

-7-

الثالث عشر من كانون الأول **2057**

بيد نقش فيها الزمن بقع الشيخوخة يوصد عمر باب غرفة خافتة الإضاءة عالية السقف لها أرضية خشبية يتوسطها سجادة قديمة, في الغرفة حائط كامل من الكتب و مكتب صغير و أريكة حمراء خمرية اللون أصاب قماشها ما أصابه من الشيخوخة...

شيخوخة صبغت شعره بالأبيض و حفرت في ثنايا وجهه الأخاديد ثم خرت مهزومة عاجزة أمام عينيه التي لم تستطع أن تغير من قوة بريقها و ما فيها من صدق و تحد, إلا اللهم من بعض التجاعيد التي رسمتها على أطرافها دون أن تستطيع تغيير لبّها و مضمون رسائلها...

يمشي بهدوء عبر الغرفة ممرراً يده على أطراف الكتب ليصل إلى مكتبه الخشبي الغامق, يضع عليه ما حمله من مشروب ساخن في يده, و يقف بصمت أمام واجهة بلورية ضخمة ينظر عبرها إلى قطرات المطر..

كثير من الأمور غيرتها أيام السنين الطويلة, حبه للمطر ليس واحداً منها.

بابتسامة فيها من الحزن ما فيها من الاطمئنان, و بصوت بحته السنون تنفتح

شفتيه بالكاد لتقول "وحدك تعلم..."
ترسم عبارته دموعاً على النافذة المتعرقة فيمسحها بيد راجفة بكم ردائه, و يلتفت يساراً ليتوجه إلى خزانة تحت رفوف الكتب ليخرج منها صندوقاً خشبياً قديماً.
يضع الصندوق إلى جانب كأسه و ينزل ببطء ليهبط في أريكته المنخفضة...
طقطقة تشبه تلك الصادرة من مفاصله أثناء الجلوس يصدرها الصندوق أثناء فتحه, يحرك عنق مصباح معدني وضع على جنب المكتب ليسلط الضوء على محتوى الصندوق القديم.
يفتح الغطاء ليكشف عن مجموعة من الأشياء, أغراض عشوائية لا رابط بينها و لا قيمة مادية لها...
دفتر قديم مصفر لون الورق مغلق بالكاد لما يحتوي من أوراق إضافية زجت بين أوراقه و على طرفه تظهر على الغلاف بقايا أرقام محتها السنون, مصحف صغير زجت بداخله أيضاً بعض الأوراق, علم استقلال مهترئ, وشاح حيك بألوان علم الاستقلال, ربطتي يد إحداهما سوداء و الثانية بألوان علم الاستقلال أيضاً, مسبحة بنفس الألوان و مسبحة أخرى خشبية بحجار كبيرة في طرفهما خيطان أحمران ملتويان يثير منظرهما الشفقة, قطعة بلاستيكية سوداء كتب عليها بحروف صغيرة لا يقدر على قراءتها.. كانت قطعة من قنبلة دخانية, وحدة التخزين الخارجية التي أرشف عليها صور و أحداث الثورة السورية, أقلام تلوين, تذكار صغير بلاستيكي مربع الشكل على ظهره مغناطيس ليعلق على الثلاجة, مريول طبي عليه بقع حمراء بنية كلون القهوة أو الدم القديم, و تحت المريول الذي كان يفصل بين تلك المحتويات و بينه كان يمكث محتلاً مكاناً كبيراً من الصندوق حذاء المظاهرات, فقدت إحدى فردتيه رباطها و تحول الأبيض فيه إلى بني و بدت عليه علامات الاهتراء...

-8-

السابع من آب **2011**

(أول رمضان في الثورة)

متأملاً في قرعة أبيه أمامه وقف عمر في صلاة العشاء و إلى يمينه مضر و عن يساره محمد, بنصف شرود و نصف تركيز تمر الآيات عبر رأسه فتختلط بصور و أفكار و ذكريات خالقة مزيجاً من ألوان شتى متحركة, تكاد يكون لها معنى.
و في خلفية تلك الألوان كلها كان لون غامق لا يتغير و لا يتحرك, خلقه الشعور بتوتر و تأنيب ضمير تجاه أبيه, الذي كانوا ينتظرون انتهاء صلاة العشاء حتى يغافلوه و يذهبوا لجامع آخر ستخرج منه مظاهرة بعد الركعة الثامنة من التراويح, ثم يعودوا و يكملوا للعشرين في مسجدهم هذا...
خوف أبيه من اندفاعه الثوري جعله يحرص كل يوم على اصطحابه معه إلى هذا الجامع و هو نفس الجامع الذي اعتاد عمر أن يسمّع فيه القرآن لعبد الله.
أسبوع من رمضان مر حتى الآن, و ستكون هذه المرة الرابعة التي يخرجون فيها بعد العشاء و يعودون دون أن يشعر أحد...
في كل مرة يخرجون فيها للتظاهر كانوا يتبادلون ثلاثة أدوار, دور القلق المعطي لتعليمات الأمان و الهروب, دور المطمئن لصديقيه بصوت يمزج بين الإيمانيات و العقل, و دور المازح المستخف بالموقف الذي يحاول أن ينسيهم خوفهم, ما يلبث

نفسه أن يأخذ دور القلق ليسلم دوره للآخر و هكذا حتى يحين وقت قبل المظاهرة بقليل يخيم فيه السكوت عليهم...
مع كل مظاهرة يحل الرعب نفسه و الحماس نفسه, و تجتاح نفوسهم مشاعر التحرر نفسها, و يتضامنون لإزاحة الخوف بالتلاحم نفسه و يحل بهم بعدها شعور النصر نفسه...
عمّقت تفاصيل تلك المغامرات أواصر العلاقة بينهم, و تركت لهم ذكريات في مناطق مختلفة من دمشق كل منها لها عوامل خطر خاصة به و أساليب هروب و طرق نجاة.. و صار بينهم نوع من التناغم و التفاهم و التكامل, حتى لم يعد أحدهم يخرج للتظاهر دون الآخرين...
كان محمد يحمل معه مصحفاً صغيراً كحلي اللون يقرأ منه في ركعاتهم الثمان قبل المظاهرة, و في كل مرة يخرجه من جيبه يخبره عمر أنه مصحف جميل و أنه يحب لونه ناسياً أنه قد أخبره بذلك من قبل...
عادوا اليوم من مظاهرتهم متأخرين فوصلوا مسجدهم و الإمام يدعو في صلاة الوتر.
في تلك الفترة كان هناك احتدام في الصراع, و المشاعر في أوجها, فقد افتتح النظام رمضان باقتحام حماة بالدبابات و بالتصعيد الأمني في سائر البلاد, و افتتحه الشعب بالتصميم و منظور متفائل يرى في أيام رمضان فترة لحسم الصراع لصالحه.
فكان الإمام يدعو الله للنصر و الخلاص بطريقة مبطنة مخفية تقبل وجهين... فتعلوا الأصوات بالتأمين و الاستنجاد...
يرمقهم عمر فيقول في نفسه: لا بد لله أن يستجيب لهم, لا بد أن يكون بينهم قلب مخلص, لن يترك الله شعباً يذبح وحيداً و تنتهك كل حرماته و هو يستنجد به قائلاً "يا الله ما لنا غيرك يا الله", مهما قسى الاختبار و طال, فلا بد لرحمة الله أن تخرجهم مما هم فيه, لا بد لملايين الدعوات في السجدات و الصلوات من كل أنحاء الأرض أن تنزل بالسوريين رحمة تكفيهم ما نزل بهم من عذاب, فلا يغير

قضاء الله إلا الدعاء و هو القائل "ادعوني استجب لكم", لا بد و أنه امتحان مؤقت و غمة لكشف معادن الناس و سيأتي بعدها فجر قريب, لكن لم إذاً لم تفلح الدعوات عبر السنين في رفع الظلم عن الشعوب المظلومة في فلسطين و غير فلسطين؟.....

حاملاً تساؤله المفاجئ و بحثه عما قد يريحه من الأجوبة عاد عمر للمنزل متعباً بعد نهاره الطويل..

استراح ساعة أكل فيها بعض الفواكه ثم شاهد نشرة الأخبار فنسي ما كان قد بدأ به من نقاش مع نفسه.

الأخبار التي حلت عند عمر هذا العام مكان البرامج الدينية في وقت المساء الرمضاني في السنوات الماضية...

يستلقي في سريره و في نيته أن يغفو سويعات قبل السحور, فيحاول إسكات دماغه عن أي تفكير, و يطبق جفنيه ظاناً أن اليوم قد انتهى...

يرن هاتفه, من جانب سريره...

يتناوله بيده و يشق عينيه اللّتين أحرقهما نور الهاتف في الظلمة.

كان المتصل مضر .. و في صوته شيء من القلق, يطلب منه أن يفتح الحاسوب ليحدثه بأمر هام, كان اتصاله قصيراً لهجته فيه مضطربة خائفة... نقل إليه طلبه ثم أغلق الخط مباشرة, بطريقة توحي أن الأمر طارئ...

اتجه إلى حاسوبه ليفتح حسابه و يحدثه بطريقة آمنة غير مراقبة...

- ما الأمر يا مضر ؟ ..
- مصيبة يا عمر مصيبة !!
- بسم الله !! ما القصة احكي لي..
- جاءنا إلى باب البيت استدعاء لي من المخابرات الجوية!!
- يا ساتر!! يا الله!! ... هل تعرف ما القصة؟ ما السبب؟

- ربما تعرف علي احد في المظاهرة التي خرجنا فيها قريباً من منزلي, أو غيرها... لا يوجد سبب آخر..
- يا الله! و ما العمل الآن؟
- لا أعرف, أهلي خائفون منزعجون جداً, لقد حل بهم البلاغ كالصاعقة, يقول أبي أنه سيحدث أحد معارفه يعمل في المخابرات ليرى في الأمر, فإن لم يكن اسمي عمم على الحدود فسيرسلني لأسافر خارج البلاد في أقرب وقت ممكن..
- هل لديك جواز سفر؟
- نعم, الحمد لله...
- يا الله, تلطف بنا يا رب.. أسأل الله أن يمضيها على خير و ألا يلحق بك شيء, أن يتولاك بعنايته و حمايته...
مضر.. أخوك جنبك إن كان بإمكاني تقديم أي شيء.. هذه مشكلتنا معاً.. و إن شاء الله سنمر منها معاً.....

كانت صدمة مفاجئة, و أزمة حلت خانقة فضاقت الدنيا بالشابين, و مرت عليهما ليلة و ساعات عصيبة إلى أن تأكد أبوه أن اسمه ليس على الحدود, ليضب أغراضه على عجل.
عجل قاس لم يتح له أن يلتقط أنفاسه, أن يودع أحبابه, أن يودع بلده, ترك جامعته و التزاماته, كل همه كان أن ينجو بجلده, رامياً بنفسه إلى المجهول.
لا يعرف كيف سيكمل دراسته أو ماذا سيحل به في الغربة, مجهول كان في أبشع صوره أكثر إشراقاً من قتامة فرع المخابرات الجوية الذي لم تكن زيارته خياراً على طاولته.
حجز كرسيه في الطائرة بعد يومين, بطاقة ذهاب دون إياب, لا أحد يعلم متى يكون الإياب إلا الله.
يومان ثقيلان مرا ببطء, و خليط من الخوف و الهم حاصرهم من كل جانب, و استلزمهم استحضار كل قوة و إيمان في داخلهم إلى أن تنجلي غمتهم, تضامنا

سوية في مصيبتهم و شاء الله أن تمر بسلام...

العاشر من آب 2011

يرجف صوت الإمام و يغلبه البكاء و هو يقرأ من سورة التوبة
((أم حسبتم أن تتركوا و لمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم و لم يتخذوا من دون الله و لا رسوله و لا المؤمنين وليجة و الله خبير بما تعملون))
يتمعّن عمر في كل آية و يتفحصها لتتحول فجأة إلى سؤال صغير إضافي غالباً ما يكون جوابه لنفسه عليه مما تعلمه من الحجج و الإيمانيات في المدرسة أو الجامع جواب مسكن لكنه ليس شاف بالشكل الكامل...
يقف اليوم في صلاته و عن يمينه محمد و إلى يساره رجل سمين قد وضع كرسياً لصعوبة سجوده على الأرض.
اليوم صباحاً ودع صديق العمر, ذهب مع أهل مضر إلى المطار ليودع ابنهم, إلا أن خجله أمام الأهل لم يسمح له أن يعطي الوداع حقه, و بكاء أهل مضر أثناء الوداع أوجب عليه أن يودعه بشيء من الهدوء و بابتسامة ممازحاً إياه: لا تطل الغياب يا مضر, سنسقطه بأسرع ما استطعنا لتعود للاحتفال معنا...
البسمة و المزاح و اللامبالاة أقنعة يلبسها عمر لا تنجح عادة في تغطية ما يكنه من مشاعر و خاصة أمام مضر الذي يعرفه أكثر من نفسه, فلقد كان غياب مضر في هذا الوقت شديد القسوة.
مضر شريك الدراسة و الجامعة, المؤتمن على الأسرار و العارف بالأحوال, معه بدأ ثورته و معه تشارك أحلامه و خاطرا معاً لجعلها حقيقة...

غاب عن عمر من يعيش معه المغامرات ثم يضحك معه عند تذكرها, من يتنبأ بنوبات جنونه و يتحمله أثناءها, من يدرس معه قبل الامتحان ثم يواسيه عند النتيجة, من يطمئنه قبل المظاهرة و يركض معه بعد انتهائها.
أيام و سنين من الذكريات استوقفت اليوم لمدة قد تطول أو تقصر و لا يعرف كيف ستنتهي إلا الله..
لم يتوقع عمر أن غياب مضر قد يؤثر فيه بهذا القدر, اتضح له اليوم أن لصديق الطفولة و الجامعة دور في حياته لم يكن يقدر حجمه حتى ذهب و شعر بالفراغ الذي تركه, فعلى الرغم من كثرة الأصدقاء كان لشريك البسمة و الدمعة مكانة خاصة في قلبه...
لم تخف الابتسامة الجافة شيئاً من الضيق داخله و قد بدت كدمات الحزن على قلبه في عينيه.
قلة كلامه اليوم و قصر أجوبته جعلت من مسألة فتح حديث معه لينسيه ضيقه مهمة صعبة على محمد الذي انتظر انتهاء الركعتين ليلتفت إلى عمر بابتسامة هادئة و بعد تنهيدة طويلة:
- اشتقنا إلى مزاحك و مشاكستك يا عمر.
- ستعود, إن شاء الله, فقط لست بالمزاج المناسب الآن.
- لقاؤنا القادم مع مضر في ساحة الامويين, فلا تبتأس يا عمر.
هز رأسه موافقاً و اكتفى بالابتسام...
يمد محمد يده إلى جيب سترته و يخرج مصحفه الصغير, يمرره أمام عيني عمر منتظراً ما سيقول.
ينظر عمر للمصحف و تنشق شفتيه للكلام فيقاطعه محمد قائلاً
- أعرف! مصحف جميل, لونه جميل, وهو من الآن لك...
نفحة من انتعاش و سرور تعتلي وجه عمر, و كثير من الامتنان و الشكر كان ردّه على اللفتة اللطيفة من محمد الذي أصر عليه أن يأخذه... و قد اختصرت البسمة الوليدة على وجه عمر كل كلمات الشكر.

يقطع حديثهما تربيت على كتف عمر, يلتفت فيرى عبد الله يومئ لهما بأن يقوما و يخرجا من الصف و يأتيا معه إلى مؤخرة المسجد ليرتاحوا بالحديث..

- طمني يا عمر, هل خرج بسلام إن شاء الله؟

- نعم, الحمد لله, هو في جدة الآن..

- الحمد لله, أسأل الله أن يرده عما قريب سالماً غانماً, و أسأل الله كما ودعت أن تلاقي قريباً..

- آمين يا رب, غمة و تزول...

أثناء الحديث لاحظ عمر بقعاً على عدسة نظارات عبد الله, فيخرج من جيبه منديلاً و يعطيه إياه...

- هاك, امسح نظارتك..

يحمل عبد الله النظارة بيده و يتفحصها في الضوء باحثاً عن البقع ثم يقول ضاحكاً

- هذه من التشييع في دوما.

- التشييع؟

- نعم, يرشون فيه ماءً على المتظاهرين ليخففوا من حر الزحام

- عبد الله ! أنت كنت في تشييع في دوما؟!

- نعم, تشييع **3** شهداء

- الله أكبر! حدثني عنه.. كيف كان؟ ما الأعداد؟ و كيف انتهى؟

فيما راح عبد الله يستفيض في حديثه و في وصف الحدث, انتاب عمر شعور إيجابي, و سعادة غامرة, شيء من الطمأنينة و الفخر بأصدقائه, بالناس الصادقة حوله.

فمنذ بداية الثورة بدأ الناس يصنفون بالنسبة له بتصنيف جديد, أبيض و أسود, خير و شر, صادق و منافق, منذ بداية الثورة و قد وضع الناس في غربال لم يصمد فيه إلا الأحجار الكريمة.

و قد اصطف معظم أصدقاؤه المقربون و من كان يكن لهم بالمودة في صف

المظلوم في صف الحق الواضح, لا يتجاهله إلا منافق أو أعمى.
شعر أنه محاط بأناس طيبين, يتجلى جمال شعبه فيهم... في طيبة مضر و معزّته, في جدية سامر و صدقه, في بقع الماء على نظارات عبد الله, و في مصحف محمد...
من كان يصدق أن محمد ذو الشخصية الخجولة و البنية الضعيفة أن يصبح رفيقاً في المظاهرات؟ من كان يصدق أن سامراً الذي كان قد أصابه بالإحباط من قبل أن يكون من أول الناس الذين خرجوا في مظاهرة في سوريا؟ و أن عبد الله الذي طال معه النقاش يوماً ليقنعه أن الثورة حق, يحدثه اليوم عن روعة الشعور في التشييع؟...
لم يعد الأمر قابلاً للنقاش فعندما يتعلق الأمر بالظلم, بالدم, بدموع الأمهات, يصبح اتخاذ الموقف واجب, و عندما يتعلق الأمر بفتيان يعتقلون و شباب يقتلون لأنهم خرجوا ينادون بالحرية, عندما يتعلق الأمر بحمزة الطفل السوري الرمز, الذي كان هول قتله ليس لأنه الأول و هو حتماً لم يكن الأخير, و ليس لبشاعة الفعل و لا لتعرية نظام حقير, و لا لدموع أمه فمثل دموعها بات في سوريا كثير, بل عظمة مشهد قتله كان في فيصلية الحدث, فمن لم يصحو بعد ذاك المشهد ينقصه من الإنسانية الكثير... عندما يتعلق الأمر بمشاهد كهذه يصبح حسم الموقف أمراً أخلاقياً صميمياً...
على أسس و معايير جديدة أعيد تصنيف الناس عند عمر, الأسس الجديدة لم تكن أبداً دين أو تدين, منطقة أو ثقافة أو سوية اجتماعية, المعيار الجديد الأهم كان هو الضمير...
فأزالت الثورة بين عمر و أبناء شعبه كثيراً من الحواجز كانت بنتها ظروف يراها اليوم متخلفة غبية, فوجد نفسه محاطاً بشعب أقرب إليه, تحول كله في نظره إلى شعب كامل من مضر...

-9-

الخامس و العشرين من أيلول **2011**

رحلة الباص...

من بين بقايا سحب رقيقة متناثرة و رطوبة يستشعر تكثف قطراتها على وجهه تشق خيوط دقيقة من أشعة الشمس طريقها لتعرض رويداً رويداً و تبدد ظلمة الطريق بهدوء واثق و ثبات لا يزعزع تماماً كما قدر لها أن تفعل في كل يوم...
يهرول عمر ليلحق حافلة توصله إلى موقف حافلات إحدى الجامعات الخاصة على طريق حمص.
حرصه أن يكون على الموعد و اعتياده من رمضان الماضي أن ينام حتى وقت متأخر, جعله يؤثر ألا ينام في الليلة الماضية و خصوصاً بعد أن أطال جلسته على الحاسوب, ففضل أن يصحو يختلي بنفسه يجالس أفكاره و كوباً من القهوة بالحليب و ربما قلماً و ورقة.
يصل موقف الحافلات يصعد في أول حافلة يصادفها, يجلس في أول كرسي يصادفه,

ثم بعد إعادة النظر يغير الكرسي, أراده أن يكون بقرب نافذة تطل على جهة الشمس يراقب شروقها و يستمتع بمشاهدة الطريق الذي طالما أحبه, طريق السفر إلى الساحل في الإجازات...

مجموعة من الأصدقاء ينتظرونه في تلك الجامعة, كان قد وعدهم بزيارة جامعتهم ليقضي يوماً معهم.

في الفترة الماضية زاد تفاعله مع دوائر أوسع من الناس و ازداد حوله الأصدقاء الكثر أصلاً, ينسب عمر ذلك إلى التغييرات فيه و تأثيرات الثورة عليه و ما خلقته من علاقات و ربما غياب مضر...

اكتفى السائق بعدد من الركاب يملؤون أكثر من نصف المقاعد بقليل.. لينطلق بتسارع ثابت و قيادة هادئة في طريق مر بها مئات المرات..

في حافلة هادئة دافئة أرجع عمر الذي لم ينم ليلة الأمس ظهر كرسيه المريح للخلف, و أخرج من الحقيبة في حضنه سماعاته و وضعها في أذنيه, و شق الستارة قليلاً ليسند رأسه إلى النافذة, و يترك الطريق بما فيها من مساحات شاسعة و جبال و أشجار و حصى و سيارات و بعض البشر المتناثرين... تركض أمامه و يفصلها عنه شباك سميك عازل لترسم مشهداً متناغماً متسارعاً, بقدر ما فيه من السكوت بقدر ما فيه من الصراخ...

تتقلب الأغاني واحدة تلو الأخرى قالبة معها معاني الصور و مضامين المشهد.

تمايلت الحافلة بسلاسة مع الموسيقا, و مع أنغامها صعدت و هبطت على حدبات في الطريق, و تسارعت و تراقصت مع تسارع إيقاعها... تراقصٌ زاد من نعاس عمر الذي صار في مكان ما بين النوم و اليقظة..

استغرق الأمر أقل من عشر دقائق حتى نام آخر راكب في الباص, و ترك لعمر خصوصيته ليغرق في أحلام يقظته التي يتشارك في رسمها كثير من الأفكار العالقة و الصور المارة أمامه و الموسيقا في رأسه...

تسارعت الصور و تشابكت و تداخلت كسمفونية صاخبة متماسكة يدخل في تركيبها ألوان صارخة و أخرى هادئة, كان لحنها أخاذاً فلم يقاومها بل استسلم لها

بشكل كامل.
لم يكن يعرف ما يريد لكنه شعر بشيء من رضىً و طمأنينة لما هو قادم, يعرف تمام المعرفة أنه مشرف على تحول ربما هو نضوج أو ربما هو استكمال للماضي لكن بوتيرة أسرع, لم يكن يهتم بأن يحدد, فهو راض عن هذا التحول و مستسلم له...
فجأة من بين مقاطع الموسيقا خرج مقطع كان قد سجله للقارئ في رمضان الماضي, كان المقطع عن رحلة موسى يوم قال له ربه " اذهب إلى فرعون إنه طغى"... كان عمر مستلقياً بارتخاء جعله أضعف من أن يمد يده لهاتفه ليغير المقطع, مقطع قصير مقتضب, ما لبث أن انتهى لينتقل للموسيقا من جديد...
و عاودت الألوان التموج في رأسه, أحيانا تندمج بسلاسة كأمواج طلاء متلاطمة... و أحياناً تتداخل بعنف و يتناثر الشرر من مكان تداخلها...
مرت العصور بسرعة, قامت امبراطوريات و انهارت أخرى... أصوات بشرية تمر من بين الألحان لتذكره بضعف الإنسان و معاناة الشعوب على مر الأزمان..
اختلف زي الإنسان و شكله و تشابهت المعاناة...
في اللون الأحمر و الأسود كان يرى أجزاء من شعبه, يرى عيونهم و دمائهم, يرى شعبه يعاني, تقصف بيوت فيرى أجساداً مقطعة و أطرافاً مبتورة... رسمت تلك المناظر عبسة على وجهه و تقطيبة على جبينه...
بدأ فصل جديد من المسرحية عندما مر من بين الأشياء الراكضة خارج نافذته, ناقلات جند و حاملات دبابات كانت متوجهة إلى حمص..
أغمض عمر عينه و أخذ يركض باتجاه معاكس للأشياء الراكضة حوله..
كانت الدبابات كتل من الكراهية السوداء تزحف ببطء و لؤم, و كان الجنود ضباعاً تلهث و يشر من أطراف ألسنتها الكذب و الحقد..
و كان بين كل مجموعة من الضباع انسان أو اثنين بعيون خائفة مهمومة, تمنى عمر لو يستطيع أن يفعل شيئاً, أن يحضنهم بألوان موسيقاه فيخرجهم مما هم فيه و يساعدهم على انتشال أنفسهم من مستنقع لا ينتمون له...

علت الموسيقا و تسارعت و أخذت طابعاً هجومياً, فرأى شاباً يسحل في الشارع و قد تكالب عليه خمس ضباع يضربونه لا يرحمون فيه عضواً, رأى مئذنةً تهدم, أصابع رسام تكسر و حنجرة مغنٍ تقتلع, و رأى طفلاً يصرخ أمه و قد وضع يديه على رأسه فتساقط شعره حزناً, فكبرت معالم وجهه في ثلاث دقائق خمسة عشر عاماً...

أسرع في ركضه حتى بدأ يشعر أن قدميه ترتفعان شيئاً فشيئاً عن الأرض و شعر بالخدر يجتاحهما لينتشر في كامل جسمه...

رأى نازحين يهربون هائمين على وجوههم, رأى متظاهرين يصرخون, و سمع أزيز رصاصة ترتد من الأرض تاركة فيها جرحاً..

رأى الأمن يقتحمون جامع الرفاعي ليلة 27 رمضان و رأى الناس يتكاتفون ليغلقوا الباب في وجه الأمن و قد اجتاح الجمع ضجيج الخوف و الذعر...

تزايدت سرعته و شعر أن أجزاءً منه راحت تذوب و تتآكل.. و شعر بانسياب الحرارة في عروقه...

ثم رأى شاباً تخترق رصاصة صدره, لتسلب بسمته فجأة و تحولها إلى ملامح صدمة, و تبهت الألوان كلها و يصمت الكون بأكمله, و تستحي الأرض من دورانها, فيما يقع الشاب للخلف ببطء و هدوء, بعينين شاخصتين يهبط للوراء و الناس مهتاجون يتراكضون من حوله بسرعة, استمر بسقوطه و في وجهه و يديه بدأ نور يزداد و يعظم, يهبط بسكون حتى يلامس الأرض فيتناثر فور تماسه بها, ككمية كبيرة من الماء ألقيت من علو...

انفجرت طاقة إضافية داخل عمر فدفعته أسرع و أسرع, تحول إلى كرة من اللهب كنيزك يشق الهواء..

رأى مشفى ميداني يركض فيه الأطباء حيرانين... فشعر بألم في رأسه و معدته... ألم غريب, ألم طفل جريح بترت ساقه و لا يجد وسيلة ليعبر عما يشعر إلا الصراخ...

رأى فتاتين إحداهما في الثانية عشرة و الأخرى في الواحدة و العشرين, غزا الشيب حواجب الصغرى, كانتا مطرقتي الجفون شاخصتي البصر, تجلسان بصمت,

مصدومتين... خائفتين.
كرهتا الحياة يوم اغتصبتهما الضباع و نهشت لحميهما.
مد عمر يده ليلمس رأس الصغرى ليسرح خصلة من شعرها, ليشعر بها, فسمع صرخة كادت تصم أذنيه أبعدته للوراء و تلاشت الفتاتين بسرعة في الهواء..
تعاظم غضبه و زادت سرعته و انسحبت خلفه الرياح و هاجت العواصف و ذيول من ألسنة اللهب... و تحول أخيراً إلى عاصفة عارمة أطرافها السواد و قلبها الألوان و النيران...
رأى طفلين يرسمان شخابيط على ورق أبيض, يرسمان وطناً مبتسماً مشرق الشمس, و عائلة سعيدة, على وجه كل من أفرادها خط منحن بسيط رسم بيديهما الصغيرتين.. بسمة عريضة ... هي كل ما يتمنيان...
فجأة يمحي الطفل من رسمته الأب و يلون وجه الولد بالأسود و يحمر بياض الورق و تشتعل في أطرافه النار و تتلبد الغيوم لتغيب الشمس في الرسم, ثم يرسم منها قطرات مطر رمادية تحولت أثناء نزولها إلى قنابل تمطر حمص و ودوما و درعا و إدلب و دير الزور و حولت البسمة إلى ركام غطى كل شيء و حل صمت مظلم, فخفتت الموسيقا إلى أن سكتت...
ثم بدأت معزوفة جديدة, معزوفة مد فيها عمر يده ليخرج طفلاً من تحت الأنقاض, سحبه, حمله و ضمه, ثم رفعه في السماء و صرخ بأعلى صوته, صرخة من العمق, من معاناة شعب لم يعتد الدموع و الآلام التي امتدت أياماً و شهوراً سوداء, شعب لم يعتد الحزن و الخوف منقطع النظير...
لم يكن لعمر أن يتخيل يوماً أن ينزل بشعبه ما نزل به, لماذا كل هذا العذاب؟ عذاب تتناقله في كل يوم نشرات الأخبار, فتعجز الكاميرات عن نقل كل هذا الكم من الألم, ألم تبحث في طيات التاريخ فيندر أن تجد له نظيراً..
بدأ مسار رياحه يصبح أكثر وضوحاً و صار يتجه جهة قصر الفرعون يعصف ما بطريقه من دباباته و جنده... لمح في عينيه خوفاً من بعيد, فصرخ به صرخة شققت جدران قصره و هزت الأرض من تحته, و اختبأ حراسه تحت كرسيه و

تمسكوا بثوبه..
مرت بخياله صورة المصلين واقفين يدعون في رمضان, يدعو الإمام فتتعالى أصواتهم بالتأمين, فسأل نفسه السؤال الذي يسأله بعد كل نشرة أخبار, و بعد كل صدمة مؤلمة ألم السكاكين في أعناق الأطفال... لماذا؟ لماذا لا يستجيب الله لهم؟ لماذا يترك مساجده تقصف؟ و المؤمنون يقتلون و يعذبون؟ و الحرمات تنتهك؟... لماذا؟ لماذا؟..
تعاظمت الأسئلة بسرعة ككرة الثلج إلى أن وصلت إلى التساؤل عن فائدة الدعاء و صدق الدين و وجود الله و الحكمة من عذاب الشعوب, تساءل عن كثير من المسلمات, تساءل عن صحة الثورة و صواب أحقيتها, و عن غايتها و مآلها و ما قد تكون نهايتها, ثم تساءل عن نفسه.. كم سيتغير؟ و كيف؟...
زاد غليان الغضب في صدره حتى دفع جدرانه من الداخل و أخيراً انفجر البركان, حال انفجاره دون اكمال فرعون لصراخه و أكمل على الباقي من دباباته و القطعان, و عصفت أشلاؤه و الشظايا المتناثرة منه بما بقي منه من دنس و بما امتد من ظلاله من الجبال حتى الوديان, طارت الغربان هرباً فما رحمها يفرمها و تلتهمها رياحه و النيران.
ما ترك منهم أحداً إلى أن أنهك و بدأت تخبت نار غضبه شيئاً فشيئاً, يشطف بما بقي فيه من طاقة كل ما يتعلق بفرعون و عبيده و عربدتهم و أدوات تعذيبهم و لاحاتهم البشعة و حروفهم المعقدة و روائح عفنهم..
تضاءل رويداً رويداً, تناقصت كتلته بالتدريج, هدأت رياحه و انقشعت غيومه و بردت دماؤه ليعود لون السماء كما كان..
لم يبقى منه إلا نسمة لطيفة مر بها على و جنة أم تبكي حبيبها الشهيد, و على جبين شاب يرنو السماء متفائلاً بوضع بلاده الجديد...
و أبعد خصلة شعر عن عيون طفلة لتكمل طريقها إلى المدرسة فالجامعة و المستقبل البعيد, ثم ترك نفسه ينام و يبقى ذكرى في خواطر أناس ما عادوا عبيد...

بسمة رضى لاحت على وجهه المرهق فيما انحرفت الحافلة يميناً, فأيقظته من أحلام يقظته ليجد نفسه قد دخل مفرق الجامعة...

استغرق الأمر لحظات حتى استفاق تماماً و فهم نفسه بأي مكان هو, نظر إلى ساعة يده, وصل مبكراً بخمس عشرة دقيقة عن موعده...

أعاد سماعاته للحقيبة, فرك عينيه و رتب شعره و استعد للنزول...

لم تترك الأسئلة الكبيرة التي طرحها حلم يقظته قبل قليل قلقاً كبيراً في نفسه و لم تشعره بالخوف أو تأنيب الضمير كما العادة.. لسبب ما كان مطمئناً و كان يقول لنفسه أن هذه الأسئلة حق له و أنها لا تخيف و أنه في رحلته هذه سيجد كثيراً من الأجوبة و خاصة أنه مخلص البحث صادق التفكير...

قام من كرسيه المريح, انتظر ليتيح المجال لمرور بعض الركاب من الممر ثم تبعهم و نزل درج الباص إلى موقف الجامعة, إلا أنه من يوم ركب تلك الحافلة لم يغادرها قط, فقد حرص ألا ينزل قبل أن يصل الموقف الأخير من رحلة عمره...

-10-

يشعر عمر أن كره معظم الناس للخريف نابع من عدم فهمهم له, فيما يرى في ألوانه الباهتة عتاقة ماض دونه لا يكون مستقبل, و بين خبايا حزنه وعود تعطي الربيع جنونه.

تلك المرحلة التي يعيشها عمر من حياته كانت خريفاً بامتياز, تمر بهدوء فتسقط عن وجهه ملامح لا يحتاجها, و يشتم فيها رائحة الغيم يقترب من بعيد, تنحته ببطء و حنية محضرة إياه لشتاء قاس و تحول كبير...

بمسير هادئ تمر الأيام و الساعات و الدقائق, ينضج فيها, تكبر أفكاره حتى تصبح قرارات, و يلتزم بقراراته حتى تصبح عادات, و تتجمع عاداته حتى تصنعه من جديد...

تبطئ حافلته و تسرع لكن رحلته لا تتوقف أبداً, في كل محطة يمر بها تصعد إليها أسئلة جديدة, و تجري حوله أحداث جديدة توضح معالم الرحلة أكثر...

تحاصره آلام شعبه و تشتد, و تقسو الظروف عليه كما تقسو عليهم, فتكسبه صبراً و تعوداً على الأحزان و الآلام و مشاهد الموت اليومي.

تجعله يعتاد التعايش مع فكرة الموت, المرور إلى هناك, حيث هناك يعرف الأجوبة, أصبحت الدموع عادة و مشاهدة فيديو لشهيد يلفظ أنفاسه ثم تكراره عشرات المرات أمر شبه يومي, يتخيل نفسه مكانه و يشعر بما يشعر, حتى أصبح الموت أقل غرابة و أقرب من أي وقت مضى...

و جعلته يكبر في الأيام القليلة أعواماً طويلة...

للدراسة سويعات في أسبوعه, ما يكفيه فقط لينجح و ينتقل في سنينه, و كعادته يتدبر أمره في امتحاناته بما يجمع من معلومات على قلتهم...
و اكتفى للعمل الثوري بالمجال الإغاثي, فمنذ أن غادر مضر لم ينزل مظاهرة, و لم يترك شعاراً على جدار... اكتفى بمساعدة المنكوبين و المتضررين, تهريب الأدوية و الأغذية, و العمل على تأمين حاجياتهم...
يستقبلهم بسيارته من ساحة العباسيين, عائلات بأسرها مشردة, يرى حالهم و قد حملوا ما استطاعوا حمله, و وقفوا ينتظرونه هناك..
فلمس بنفسه معاناة الناس, رأى بعينه بشاعة التشرد و الجوع, و سمع بأذنه قصص الموت و الاغتصاب, لم يكونوا أرقاماً بالنسبة له, كانوا بشراً من دم و لحم, لهم أسماء, و وجوه, و عواطف, أحبهم تردد عليهم و شاركهم آلامهم..
بعد مرور فترة تخصص عمر في تأمين حاجيات ذوي الاحتياجات الخاصة الذين شردهم القصف و العمليات العسكرية, كتأمين الكراسي المدولبة و غيرها من الحاجات المادية و الدعم النفسي, فعايش هموماً لم يعايشها من قبل, و طرحت حالاتهم له عدداً جديداً من الأسئلة عن مفهوم الرحمة و العدل الإلهيين, إلا أن انهماكه في العمل, و امتلاء جدول يومه شغلاه عن الالتفات لتلك الأسئلة, فأهملها أو ربما أجلها...
غير ذلك كله, كانت نفسيته بحالة من السكينة و الهدوء و الرضى عن الذات, تتراكم الصعوبات لترفع عتبة تحملها, و تصبح أكثر قدرة على العطاء, و مواجهة قسوة الحياة...

اليوم هو الثامن عشر من شباط **2012**

فيما كان اسم محمد يضوي بصمت على شاشة هاتف عمر في غرفته, كان عمر يراقب قطرات الماء تقطر من وجهه أثناء الوضوء... غسله ثمان مرات ببطء, يحاول أن يصحو, في كل مرة يمسحه فيها ينظر إليه بتمعن وهدوء.

أنهى وضوأه, فرشى أسنانه, لبس ساعته و قميصه, تعطر و ارتدى سترته, صلى ركعتي استخارة, و طلب الرحمة و الحماية من الله, أغلق شاشة حاسوبه التي كانت تظهر خريطة لمكان التشييع في المزة اليوم, ضب محفظته و هاتفه, انتبه أن محمداً قد اتصل به أربع مرات, أخذ مريوله لئلا يثير شك أهله و لبس حذاء المظاهرات و هرول خارجاً من منزله لأسفل الدرج...

فور خروجه من منزله اندهش بمشهد رائع تصنعه رقائق بيضاء صغيرة من الثلج تتلاعب بها الرياح فتقذفها يمنى و يسرى, فاستفتح يومه بالبياض النقي...

و وجد محمد ينتظره قريباً من البناء رغم أنهما قد تواعدا في منتصف الطريق بين بيتهما, فلم ينجح اعتذار عمر عن تأخره من أن يقضي نصف الوقت إلى المزة يتلقى المزاح من محمد عن تأخره و عدم التزامه الدائم بالمواعيد, فيرد عليه بمزاح مقابل في جدال يخوضه الشابان للترويح عن النفس.

أمّا نصف الوقت الآخر فانقضى وهم يتحدثان عن الثلج و جماله و يراقبان كسفه متنقلين من جهة لأخرى في الحافلة ليشاهداه عبر النوافذ, كطفلين مأسورين بروعة و جمال المشهد, و يراقبان بحماس و بهجة تجمعه على الأرض و السيارات و أوراق الشجر...

هذه أول مرة يخرجان فيها للتظاهر منذ أن سافر مضر, و كانت المظاهرات التي شاركوا فيها من بداية الثورة صغيرة, طيارة لا يتجاوز عدد المشاركين فيها العشرات غالباً, أو المئات في أيام الجمعة..

مرا من حارات فرعية ليتجاوزا الحواجز التي أقامها الأمن على الطريق, و تأكدوا أنهم على الطريق الصحيحة من وجود عشرات الأشخاص يسلكون معهم الطريق نفسها...

ما إن وصلا المكان حتى تفاجأا بعدد كبير من الناس, أتوا رغم البرد القارس و تجمعوا في مجموعات حول المسجد المقرر خروج تشييع الشهداء منه.

من بين الجموع جاهدا ليصلا باب المسجد و بصعوبة دخلوا, كان المسجد ممتلئاً بالكامل, و همهمات الناس تشبه أصوات الحمام قرب المسجد الأموي, كان كثير منهم معروفين لدى عمر أو أنه ظن ذلك.

منعهما الزحام من الجلوس, فآثرا البقاء واقفين قريباً من باب المسجد بانتظار التشييع إذ أن صلاة الفرض قد فاتتهما.. و نظراً لوصولهما متأخرين لم ينتظرا كثيراً...

التفت عمر إلى محمد قائلاً..

- ما أكثرهم!.. ما أجملهم...

لم يكمل كلامه حتى صدح صوت عال يقول... وصل العرسان!

لم يكن متأكداً أهي نسمة الثلج الباردة التي تسللت من الباب أم عبارة الرجل التي جعلت جسده يقشعر..

وقف معظم من في المسجد و غيروا اتجاههم من القبلة إلى الباب و تطاولت الرقاب تنظر الواصلين الذين اجتمعوا لزفافهم اليوم...

وسع الباب بأن فتح القسم الذي كان مثبتاً منه... فأصبحت البوابة مفتوحة على مصراعيها, يمر عبرها نور مصحوب بنسيم بارد...

مع اقترابهم من الباب بدأ الناس يتجهون للداخل ليتيحوا لهم المجال بالدخول..

اعتلى عمر درجة على طرف الباب ليتيح لحملة الشهداء أن يدخلوا...

مع اقتراب العرسان من البوابة تسارعت دقات قلب عمر و انتظمت في ايقاع أخذ شكل قرع الطبول لاستقبال القيصر الموشح بالبياض...

من الباب دخل عريس مستلق بطمأنينة على سرير ليس كالأسرة, تحمله أكف الناس الذين ضجوا يرحبون به بالهتاف و التكبير...

كملك من ملوك الروم دخل ترفعه السواعد, و تمر من بين أيدي حامليه أشعة الشمس لداخل المسجد, و تتعلق به الأنظار, يجلونه و يعظمونه, و يرون فيه مخلصهم العظيم الذي قدموه قرباناً لحريتهم المنشودة.

أتاح الوقوف عالياً لعمر رؤية الشهيد عن قرب, حتى باتت معالم وجهه واضحة.

نظر إليه, كان وجهه مألوفاً هادئاً تعلوه السكينة و ملامح الرضى, يرتدي الأبيض و الأبيض

فقط... و قد علقت بشعره ورقة من الورد المنثور عليه... آثار الدماء المغسول على أطراف فتحتي أنفه, عيون نائمة بسلام, حولها هالة توحي بالإرهاق, و شفاه أقرب للابتسامة, بشرة بيضاء, زادها البرد ابيضاضاً... كان شهيداً شاباً إلا أنه رأى فيه حكمة زكريا و طهارة العذراء...

فيما يمر أمامه ببطء, مد يده بتردد, أراد أن يلمس شيئاً من تلك العظمة فمرر أصابعه على الخشب الذي استلقى عليه الشهيد... و كأنه يعيق تقدمه و يؤخره عن الرحيل...

تعالت الأصوات بهتاف فيه كثير من القهر من حناجر الرجال الحزينة:

" بالـروح بالـدم نفديـك يا شـهيد"

عادة ما يشارك عمر بالهتاف بحماس و صوت عال حتى يبح صوته, إلا أنه آثر ألا يزعج سكون الشهيد المار جنبه, بصمت كان يتابع المشهد المهول, و يحدثه حديث الروح لا الشفاه...

ينظر إليه بإجلال, ما أقربه إليه... ما أبعده عنه...

أتينا اليوم لأجلك... نم أنت بسلام... لنكمل نحن الدرب, و الله سنكمل الدرب, و لن يقدروا أن يعيدونا حتى يعيدوا اللون لوجهك و النطق لشفاهك و الدفء لجسمك.. لن يقدروا أن يرجعونا لبيوتنا حتى يرجعوا دموع أمك لعيونها, لن نرجع حتى نحاسب من فعل بك هذا, من جعلك بلا حراك... لك وحدك أقولها يا أصدق ثائر يا من برهن على صدقه بكل ما يملك : بالروح بالدم أفديك...

ابتعد الشهيد للصفوف الأولى, ثم هبط مؤقتاً ليصلوا عليه...

يعلو صوت الإمام يدعو لهم بالرحمة و يطلب من الناس الاصطفاف للصلاة..

بكلمات موجزة يذكرهم بصلاة الجنازة, فيسمع عمر إلى جانبه شاباً صغيراً يقول:

- حفظناها يا شيخ.. صرنا نصليها أكثر من المفروضة...

مع أول تكبيرة من الصلاة يهدأ صوت الجمع, و تحل سكينة في المسجد, هدوء عارم حل به حتى استطاع صرير صادر عن باب في الطابق السفلي أن يصل أذن عمر...

و حين صار وقت الدعاء لهم بعد التكبيرة الثالثة, دعا عمر لهم كثيراً, دعا لهم بصدق, و حلت به لحظة من تلك اللحظات التي يشعر بها أن رحمة الله قد لامست قلبه و يشعر

نفسه شديد الوصول و القرب...
فدعا للشهيد الذي كانت اللحظات التي رآه فيها كافية أن يشعر أنه يعرفه منذ زمن, و أنه يدعو لعزيز فارقه, دعا الله أن يكرم ضيافته و ضيافة آلاف مثله رحلوا عن سوريا و باتو ضيوف الرحمن, دعا أن يؤنس وحشته و وحشة المعتقلين الأحياء الأموات, أن يكون مع أهله و أهل سوريا كلهم.. أهل سوريا الحزينة..
ثم دعا لنفسه أن يهديه فلا يضيعه و يسدد خطاه في رحلته, و ينزل في دربه الرحمة أينما حل..
دعاه ..و دعاه ...و دعاه حتى أدركته التكبيرة الرابعة..
ما أن سلم المصلون حتى عادت الضجة و الأصوات المتداخلة, أراد الشيخ أن يخطب فيهم بضع كلمات, إلا أنهم لم يتيحوا له إلا فسحة ضيقة من الوقت قبل أن يرتفع الشهداء على الأكتاف و يواصلوا رحلتهم الأخيرة من جديد...
اتجه الشهداء نحو باب الخروج, فانتظرهم عمر لم يشأ أن يخرج قبلهم, تدافع الناس بالخروج من الباب الذي ضاق بهم, فيما حمل عمر حذاءه بيد و مريوله بالأخرى و وقف في مكانه.
نظر إلى يساره فوجد محمد على بعد ثلاثة أمتار يبحث عنه بين الجموع, فتوجه إليه بصعوبة من بين الناس, و بساعده سحبه من تحت ابطه و ضمه إلى جانبه.
انتظرا الشهداء ليسبقوهم للخارج, فوقفا جانباً و إلى جانبهم عجوز على رأسه عقال رمادي, أشيب شعر الرأس و الحواجب, وقف ينتظر معهم و هو يتلو بتجويد صحيح و صوت فيه بحة عميقة آيات من سورة القمر...
ثم تبعا جموع الناس, في زحام شديد و حركة بطيئة, يتخبطون يمنى و يسرى بحسب ما يدفعهم الناس...
ما إن خرجا من المسجد حتى لفحت وجوههم الرياح المحملة بكسف الثلج, فلف عمر وجهه بالمريول و لبسه كوشاح غطى به وجهه من تحت عينيه و رقبته.
بالكاد استطاع فتح عينيه بسبب الرياح و الثلج ليرى حشوداً ضخمة من الناس امتدت كبساط من البشر في كل الجهات حول المسجد و لأبعد النقاط التي يستطيع رؤيتها,

امتدت الجموع مع الأشجار و الأبنية.
كانت الأرض تنبع بالبشر و أبواب السماء مفتوحة بثلج منهمر, فاتصلت الأرض بالسماء و التقى الجمعان على أمر قد قدر, كلهم هنا لينقلوا الشهداء...
سار خلف الشهيد, و أبقى عيونه عليه, يتخبط الناس حوله و ترتفع الأيادي و تهبط, و يرتفع معها النعش و يهبط و هو مستلق على ألواحه لا يحرك ساكنا, تنزل رقائق الثلج فتذوب على وجنتيه فلا يبدو على وجهه أي تعبير...
توجهوا إلى المقبرة كسيل جارف يطهر في طريقه ما لوثه المستبد...
ما زال عمر لا يهتف, كان يمشي مع الجمع و قد ألجمه المشهد المهيب, يتأملهم, و ينصت إليهم, يتفحص جمالهم بهدوء...
ينظر للأعلى فيرى نساءً بأطقم الصلاة البيضاء وقفوا على الشرفات يهتفون معهم, كانت الملائكة ترمي الشهداء بالثلج, و كن هن يرمينهم بالأرز, فيختلط بياض الثلج بالأرز, و ينزل سلاماً و بركة على الشهداء و المشيعين...
ينظر حوله فيرى أناساً سوريين, كم هم ملونين...
شيوخ و شباب و نساء... رؤوس بشعر أسود و أخرى بأشقر أو أشيب, و رؤوس صلعا و غيرها بحجاب شامي الطابع و غيرها بشعر طويل أو قصير.. بألوان و ألوان... و قد جمع الشهيد الجميع خلفه, حتى اتحدت ألوان الطيف كلها تلك في لون واحد هو بياض الثلج, فلا يرى إلا رؤوساً متشابهة تسير إلى مستقر واحد...
يمشون جميعاً في عرسه, يهتفون له, هو اليوم سيد المشهد, يلفهم حوله كمغناطيس توجهت إليه برادة الحديد...
يتمايلون و يتداخلون, و تغيب عنهم الفرقة, كجموع قصدت مكاناً مقدساً في موسم الحج, ترى فيهم الخشوع و الدموع, و تحتجب العيوب كل العيوب, حتى الذنوب تُسحب خطاياها من وجوههم فلا ترى فيهم قبحاً أو دونية بشر...
يرددون الهتافات و يتمايلون في مشيهم كمن يترنم على أنغام لحن صوفيّ جعلته يخرج من ماديته لتودع روحه روح الشهيد...
غرق عمر بين جموع الناس, و التحم معهم, صار حجراً في لوحتهم الفسيفسائية, فتلاشى

البرد, و أشعل النور الصادر عنهم النار في الثلج المتساقط...
يمشون به في شوارع ألفها و يحبها, لكنه لم يرها أجمل من يومه هذا, كانت لأول مرة بهذه النظافة, يغسلها جمر المشيعين و ثلج السماء.
استسلم للتيارات تلعب به, و أرخى جسده يذهب أينما توجهه, و ثبت نظره على الشهيد, الذي كان مستسلماً مثله, فتارة يبرز للأعلى من بين الناس و تارة يغوص للأسفل..
تحولت الأصوات إلى ما يشبه صوت الموج, و لم يعد يرى معه في المشهد إلا الشهيد يطفو إلى مصيره, في عاصفة لا تزعزع سكونه..
أحل هدوء الشهيد السكينة على قلب عمر الذي راح ينصت له, و ترسم كلماته ابتسامة على وجهه, أصغى إليه و فهممه بلغة الروح مجدداً, فسمعه يقول:
"أراكم من صندوقي, كالبحر.. تموجون بي, التففتم حولي, تذهبون بي إلى تلك الحفرة, و أرى السماء..
ربما هو دوار البحر, أو ربما هي الصورة تنقشع فأفهم من أنا.. و أعرف الأجوبة...
سقطت لأجلكم فسموت لأجلي...
اليوم سأعرفه أحدثه, أخبره, سأشكو له عن ألم وطن, عن ألم إنسان
سأقول له بلا حجب, كم كانت قاسية تلك السحب, التي مرت بسماء بلادي, و لن أنساكم... سأحدثه عنكم, سأحدثه مطولاً عن كل فرد فيكم...
و سأسكن قلوبكم, حتى لا تخاف...
أسمع أصواتا تناديني للجنة, و أتجنب تلبيتها, و اتجاهل حتمية الذهاب, فالجنة ها هنا في بلادي..."
اقترب المشيعون من المقبرة, فتعالت صرخات الوداع, و ازداد اللّحن الصوفي سرعة, عرف عمر أن وقت الفراق قد حان, يحدثه بكامل الرضى, سنلتقي يوماً يا صاحبي, على دربك سائرون...
من بين الجموع لمح شعراً أسوداً قد عصفت به الرياح, و ذابت قطع الثلج عليه فزادته لمعاناً, تابع الشعر حتى وصل للوجه, كانت علا... أو فتاة تشبه علا, حجبه عنها جموع الناس فأعاد رأسه للخلف أراد أن يتأكد, يبحث عنها بين الناس, أين؟!... لكنه لم يجدها,

ربما خيلت له, فكل فتيات الشام تشبه بعضهن اليوم...
يعود بنظره للشهيد فيجده قد ابتعد عنه, فيجدّ السير بين الناس ليلحق به...
دخل الشهيد باب المقبرة, فأسرع عمر ليقترب منه... لحظة عصيان غير مفهوم تلمع في رأسه! لم يرده أن يذهب, لم يرده أن يدفن, أراده أن يعود, لنكمل معاً بعض الوقت, لم ينته العرس بعد, فليستمر مدة أطول...
يشق عمر طريقه بصعوبة بالغة بين الناس, رياح الثلج تهب عكسه و تعيقه, و الزحام يعرقل مجهوده و يقذفه للخلف...
بلا جدوى استمر يعارك التيارات ليصل إليه, يرنوه بعينين ملئتا بالشوق, ناداه, طلب منه الانتظار, لمن سيترك أهله و أحبابه؟
لا ترحل... نظرة أخيرة قبل أن يغيب طيفك..
كسمكة السلمون تسبح عكس التيار تسلل الوهن إلى جسد عمر.. يلهث حتى ضاق المريول بنفسه فخلعه...
و غزا اليأس نفسه, فاستسلم لمشيئة التيارات...
رآه يغرب بين هضاب البشر, يغرق للأسفل بين الناس و يردم بالثلج ليخيم الظلام...
فوقف مكانه يشاهد و ينصت...
لأول مرة يمتزج في أذنه حزن اللحن الصوفي بصوت رجال الشام يزفون بالعراضة العريس إلى مثواه, هكذا هم منذ أن خلقوا, مجبولون بالحب, و الحب لديهم بلا حدود, يعبرون عن شدته بمزجه بكلمات الموت.. فإن أحبوك عشقوك و طلبوا منك أن تكفنهم و تقبرهم ثم تشكل آسهم...
فيما يهبط بسكينة لمثواه الأخير, سكتت أصوات الجموع و علا منفرداً صوت مقرئ شجي الصوت و في خلفية صوته أنين رجال يتحول أحياناً لبكاء صريح, تلا بعض الآيات و لقنه أجوبة إذا ما سأله الملكان...
بالدموع و الصيحات, و حبات الأرز الممزوجة بالثلج, ودع الشهيد للأسفل, نزل بطمأنينة, و أغلق عليه اللحد و أهيل عليه التراب, لينتهي فصل من الحياة و يبدأ آخر, و تنتهي قصة شاب بخير نهاية, تاركاً جرحاً إضافياً في جسد الشام بانتظار أن يشفى...

خرج الناس ليبدؤوا موكباً جديداً من باب المقبرة, تغيرت الشعارات من الهتاف للشهيد إلى العبارات المنددة بالنظام و القتلة, ليتحول التشييع إلى مظاهرة حاشدة, اكتشف فيها عمر أنه قد أضاع محمد, و آخر مرة رآه فيها كان بعد الخروج من المسجد بقليل, فوقف مع مريوله بين سيول الناس.

نظر إلى الجموع حوله, إلى من يقف بينهم... يشعر أنه منهم, يشعر أنه جزء من قوة لا تقهر, يقع عليه ما يقع عليهم... فنسي الخوف والوحدة.

هنا بدأ عمر بالهتاف معهم, و استمرت المظاهرة مدة كافية لتنسيه حزن الفراق و تحوله لشعور بالرضى و الفخر, شيء من تفريغ الغضب و القصاص من القتلة...

تجولت أفواج الناس الغاضبة في شوارع دمشق, قطعت الطريق الرئيسي و تغلغلت بين الحارات, مرت على أحياء فقيرة و أخرى غنية, لتكشف وجهاً كان مخبأً لمدينته...

وجه أرهب الديكتاتور, فأرسل أرتالاً من الأمن, حاولوا حصارهم من كل مكان, إلا أن الجموع كانت مخيفة و أكبر من أن تكبحها تلك الجيوش, فلجأوا إلى فتح النار عليهم...

انطلقت الرصاصة الأولى و اخترقت جسد أحدهم... فدبت في أجساد البقية الذعر...

سقط على الأرض, انخلع حذاؤه من قدميه, و توسخت ثيابه بالأرض المبلولة, ثم تفشت بقعة حمراء في ثيابه, ما لبثت أن امتدت حوله على الأرض...

كانت تلك الرصاصة إشعاراً لانطلاق حالة من الهيستريا العارمة, و أتبعت بوابل من الرصاص, و حل الهلع في صفوف المتظاهرين, و أخذ الأمن يلاحقهم من كل جانب كأسراب الدبابير الهائجة, و توقف الثلج, و امتلأت السماء بعشرات الخطوط البيضاء خلفتها خلفها القنابل الدخانية, و تحول المشهد فجأة من بياض الثلج إلى سواد الهراوات و البواريد و القنابل الصوتية و الدخانية...

كثيراً ما يتجنب عمر لبس نظارته الطبية, يرى وجهه أصدق دونها, اليوم ندم على ذلك...

دخل مهرولاً حارة مع عشرات الشباب الراكضين, فجأة وقف الشباب حوله و عكسوا اتجاههم, نظر للأمام, حاول أن يفهم, رأى حائطاً أخضراً و أسوداً يقترب منه, اتضح له أنهم الأمن يركضون تجاهه...

بصدمة وقف يتأملهم وحيداً حيراناً, إلى أن صرخت به امرأة من إحدى الشرف:

- اركض يا بني!... اركض!
أدار ظهره, و بكل ما أوتي من قوة و أكثر, و بكل ما زرع داخله من غريزة البقاء و الطاقات الكامنة التي انفجرت كلها في آن واحد, و جعلت في ساقيه قوة لم يخبرها من قبل...
ركض.. ركض لأسرع مرة في حياته, ركض إلى نهاية الشارع, ثم انحرف يساراً و بعدها يميناً..
تفكيره أصبح أسرع من المشهد كله, حتى يبدو كل شيء بطيء مقارنة به... يتخذ قرارات الانعطاف و الهروب و يرسم في رأسه خريطة و خطة للهروب, ثم خطة بديلة, يتشوش قليلاً بصور من داخل المعتقل و نقاش مع السجان, لكنه يعود لطريقه, لينعطف يميناً و يصرخ بمن حوله من الشباب الراكضين أن يفعلوا كذلك...
أصبحت حواسه أكثر حدة فلم يعد بحاجة للنظارة يرى حوله بوضوح و يتجه من حارة لأخرى, يسمع أصواتاً صادرة عن الأمن و عتادهم فيبتعد عن الحارات المتواجدين فيها, و يشتم رائحة الأدرينالين تجري في عروقه...
دخل حارة ضيقة, فدخل معه ثلاثة شبان, كان هو الأسرع بينهم, فأصبح في المقدمة...
بيد دراجة يقودها رجل مسن باتجاه معاكس لهم علق مريوله, فطار المريول و سقط على الأرض و داسه خطأً أحد الشبان الراكضين خلفه...
في أحد أعشار الثانية قرر ألا يتخلى عنه, رجع إليه, حمله و أكمل راكضاً لآخر الحارة الضيقة...
رائحة كريهة أخذت تقوى فتحرق عينيه و تخرش أنفه, ازدادت حدة حتى ضاق بها نفسه المتسارع من الركض...
من بين بنايات عالية مر و في حسابه أنه على بعد شارعين فقط من الطريق الرئيسي, حيث يمكنه أن يركب أي وسيلة تأخذه لبر الأمان...
حاصرت الرائحة أنفاسه و شوّش ضبابها الرؤية في عينيه المحترقتين...
أدرك حينها أن ما يزعجه هو غازات القنابل المسيلة للدموع...
من على الشرف في حي دمشقي عريق, مأهول بطبقة تعتبر مخملية, صارت النسوة يرمين علب الكولا و حبات البصل..

يلتقطها الشبان ليغسلوا بها وجوههم, و يستنشقونها علهم يخففون من أثر تلك الروائح...

فيما يتناول علبة كولا من الأرض, لمع السؤال واضحاً في رأسه, إذاً من بقي مع السفاح؟ كانت علبة الكولا تلك على بساطتها و انعدام التضحية أو المخاطرة فيها, هدية من دمشق لعمر, تدافع بها عن نفسها, و تفهمه ألم القيود على معصميها, و ضراوة اللجام على شفتيها..

سكب منها على مريوله ليستنشق عبره...

بما تبقى فيه من قوة تابع مهرولاً إلى الشارع الرئيسي...

التقط أنفاسه, ثم أوقف أول حافلة صادفها و صعد فيها...

دفع الأجرة و رجع ليجلس في مقعد في الخلف, يلتقط أنفاسه, يهدأ و يستجمع أفكاره... بدأت الطمأنينة تعود لقلبه... و شفاهه تتمتم بالحمد.

التقط هاتفه من جيبه بحركة متوترة مستعجلة, ليعرف ما الذي حل بمحمد...

اتصل به, يرن الهاتف مرات عديدة, لكن دون رد, يعاود الاتصال مرات و مرات دون أن يجيبه أحد...

علامات القلق و التوتر تبدو واضحة عليه, يداه ترجفان و هو يعيد التجربة مرات و مرات, إلى أن اتصل مرة فوجد جهازه خارج التغطية...

خوف, ضيق و انزعاج حاصر قلبه, و مرت جميع الأفكار السوداوية أمام عينيه, و بدت الحيرة جلية على وجهه حتى سأله رجل يجلس قريباً في الحافلة..

- ما بك يا عمو؟

- لا شيء عمو, لا شيء...

عشر دقائق مرت كساعات و هو يحاول أن يتصل به.. هذه المرة كان الخط مشغولاً... فيما يغلق ليعيد المحاولة, وجده يتصل به, رد...

ما أن سمع صوت محمد حتى ارتد اللون لوجهه و كأن الحياة ردت له...

اطمأن عليه, و أنه أيضاً خرج من المنطقة بسلام, و تواعدا في أحد الأماكن ليطمئنا على بعضيهما و يرويا لبعض ما جرى مع كل منهما...

سأل الرجل إلى جانبه عن اسم الحافلة التي هو فيها... فهو حين صعد لم ينتبه للافتة حتى...
سأل الرجل أيضاً كيف يذهب إلى المكان الذي تواعدا به و ما الحافلات التي عليه أن يركبها...
شكره و نزل, لكنه لم يركب كما قال له, بل أخذ سيارة أجرة إلى مكان اللقاء...
كالغائبين عن بعضيهما سنين التقيا, حمدا الله على سلامتيهما, ثم تمشيا إلى قهوة قريبة في منتصف العاصمة, و في الطريق روى كل للآخر ما حدث معهما...
جلسا في القهوة, طلبا كوبي شوكولا و ارتاحا قليلاً, تحدثا, ضحكا, تسليا, راجعا بعض التفاصيل مرات و مرات... و عادا متأخرين لمنزليهما...
فور وصوله غسل مريوله بيديه, ثم رماه في الغسالة دون أن تلحظ أمه...
و استلقى في سريره مع حاسوبه ليشاهد فيديوهات التشييع قبل أن ينام ساعة أو اثنتين...

-11-

الخامس عشر من آذار **2012**

اتفق عمر و محمد على جعل هذا اليوم مميزاً و أعدّا له مسبقاً برنامجاً كاملاً.. نوع من الاحتفال بالذكرى الأولى لثورتهم...
استيقظ عمر صباحاً, شرب قهوته بالحليب أثناء تحضيره لنفسه, و تناول بيده تفاحةً يأكلها على الطريق...
بالكاد قضّى ساعتين في المشفى, و لو لم يكن يحب دكتور اليوم و يحس درسه ناجحاً متميزاً لما ذهب أصلاً...
كون أخته عندها مذاكرة و عليها أن تدرس لها, و تكفل صديق علا "أيمن" بإيصالها, حمل عنه مهمة إيصالهما إلى الجمعية اليوم, و جعل يومه بالكامل مخصصاً له...
خرج من المشفى ليلقى محمد, فتذكر بعد خروجه بدقائق أنه نسي أن يعطي إحدى زميلاته نوطةً تجمع أسئلة دورات للفحص الوطني كان قد وعدها بها, فعاد للمشفى, بحث عنها في الأروقة و الغرف, أعطاها إياها, ثم خرج مهرولاً... ليصل محمداً متأخراً عن الموعد كعادته...
تمشيا إلى محل شعبي للفول لم يذهب إليه عمر منذ أن كان في الثانوية.

طلبا من كل نوع صحناً, تشاركا الأنواع و تناولا فطوراً هادئاً بسيطاً, تخلله كلام قليل, أحاديث بسيطة و تأمل كثير, تأملٌ في المكان و من فيه من الناس بساطتهم و عفويتهم.
بعد كل هذه المدة من الزمن لم يزل الطعم فيه كما كان محبّباً بشكل خاص.
أتبعا فطورهما بكاستي شاي ثم أكملا طريقهما إلى أحد المجمّعات التّجاريّة في العاصمة...
يتابعان مشيهما في طوابقه, يتنقلان من طابق لآخر و من حديث لآخر في فسحة مفتوحة من الوقت...
بينما يمشيان في الطابق السفلي, لفت انتباه عمر طفل صغير وضعته أمه في كرسيه لتطعمه.
دون أن يشعر صار يمشي و نظره مثبتٌ على الطفل و أمه, لاحظ محمد تشتت انتباه عمر عن حديثه معه, فالتفت ليرى ما الذي شد انتباه صديقه, فرأى الأم تلاعب طفلها...
فكانت تغطي وجهها بكلتي يديها ثم تبعدهما فجأة مصدرة صوتاً مفاجئاً...
في كل مرة تغطي وجهها كان الطفل ينتظر بشوق المفاجئة القادمة محركاً يديه و قدميه بتحمّس... و في كل مرة تكشف وجهها يضحك طويلاً من قلبه حتى يكاد ينقطع نفسه من الضحك...
لم يستطع عمر أن يمنع نفسه من الضحك بأثر تلك الضحكة, فصارت الأم تضحك الاثنين معاً في كل مرة تبعد فيها يديها عن وجهها الباسم...
أحياناً تشغلنا الهموم, و تحيط بنا مسائل الحياة الكبرى حتى ننسى متعة التذوق, حس الاستمتاع بضحكة طفل, جمالها, لطافة نبرتها و بساطة سببها, أو تحسس الهدوء النفسي الناجم عن ضم طفل رضيع و استنشاق رائحته الدافئة, ننسى حس الاستمتاع بالمشي صباحاً في شوارع دمشق, تناول فطور هادئ على مائدة شامية, التلذذ بعبق رائحة القهوة أو سماع أغنية قديمة لها انطباعات رائعة في ذاكرتنا, شعور السعادة الناجم عن شراء شيء جديد أو التمشي بلا هدف و دون ضغوط نفسية و لا حدود زمنية...
أحس عمر في تلك اللحظة بشيء من الشوق إلى الاستمتاع بتلك الملذات البسيطة و المتع المتاحة, الشوق للهدوء الروحي و الراحة النفسية...
فسمح لنفسه أن يخرج الطفل داخله, أن ينسى الهموم و المسؤوليات, الأسئلة و

التعقيدات, و ترك نفسه ينشغل في تفاصيل اليوم الصغيرة المسلية دون أن يفكر في غيرها أو ما هو أكبر منها, و لا حتى ما عليه فعله في الغد و ما بعد الغد من مسؤوليات أو أفكار عالقة أو مؤجلة... و تجنب النقاشات العقلية و اكتفى من الأحاديث بالسطحي المسلي أو الذكريات السعيدة...

فارتسمت ابتسامة هادئة على وجهه أكمل عليها نهاره...

دخل مع محمد مكتبة يطالع كتبها و يقلبّها... تفحصا الكتب جميعها كبيرها و صغيرها و كل أنواعها, و اشتريا كتاباً و رواية, على أن يتبادلاهما بعد أن ينهي كل منهما قراءة ما لديه...

دخلا محلاً للملابس و جربا كثيراً من الثياب فيه, ثم اكتفيا بشراء قميص صيفي خفيف لعمر رغم أن البرد لم يغادر بعد, قميص يخفف الإحراج أمام صاحب المحل بعد أن قضيا وقتاً طويلاً يجربان مزج ألوان متضاربة و ثياب متناقضة و طواقي غريبة, يضحكان على الثياب و غباء منظرها, و يلتقطان بعض الصور لنتائج تلك التجارب, ليوثقا نوبة الجنون المفاجئة تلك...

دخلا المتجر في الطابق السفلي و مرا على كل أقسامه, تفقدا البضائع من أوله لآخره, ثم اشتريا بعض العصير و قطع الشوكولا و غيرها من أطعمة الأطفال...

غرقا في البساطة و لحظات السعادة المسروقة تلك, و لم يتركا شبراً من المجمع لم يمرا عليه, يتبادلان المزاح و الضحك...

بقي حوالي الساعة و الربع لموعدهما مع "أبي جوزيف" الاسم الوهمي لشخص يعرفانه من النت من المقرر أن يساعداه في عملية ثورية ثم يذهبا معه لمظاهرة كانت من ضمن برنامجهما لهذا اليوم, فخرجا من المجمع على أن يكملا الطريق إلى أبي جوزيف مشياً على الأقدام...

استوقف عمر فور خروجه رجل مهترئ الثياب منحني الظهر جلس بقرب المجمع, و قد حمل لافتة صغيرة من الورق المقوى كتب عليها "أخوكم من حمص" و إلى جانبه علب مناديل, كان الناس يمرون بجانبه يدخلون المجمع و يخرجون منه, دون أن يحرك في قلوبهم ساكناً و دون حتى أن يلفت لهم نظراً...

اقترب عمر منه تناول علبة مناديل و سأله: بكم العلبة يا عم؟
أخرج الرجل قلماً من سترته البالية و كتب على اللافتة...
- خمسين ليرة...
حاول عمر ألا تبدو على وجهه آثار صدمة من كون الرجل أبكماً, فوضع الخمسين ليرة و أكمل طريقه, محاولاً ألا يتسلل الحزن إلى قلبه من جديد, فقد قرر أن يكون اليوم استراحة, و لم يسمح لعقله أن يفكر بالمشهد أو أن يطرح أسئلة تتعلق به...
قضيا الطريق إلى أبي جوزيف بما بدآه من أحاديث بسيطة و ضحك و ذكريات, يتخللها الكثير من المزاح...
وصلا المكان المقرر, فوجدا أبا جوزيف ينتظرهما و في يده كيس بداخله مكبر الصوت المقرر زرعه, و كان قد ضبطه مسبقاً ليصدح بعد عدة ساعات بأناشيد و شعارات للثورة في منطقة قريبة من أحد فروع الأمن.
على كلٍ.. أي مكان في دمشق قريب من فرع أمن ما...
كانت مهمتهما مراقبة المكان من مدخلين قريبين و التأكد أن المكان آمن, و الاتصال بأبي جوزيف عند اقتراب أي أحد أثناء العملية لتنبيهه فيوقف العملية أو يلوذ بالفرار...
وقف كل منهما عند مدخل, و تمت العملية بسرعة و سلاسة...
رن هاتف عمر, كان المتصل محمد, أخبره أن يأت فكل شيء بخير, ذهب ليلقاهم و يكمل معهم الطريق إلى مكان المظاهرة المقررة...
كان أبو جوزيف شاباً صغيراً لم يصل العشرين بعد, و كان غاية في الاندفاع و النشاط, خفيف الظل لا يترك همّاً في القلب.
مشيا لمكان المظاهرة و معهم أبو جوزيف يحدثهم عن مغامراته الخطرة و بطولاته الثورية, بعضها يصدق و بعضها يغضان عنه الطرف...
كانت المظاهرة خفيفة سريعة, أضافت لمسة من الأدرينالين و التشويق ليومهما المشرق, فمهما كان عدد المظاهرات التي يخرج بها الثائر, يبقى لها في كل مرة طعم رائع و كأنها المرة الأولى, إلى أن يدمنها فيصبح في كل فترة بحاجة لذلك الشعور من التمرد و تفريغ الشحنات و الغضب...

أثناء المظاهرة كان أبو جوزيف ينتقل من جدار لآخر, يخط عليه ببخاخه أكبر قدر ممكن من العبارات الثورية, أضحك حماسه عمر الذي كان في مزاج ضاحك أصلاً.
عادا من المظاهرة حاملين أكياس الأغراض و كثيراً من البهجة و المزاج العطر.
نفس المزحات قد لا يضحكا عليها في يوم آخر, إلا أن أي مزحة كانت تضحكهما اليوم, ربما هو قرار اتخذاه ضمناً أن يكونا سعيدين أو ربما هي السكرة التي تلي المظاهرة...
أثناء عودتهما لبيت محمد, كانت الشمس تهم بالغروب, لتتسلّل العتمة بصمت لمدينتهم...
في برنامجهما لليوم كان عمر سيقضي الليلة عند محمد... احتاج لذلك ترخيصاً من أهله لزمه أسبوع للحصول عليه.
دخلا البيت, سلما على أهله, كانوا غاية في الود, ثم توجها إلى غرفته.
غرفة صغيرة بسيطة تتسع بالكاد لعالم محمد, فيها من الطرافة ما يوحي أن أهل محمد قد تركوا له حرية تصميمها و محتوياتها.
في يمينها مكتب عليه حاسب و بعض كتب الجامعة, و إلى جانبه كرسي جلدي له شكل كف مفتوحة للأعلى, تشعر الجالس فيها أنه جالس في كف عفريت أحمر, رفوف بعثر عليها عدد من الكتب بشكل فوضوي, و على الجدار لوح خشبي علقت عليه بدبابيس صور الطفولة و رحلات السفر داخل البلاد و خارجها و الكثير من الذكريات, و إلى جانبه علق أيضاً على حاملين معدنيين غيتار متوسط السعر..
بينما كان محمد يخرج ثياب نومٍ لعمر, تناول الأخير الغيتار جلس في كف العفريت و مرر أصابعه على أوتاره, ثم عزف اللحن الوحيد العالق بذاكرته, لحن ساذج يستعمل لأغاني الأطفال.
- تتقن عزف الغيتار يا عمر؟!
- لا هو اللحن الوحيد الذي أذكره, تعلم العزف كأي مشروع بدأته متحمساً ثم لم أكمله...
تناول محمدٌ الغيتار, شد أوتاره, مرن أصابعه قليلاً, ثم بدأ بإيقاع هادئ يعزف لحناً مألوفاً لأذن عمر ما لبث أن اتضح أكثر...
بصوت منخفض أخذ عمر يحرك شفاهه, يتمتم كلماتها, و يدق برجله على الأرض و يده

على المكتب.
كانت الأغنية "حلوة يا بلدي", أغنية فيها الكثير من جمال الماضي و تشويق المستقبل, و الجمع بين عشق الحبيب و عشق الوطن, الذي أشعرتهم الثورة بحبه كما لم يشعرا من قبل.
أخذ صوته يعلو بها شيئاً فشيئاً و شاركه محمد بغنائها, فتلاشى الإحراج بعيداً, و اندمج كليهما بالأغنية, و استمتعا بأدائها, كان عزفه متقناً و اللحن مضبوطاً متناسقاً مع صوتيهما و الصوت الصادر عن دق عمر, فأعادا مقاطعها أكثر من مرة مستشعرين ما بها من الشوق و الحب و الأمل, و جمال لفظة "بلدي" في كلماتها...
أنهيا الأغنية و بدآ يبحثان في ذاكرتيهما عن أغنية أخرى يغنياها, إلا أن عمر تذكر أن الوقت اقترب من أن يحين وقت عمل مكبر الصوت ليصدح بأغان الثورة في المكان الذي وضعوه فيه.
فأتيا بهاتفه, فتح الساعة, أربع دقائق بقيت قبل أن ينطلق منبه هاتفه الذي ضبطاه ليرن متزامنا مع المبكر في الشارع.
انتظرا بحماس, و عدّا تنازلياً آخر خمس عشرة ثانية منها, لتعم بعدها بهجة و ضحك...
يتخيلان ابتسامات المارة و ركض الأمن لاعتقال المكبر الإرهابي من الحاوية, و يتساءلان يا ترى كم ظلوا يبحثون عنه في أحواض الشجر و تحت السيارات و بين القمامة حتى وجدوه, يا ترى هل وصل للأغنية الثالثة قبل أن ينتشلوه, و الأهم من كل هذا هل أوصل صوته رسالة لنائم أو رسم ابتسامة على وجه محبط أو شجع خائف...
فتحا حسابيهما الوهميين, ليمرا على الأخبار بسرعة, و يريا صور مظاهرتهما و يشاركاها.
على كل لم يعد من حساب عمر شيءٌ وهميٌ إلا اسمه, و لم يعد معظم الأصدقاء فيه وهميين, فقد عرف معظمهم في الحقيقة, كما أضاف أصدقاءه الحقيقين عليه, فما كان عالمه الوهمي في الماضي أصبح أكثر واقعية اليوم.
جلس مع محمد يحدثه عنهم, هذا علماني, و ذاك إسلامي, هذا مازال مع السلمية المطلقة و هذا مع حمل السلاح, هذا متشدد في آرائه و هذا معتدل, كان يجمع من كل التيارات عنده, و تجمعه بكثير منهم صداقة طيبة بغض النظر عن توجههم السياسي أو

الفلسفي...
اتصل محمد بمطعم قريب, طلب بيتزا و مشروباً غازياً..
و جلس بينما يصل الطلب يشارك عمر بعض الصور للذكريات و الرحلات التي قام بها, و صور الطفولة.
أطلعه على صورة تجمعه به في المدرسة لم يكن عمر يعرفها من قبل...
ثم أخرج من درج صغير ربطة يد بألوان علم الاستقلال, كان قد جلبها معه خاله من خارج سوريا و أهداها لعمر, لشخص يحب الهدايا كانت قطعة من سعادة... احتفظ بها زمناً طويلاً... طويلاً جداً...
استعرضا بعض الكتب, و لفت انتباه عمر حسن انتقاء محمد للكتب و ذوقه الفني الخاص, كما وجد عنده كتب تناقش مسائل فلسفية كبرى, و أخرى تناقش أسئلة كانت قد مرت يوماً برأسه, إلا أن محمد أخبره أن معظم تلك الكتب لم ينه قراءتها و حتى لم يبدأ ببعضها رغم شد عنوانها له, إما تكاسلاً أو لضيق الوقت...
بينما يقلبان في صفحات كتاب ضم رسومات مرسومة كلها بقلم الرصاص, فيها الكثير من الرموز و الإيماءات, سأله عمر..
- هل تراودك أحياناً أسئلة تزعجك؟ أسئلة كبرى؟ شكوك إيمانية؟ أو أسئلة تتعلق بأصل الكون و وجود الخالق و الأديان؟...
- لا أظن أن أحداً لديه عقل يستعمله لا تراوده تلك الأسئلة... من الطبيعي جداً أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة, و إلّا لم نختلف شيئاً عمّن قالوا "هذا ما وجدنا عليه آباءنا"...
- و هل تجد لها أجوبة؟ أم تكتفي بإسكاتها و تجنبها؟
- لا أبداً لا أتجنبها, بل أبحث عن أجوبة لها, لا أقول لك أني أجد الأجوبة دائماً, إنما أجد أجوبة جزئية... غالباً لا تريحني بالكامل, لكني لا أرى أن الحل في إسكات الأسئلة تلك أبداً, أحياناً أبحث عن الأجوبة في الخطب أو الكتب و غالباً ما أعود لعقلي في النهاية, لكني أظن أنني يجب أن أكون أكثر جدية في بحثي يوماً ما...
كان جواب محمد مريحاً مرضياً... و كان إلى حد كبير مطمئناً لقلب عمر الذي لم يكن ليوافقه الرأي أكثر, فرد عليه بالابتسام و إكمال ما بدأ به من تأجيل المواضيع و القضايا

الفكرية و الاكتفاء بالاستمتاع بالوقت...
في تلك الأثناء كان فلم بدأ محمد تحميله من النت بالأمس قد تم بالكامل, اختاراه مسبقاً ليحضراه سوياً, فانتهى تحميله قبل نصف ساعة من وصول الطعام.
فانتظرا وصوله, و جلب محمد شاشة من غرفة أبيه وصلها بالحاسب و خفف إضاءة الغرفة ثم اختار كل منهما مكاناً و جلسة تريحه, ليتناولا البيتزا بينما يشاهدان الفلم...
استمر الفلم لساعتين كاملتين, كان يمزج بين الواقع و الخيال و الحب و الفكاهة, بطريقة سلسة يوصل للمشاهد رسائل و نتائج في أحداث مرحة أقرب للخيال...
كان يدور حول كاتب مرموق, يكتب عن امرأة يبتدعها من خياله و يجعل فيها كثيراً من الصفات التي يريدها في فتاة أحلامه, لا يلبث الكاتب نفسه أن يتعلق بحبها...
كان الكاتب دون أن يقصد أو يشعر قد خلق شخصيته تلك تشبه إلى حد كبير فتاة من الواقع كان قد تعلق بحبها من قبل إلا أنها تركته و لم ترض به شريكاً...
ثم في يوم ما تتحول الفتاة المكتوبة إلى حقيقة من لحم و دم... و لكن ما زال في مقدور الكاتب تعديل شخصية محبوبته الجديدة كلما كتب, فيغير فيها ما أحب و يحذف منها ما يشاء.
تحاول الشخصية الخروج من حكمه لها, أن تفك قيوده و تتصرف بما بنيت عليه من شخصية قوية محبة للحياة, ما أغضب الكاتب الذي شعر أن حتى الشخصية التي خلقها لهدف واحد و هو أن تحبه بدأت تمل حبه, وأنها تميل لتركه تماماً كما فعلت التي قبلها.
فيدخل في صراع معها يدفعها فيه لعشقه و عشق تفاصيله كلها حتى العيوب منها, و تناضل هي لتنال حريتها, فلا يلبث أن يكبل شخصيتها بمحو صفات منها حتى يجعلها بلهاء لا تشبه نفسها التي رسمها عليها أصلاً.
و لا يزالان في صراعهما هذا حتى يصلا في نهاية الفلم لتسوية, يعيدها فيها للماضي, يمحي من ذاكرتها ما حدث بينهما, و ينسيها نفسه...
ثم يحررها بشكل كامل من سلطته و حروفه, فلا تعود خليقة كتابته, بل كأي فتاة تملك من الحرية بقدر ما يملك.
بعد ذلك و بعد مرور أيام طويلة... تجمعه الصدفة بها, فيحاول أن يكسب حبها من

جديد كإنسانة حرة, بعد أن تعلم منها و عرف أن المحتاج للتغيير في الحقيقة ليست الفتاة التي خلقها, بل هو...

استمتعا بالفلم بشكل كبير, خلق في نفسيهما تسلية و نتائجاً, و ترك في نهايته جملة من الخلاصات الجميلة في ذاكرتيهما...

ثم تساعدا في إعادة الشاشة و نقل الصحون و الكاسات للمطبخ و ضب الغرفة بشكل سريع.

بقي لأذان الصبح ساعتان و نصف, فصليا العشاء و قررا أن يبقيا مستيقظين بقية الوقت للفجر, وقت مر بسرعة فيما يتبادلان أحاديث تفاجأ فيها عمر كم يشبه محمد...

تحدثا عن كل شيء...

مجدداً... ذكريات, مشاوير, أقارب, مدارسهما و جوامعهما, الفتيات في الجامعة, أحلام المستقبل و المشاريع التطوعية التي يريدان أن ينخرطا فيها يوماً...

أخذ الحديث طابعاً أكثر هدوءً و عمقاً...

حدثه عمر عن أول مرة يختبر فيها مشاعر الحب, كان صغيراً جداً, لم يتجاوز السابعة من العمر, كانت معه في الصف, سوداء الشعر و العيون, حدثه عن براءة ذلك الحب, و مشاركته لها كل ما يشتري من أطعمة الأطفال, و انتظاره لها ليخرجا للحافلة معاً.

حدثه عن القبلة التي رسمها على وجنتها, و عن رد فعل آنسة الصف العنيف على ذلك... التي ضربته و حاسبته محاسبة الكبار بغطاء الأخلاق و الدين, فأدخلته لعالم الأسر و المحرمات مبكراً, و عرضته على قوانين ذلك العالم قبل أن يكون قادراً على فهمها بعد...

داهمهما الوقت سريعاً و دخل صوت الأذان في الحديث فغيره ثم أسكته.

صليا الصبح سوية, ثم استلقى محمد على فرشة على الأرض بعد أن أصر على ترك سريره لعمر.

من السرير تابع عمر سرد قصصه, سرح في حديثه دون أن يشعر... و صار يحوم في الحديث حول سر ربما أراد أن يخبره به, إلا أنه لم يعد يسمع تفاعلاً من محمد, ناداه باسمه بصوت خافت فلم يرد, فابتسم و استسلم هو أيضاً للنوم....

-12-

بعد عقود من فقدان الشخصية و انعدام المعالم و خرسان الألوان و انطماسها كلها في لون رمادي باهت أدخلها ظلمةً أضاعت فيها هويتها, بدأت سوريا تتعرف نفسها في هذه الثورة من جديد, و تحاول غسل وجهها من الصباغ الذي صبغه بها سجّانها.
فبدأت تكتشف نفسها و هويتها و بدأ الناس يختلفون في آرائهم و توجّهاتهم كما لم يعوّدهم من قبل فكر الحزب الواحد و القائد الخالد.
حتى المدن و المناطق بدأت تتلوّن و تكوّن كل لنفسها طابعاً خاصاً, فتقرأ في كل واحدة منها بيتاً في قصيدة الثورة و سطراً في كتاب سوريا الغد.
كتابٌ لتفهمه عليك أن تنطلق من مهدها في درعا التي من يوم أشعلتها لم تهدأ, ثم تنتقل لعاصمتها حمص التي أدهشت بقية المدن بمبادرتها السريعة و حملها شعلة الثورة و أدهشت العالم بصمودها الأسطوري, ثم تمر بلافتات عامودا و كفرنبل المبدعة التي أظهرت وعياً و عبرت عن روح الثورة, إلى تشاييع دوما المهيبة و سلمية ورود داريا, و أفواج ساحة العاصي في حماة التي كانت أول من أكسب الثورة صفة كونها ثورة شعبية و انتزعت الشرعية عن النظام و فضحت كذبه, و حشود دير الزور الغفيرة, المدينة التي حوصرت طويلاً و تألمت بصمت, إلى ساحات إدلب التي أرعبت النظام بسلميتها ثم أرهقته بسلاحها, إلى تنظيم شباب يبرود التي مثلت أجمل ألوان الاندماج بين الكنيسة و المسجد الذين حضنا زهور الثورة, إلى ريفيّ العاصمتين المشتعلين اللذين حملا عن العاصمتين الحمل كله و آذنا بالإطباق على عقل النظام و قلبه إلى مدن الساحل التي كانت رأس الحربة و منطقة الالتحام, إلى أحياء الصاخور و صلاح الدين و بستان القصر في

حلب الشهباء التي أظهرت وجه الثورة المثقف الرفيع عندما اندمج في جامعتها العلم بالثورة, و رجولة أهل الميدان و برزة و مسائيات كفرسوسة في دمشق.. كل من تلك المناطق وضعت حجراً في لوحة فسيفسائية لتجعلها متكاملة غاية في الروعة, و تجعل من الثورة السورية ثورة فريدة لها بصمتها الخاصة في التاريخ.
تلك المناطق المميزة التي كان بعضها لم يمر اسمه على سمع عمر قبل الثورة, شدته لمتابعة أخبارها على الصفحات و المواقع, أحبها و أفاق من جديد على معنى حب الوطن, و حاول أن يكون له تجربة في أي واحدة استطاع إليها سبيلاً...
و لقربها و سهولة الوصول إليها كانت كفرسوسة بمسائياتها التجربة الأجمل لديه, فخلقت بينه و بين كفرسوسة و أهلها قصة عشق ارتبطت بالمكان و امتدت في الزمان...

الثالث من أيار **2012**

كفرسوسة...

في قهوة في المجمع التجاري في كفرسوسة جلس عمر و محمد يستغلان الوقت في الدراسة ريثما يأتي حسان أحد أصدقائهم في الجامعة ليأخذهما إلى مكان المظاهرة عبر طريق مار بين حارات كفرسوسة و بيوتها الشعبية الفقيرة.
كان حسان إبن كفرسوسة, شاب لطيف هادئ, رغم الأسى و ظروفه الصعبة لا يغادر الابتسام وجهه, و قد تكفل بتوصيلهم للمكان لمعرفته بتفاصيل الطريق و حارات كفرسوسة و طرقها بين البساتين.
دخلا معه من طريق متفرعة عن الأوتوستراد, ركن السيارة على طرفها, ثم جدّوا الخطا

لئلا يفوتهم الكثير من مهرجان الحرية في الداخل.
حارة تلو الحارة, طريق مزفت و آخر ترابي, و جدران تزداد عليها شعارات الثورة و أعلامها المبخوخة كلّما اتجهوا للداخل.
تلك الحارات كانت تشكل منطقة عازلة أو انتقالية للوصل بين عالمين مختلفين متناقضين.
على يمين الطريق و على باب أحد المنازل الفقيرة, جلس صبيان يلعبان و يغنيان أغاني الثورة, نظر أصغرهما إلى عمر و قال له: بهذا الاتجاه.. بهذا الاتجاه!
تبسم له عمر و قال له: أعرف يا حبيبي حماك الله لأهلك..
ظل الصبي يحملق بعمر, فيما يشده الطفل الآخر من قميصه للداخل.
اتسع الطريق و بات ترابياً بالكامل فيما يمرون بين بستانين متجاورين.
في مدخل البستان اليساري وقف مقنعاً رجل من الجيش الحر, ساد اللون الأسود لباسه عدا الجعبة التي كانت باللون الزيتي الغامق, و صدر عن لاسلكي في يده همهمات و كلمات غير واضحة.
رفع حسان يده و سلم عليه...
- يعطيك العافية..
رد المسلح: أهلاً بالضيوف الأحرار, تفضلوا... يا هلا...
شعور غريب تجاه الرجل تكون في صدر عمر, يحترمه احتراماً حذراً, فالترحيب و وقوفه هناك ليحميهم, مخاطرته بحياته و رميه لعمره و ملذات حياته ليدافع عن قضية يؤمن بها كلها نقاط تحسب له...
إلا أن لمنظر السلاح رهبة و وقع مزعج في النفس, لطالما كرهه و اللغة المتحدثة به.
السلاح بحد ذاته كريه و يبقى يكتسب لونه و شرعيته بفكر الرجل المسيطر على زناده و طريقته في استعماله إياه, لكنه لم يعد من مهرب منه, و في حالتنا هو حق شرعي للدفاع عن النفس, ربما لم يجد مخرجاً من معضلته التي شعر بها إلا أن يحترم الرجل و يراقب فعله مراقبة الناقد الموجه.
ترحابه اللطيف يجب أن يقابل بتشجيع و شكر على حمايتنا, و توجيه لاستعمال السلاح للخير.

وقف عمر لحظة و رد عليه:
- أهلا بك, حماكم الله, و وجه سلاحكم لصدور من يستحق من القتلة, و وجهكم إلى كل خير و إعمار...
كلما اقتربوا من المكان أكثر كلما زاد أعداد الناس الداخلين معهم من كل أقطار العاصمة و من كل الألوان و الطبقات...
أخرج محمد قناعين كانت خيطتهما له جدته و فتحت فيهما ثقبين للعينين, لبس كل منهما قناعه برأسه و أخذ يضحك على منظر الآخر.
حرص عمر و حذره من أن يحفظ أحد الدواسيس وجهه أو أن يظهر على البث المباشر جعله يذكّر به محمداً عشرات المرات قبل أن يلتقيا.
هنا من الطبيعي أن تلبس قناعاً و تمشي به, يتلاشى أي شكل من أشكال سلطة النظام, و تصبغ الثورة المكان بشعاراتها و أعلامها حيطانه و أغان أطفاله و كلام أهله.
هنا بإمكانك أن تقول ما تريد و أن تصرخ بأعلى صوتك بكلمة حرية, أن تفرغ غضبك بشتم رأس النظام في شارع دمشقي دون أن يتعرض لك أحد.
تعرف تماما أن كل الشباب الداخلين معك يشعرون بما تشعر و يريدون ما تريد, هنا يذوب الجميع في بوتقة الإنسانية و الثورة, و يشعرون بحبهم لبعضهم البعض و توحدهم ضد عدو واحد.
قد تفاجأ بأحد أصدقائك في الداخل, أو برجل تراه في مطعم أو قهوة فاخرة قبل أن تدخل إلى هنا مباشرة, و قد ترى محاسباً في محل تشتري ثيابك من عنده, و قد تبتسم له أو تسلم عليه, و سيسعد كل منكما بكون الآخر من "المندسين" أو "الجراثيم"... لفظات تجمع أصحاب الضمائر و التطلعات, فبدل أن تغضبهم ترضيهم بشكل ما, ربما لأنها تعبّر عن حالة التمرد التي نبذوا أنفسهم بها عن الصامتين قبل أن ينبذهم بها النظام و الصامتين.
أمتار تفصلهم عن مكان التجمع إلّا أن الجمع لم يصل كله بعد, فوقفوا على جانب الطريق كما فعلت مجموعات أخرى كثيرة من الشباب.
من بين المجموعات و على الطرف الآخر من الطريق كانت تقف مجموعة من ثلاثة

أشخاص أيضاً, فتاة و شابين, أحدهما نحيف و الثاني أنحف, و كانت الفتاة تنظر جهة الساحة المفروض التجمع فيها ثم أدارت وجهها لتحدث أحد الواقفين معها, علا! هذه المرة كانت الفتاة فعلاً علا...

استأذن صديقيه, قال لهما أنه يريد السلام على إحدى قريباته.

ذهب إليها, اقترب منها, ناظراً إليها مبتسماً.

- مرحباً يا علا..

بلهجة المستغرب: أهلاً...

استغرب عمر المفاجأة و الحيرة في عينيها لكنه تابع: كيف حالك؟

- الحمد لله... (بلهجة المستغرب أيضاً)

لحظات ثم أدرك السبب.. و تذكر.. فضحك :

- آه .. صحيح.. نسيت أنني أرتدي قناعاً, ألم تعرفينني يا علا؟

- ليس بعد...

فأشار لها إلى حذاء المظاهرات.. تذكرين؟

تذكرت.. و ربطت الصوت بصاحبه... ثم ضحكت

ضحكة سعادة أو مفاجأة, في كلتا الحالتين كانت من القلب.

- عمر! أهلاً.. كيف حالك؟.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

لحظة أو اثنتان لزمته ليعود من شروده المفاجئ..

- نعم؟.. أنا.. جيد, الحمد لله... الذي جاء بك.. جاء بي نفس الذي جاء بك..

- هذا ابن خالتي أنس, و هذا صديقي أيمن...

- تشرفنا, أهلاً و سهلاً...

صوت طبل عال أنهى المحادثة القصيرة و افتتح المهرجان.

- أراك بعد المظاهرة إن شاء الله.

- اتفقنا.. إلى اللقاء.

كان من عادة منظمي المسائية أن يعزلوا الحرائر عن الأحرار, فكان على كل منهما أن يذهب في طريق.

ثلاث ضربات قوية على الطبل.. تهتف بعدها الحشود .. "ارحل"... تعاد عدة مرات قبل أن يبدأ قائد المظاهرة بالهتاف...

تقترب مجموعة كبيرة لتدخل ساحة التظاهر فينضم لها عمر, إلى جانب كل من محمد و حسان.

تلك اللحظة التي يبدأ فيها الهتاف فتتحول ملامح الوجه إلى الجدية و يدخل فيها في "مزاج المظاهرة" يدمج صوته في صوتهم و يصفى ذهنه لاسترجاع غايات ثورته فحسب ناسياً كل ما عدا ذلك.

فيردد معهم ما يريد بكامل الفهم, و يسكت أحياناً عن ترديد بعض الشعارات أو يكتفي ربما بالتصفيق حين لا يرى الشعار يمثل ما يجمع كل الثوار و مبادئ الثورة الأولى حتى لو كان يوافق هواه.

قرابة النصف ساعة من الأغاني و الشعارات, فيها الكثير من التفريغ و التعبير, و الكثير من التسلية, تنسى فيها ما شاب الثورة من شوائب, و تتذوق الحرية الصافية مؤقتاً ناسياً أو متناسياً كل العالم خارج هذا المكان, و تنسى كلفة الطريق, طوله و معوقاته و القوى التي تحاول حرفك عنه.

بقدر ما يعبر عن نفسه بينهم, بقدر ما تتلاشى ذاته فتذوب فيهم, فيصفق معهم يتمايل معهم يصعد و ينزل معهم, أحياناً يلتفت إلى محمد فيضحكه شدة اندماجه بالأغنية و تمايله على لحنها.

بعض الأغاني معروف أكثر من غيره أو ربما مسلٍّ أكثر من غيره فتلاحظ علو صوت الجمهور وحماسهم فيها, و لا بد كل فترة من العودة للأغان الأولى أو تلك التي اقتلعت الحناجر بسببها, فستشعر فعلاً قولك "يا وطنا و يا غالي"

يشبع عينيه من اللون الأخضر في العلم, ذلك العلم الذي لم يرحب به كثيراً حين رآه أول مرة, و شعر أنه رفع ربما بسبب شيء من نزعة التميز و النأي بالنفس عن العلم الذي يجمعهم مع المؤيدين أو شيء من تقليد ثوار ليبيا الذين رفعوا علم ما قبل القذافي.

لكنه اليوم يحبه, اعتاده كما يعتاد الإنسان اسمه فيصبح الصيغة التي يعرف بها عن نفسه للعالم الخارجي, يعشق ألوانه أكثر من أي لوحة فنية أحبها يوماً, فيمتزج خضاره

بتفاؤل نفسه, و يرى في نجومه الثلاث شيئاً من العراقة و التضحية, و شيئاً من جمر الغضب, يمتع نظره به, و يملأ به عينيه حتى يشبع منه قبل أن يخرج.
ربما اكتسب معان جديدة من تضحية الآلاف لرفعه, و التفاف الثوار حوله, أو ربما لخطر وضعه ربطة على معصمك أو رسماً في دفترك...
فتراه هنا يلون كل زاوية فوق الرؤوس و على الأطراف و الحيطان و مربعاً قماشياً محمولاً في الوسط و رايات مرفوعة تخفق في السماء, شيء من التحدي, رد الفعل أو إثبات الذات, الاصطباغ بلون خاص للثورة و التضحيات, لون لا أثر فيه للأسد أو ما يتعلق به من صباغ يملأ العالم الآخر كله في الخارج.
"الهتّيف" له مهارة خاصة في إحياء المظاهرة, حتى إذا ما هدأت أشعلها من جديد, و دبّ فيهم الحماس حتى تخترق أصواتهم السماء فوقهم و تزلزل الأرض من تحتهم...
أحد الهتافات كان يقول "دمّك..." ثم يتبعها كل مرة باسم واحد من شهداء كفرسوسة, فيرد المتظاهرون بقولهم "مو نسيانينو"
- دمك أبو حمزة..!
- مو نيسانينو...
- دمك أبو حازم..!
- مو نسيانينو...
و هكذا حتى وصل لقول "دمك عدي!" فغصّ صوته بالبكاء, و لم يعد قادراً على إكمال هتافه...
يبدو أنه كان شخصاً عزيزاً عليه, صديقاً مقرباً أو ربما الهتيف السابق.
تقتحم أصوات المكبرات رأسك حتى تلامس قلبك فيرتجف من علو الصوت... و كأنها تحقنه حقناً بقسم الحرية, عهود الشهداء, و وعود الاستمرار على النهج حتى الوصول للحرية الموعودة.
شعور لذة جميل, حفل حرية بلا تكاليف, حفل يدعى له الأحرار من كل أحياء دمشق, مناطقها و طبقاتها دون بطاقة دخول إلا الضمير, شعور يحتاجه المرء ليتقوى على تحمل آلام الثورة و تكلفتها الباهظة, فعاد عمر مع صديقيه مراراً و تكراراً, ليأخذ جرعة منها كل

يومين تقريباً, و أصبحت نشاطاً يعيضه دون أن يشعر عن النشاطات كالرياضية و غيرها التي توقفت بسبب أوضاع البلاد.
مرة يرفع فيها لافتة مع محمد, و مرة يطلب حسان قبل المظاهرة من الهتيف أن يحييّ أبناء حي عمر ضمن هتافه كمفاجئة سارة, و مرة يعتلي مجند المنصة و يعلن على الملأ انشقاقه عن قوات النظام فيدب الهرج و المرج في الناس و تزداد المسائية حماساً, و مرة يرجع عمر لبيته ليجد نفسه مصوراً بقناعه لأكثر من عشرين ثانية على البث المباشر و قد نشر الفيديو على النت, و في كل مرة يغمر قلبهم شعور السعادة و التحرر, فصارت كفرسوسة لهم جنة دمشق... كمدينة الملاهي لطفلين يتحرقان للذهاب كل يومين...
مر الوقت سريعاً اليوم, ودّعهم الهتيف إلى لقاء قريب و انقضت المظاهرة...
و في طريقهم للخروج لمح علا مجدداً, اتجه إليها, أدركها, ناداها و سألها:
- هل معكم وسيلة للعودة يا علا؟
- لا..
- إذاً كيف تنوون الخروج؟ و كيف ستجتازون الأوتوستراد؟
- لا أعرف... أتينا بسيارة أجرة إلى الأوتوستراد, ثم أكملنا الطريق مشياً إلى هنا..
- إذاً دعيني آخذكم معنا, فمع صديقي حسان سيارة, لنحاول أن نوسع أنفسنا فيها, يوصلنا للمجمع ثم يستقل كل منا وسيلة.
- ممتاز...
اندفاع عمر خاصة في الأوقات التي يكون فيها متحمساً يزيد من فوضويته و تشتت انتباهه...
فالتفت إلى حسان فلم يجده وراءه, فعاد أدراجه بحثاً عن صديقيه بين الجموع و قد خيم الظلام على المكان.
أكثر من خمس دقائق مرت و هو يمشي بسرعة أقرب للهرولة حتى وجدهما, كانا يبحثان عنه قريباً من مكان التجمع.
من جديد... فور اجتماعه بهما اكتشف أنه أضاع علا في تلك الدقائق, بحث عنها مع صديقيه هذه المرة, إلّا أنّه لم يجدها, و لم يكن يملك رقمها, فقرروا التوجه للسيارة على

مهل علّهم يصادفوها على الطريق.
ركبوا السيارة بعد أن فقدوا الأمل من إيجادها.
في السيارة خلعوا الأقنعة و أعاد عمر قناعه لمحمد ليخبّئه معه.
بملامح تعكس المفاجئة...و بعينين كادت تخرج من مكانيهما.. راقب عمرٌ محمداً و هو يعيد القناع لمكانه...
- أين تضعه يا محمد؟! في سروالك الداخلي؟! هذا هو مكانك الذكي؟! ألبستني إيّاه في رأسي يا رجل!... أقسم أني استغربت رائحته بادئ الأمر!
بكلمات تشق طريقها بصعوبة بين الضحك أجابه:
- اهدأ قليلاً.. أضعه بين البنطال و السروال, أأمن مكان في حال فُتشنا..
تدريجياً تخفت الضحكات التي عمت السيارة ريثما يتجاوزون المنطقة من الأوتوستراد التي عليهم عبورها فور خروجهم من المنطقة المحميّة, و هي تعتبر منطقة خطرة قد ينصب فيها الأمن كمائن للثوار الخارجين.
و فور تجاوزهم إياها عاودوا المزاح بشأن القناع "أبو رائحة" إلى أن وصلوا المجمّع...
فدخلوه و اشتروا بعض الماء و سكاكر لحلق عمر المبحوح كعادته بعد كل مظاهرة, صلّوا, تمشّوا قليلاً و عادوا لبيوتهم.
في البيت فتح عمر النت, أراد أن يطمئن على علا, كان قد أضافها من فترة ليست بالبعيدة كصديقة في حسابه.
أرسل لها رسالة, و انتظر الجواب...
يبدو أنها لم تصل أو أنها لم تفتح حسابها بعد.
يجدد صفحة الرسائل كل قليل ريثما يأتي الجواب, و ينشغل قليلاً بالتصفح و مجموعات الحوار..
يقرأ آراء سطحية و أخرى عميقة, و يستفزه بعضها لكتابة رد إلّا أنه لا يريد الدخول في حوار قد يحتاج الخروج منه ساعات.
حوارات ثوريّة, إسلاميّة, علمانيّة, حوارات تتعلق بالأوضاع الميدانية و أخرى بالسفر من البلد أو البقاء فيها و أخلاقية السفر و ترك البلد من عدمه.

بالإضافة إلى الحوارات الدينية التي لاحظ فيها سطحية المناقشين و ضحالة خلفيتهم أو تعصبهم...
يختصر بعضهم نقاشات تحتاج التبحر في كتب و مجلدات لأيام و أشهر, بأجوبة ساذجة مقولبة في إطار صلب بعيد كل البعد عن المرونة الفكرية اللازمة في المجال الفكري...
أو يستشهد أحدهم بحديث أو آية كدليل دامغ قاطع للإجابة على سؤال شخص ملحد لا يؤمن أصلاً بصاحب الحديث أو الله الذي بعثه...
اختلس لحظات في صفحات تدعو للإلحاد بأسلوب لا يشبه أسلوب الصفحات المعتمدة على التجريح و الانحطاط الأخلاقي التي مر بها من قبل.
وجد فيها كثيراً من المناقشات الجادة و الأفكار المطروحة, لبعضها يجد أجوبة تتطلب فهماً عميقاً, و يلزمه للجواب عليها التعليق بصفحة أو اثنتين, و بعضها لم يجد له جواباً مطلقاً, و الآخر وجده مجرد سفسطة كلامية لا معنى له, فيه الكثير من الكبر والابتعاد عن الفطرة.
إلى أن استوقفته صورة من بين كل هذا الكلام...
كانت الصورة عبارة عن شجرة تمثل مخططاً للأديان و المذاهب المتفرعة عنها...
الإسلام, المسيحية, اليهودية, السنة بأطيافها, الشيعة بأطيافها, البروتستانت و الكاثوليك, الديانات غير السماوية, و غيرها و غيرها..
و تفرعات كل فرع إلى أصغر غصن, فاحتوت عشرات الأديان و المذاهب, بعضها يعرفه و بعضها لم يسمع به من قبل.
و كان مكتوباً تحت الصورة: إذا كنت تظن أن فرعك هو الفرع الصحيح الوحيد في هذا المخطط كله فأعد التفكير من جديد...
كانت هذه الصورة الأكثر موضوعية ربما, استوقفته يفكر فيها, بل ربما يوافق على طرحها...
في تلك الأثناء أضاءت إشارة الرسائل معلنة وصول الرد المنتظر.
بوجه مشرق فتح الرد, بعد الترحاب و الاطمئنان سألها عن كيفية عودتها للبيت...
- أركبنا منظمو المسائية في مركبة يستعملونها لنقل أكياس الرمل من نوع "سوزوكي", كنا

حوالي الخمسة عشر شخصاً لا يملكون وسائل للخروج, أوصلونا لنقطة آمنة, ثم استقل كل منا وسيلة نقل...

بين مُحرج لتركها تضطر لهذا الركوب, و بين ضاحك لطرافة روحها و تخيلها تقف بينهم كالخراف في مؤخرة السيارة, صاغ جملة أو اثنتين عبر فيها عن عذره, و عن طرافة الموقف كذكرى مضحكة ستبقى في ذهنها, تحدث عنها كأحد يوميات الثورة التي صقلتهم و عرضتهم لمواقف زادت من مرونتهم و قابلية تكيفهم حتى تخوض مغامرة كتلك...

أثناء حديثه معها لاحظ من صفحته الرئيسية أنها كانت تعجب و تعلق على صفحة علمانية أحد المشرفين على صياغة عباراتها شخص لا ديني يعرفه عمر عن طريق النت فقط, و لاحظ انتقائها لما تعلق عليه أو تعجب به بحذر, فلا يظهر في أي عبارة تنتقيها معارضة للدين, و لا يبدو من أحد جملها إلحاد أو تخلّ عن مبادئ الدين, إلّا أنّه لاحظ أن كثيراً من الصفحات التي تشارك بها و المجموعات التي كانت ضمنها كانت بفكر علماني و حتى لا ديني, و بشكل عام كانت علا تشجع في معظم كتاباتها و الصور التي تشاركها على صفحتها بما فيها من لافتات أو عبارات على إقامة الدولة المدنية اللامذهبية, ثم لاحظ عبارة كتبتها إحدى أقربائها على صفحتها تستهزئ فيها بأداء الصلوات...

كل تلك الإشارات جعلت عمر يتساءل... ترى هل تسأل علا نفسها أسئلة مثله؟ أم ربما قد سألت نفسها ثم أجابت و حسمت؟

على كل بات فكره يتشابه معها في كل العبارات التي تنتقيها و الصور التي تشاركها و خاصة فيما يتعلق بإقامة الدولة المدنية التي تضم الجميع تحت ظلها, أما ما بقي في تلك الصفحات من إلحاد أو لادينية و قد تجنبته فيبقى قيد تساؤلات عميقة لم يصل لأجوبة لها بعد...

هل يفتح معها تلك الأسئلة؟... ترى هل ما زالت تؤمن؟

ربما قد يسألها في وقت لاحق, و ربما يناقشها في تلك الأفكار...

ودّعها و تمنى لها ليلة سعيدة, لم يأته الرد, يبدو أنها غادرت النت...

قبل الثورة لم تكن تلك التساؤلات لتخطر في باله, و لم يكن في دائرة معارفه أحد غير مؤمن...

أغلق حاسبه... قام برأس يعصف بالأفكار بعد يومه الطويل, توضّأ و هو يدندن أغاني المسائية, ثم صلّى العشاء.
تمشّى في أرجاء البيت, يناقش أفكاراً مع نفسه, أفكاراً كانت تحوم في رأسه مع أغاني المسائية, فليس من عادة الأفكار أن تهدأ في رأس عمر بسرعة...
أثناء مشيه لحظ أخته ما زالت مستيقظة في سريرها تتصفح النت من هاتفهما المحمول... فسألها
- أختي... أيمن هذا... صديق علا... كثيراً ما أشاهدها معه... حتى أني رأيتها صدفة في الشارع منذ حوالي الأسبوع, أردت أن أسلم عليها لكني غيرت اتجاهي بعد أن رأيته معها...
لا أعرف لم... لكني لا أحبه, من أين تعرفه؟
- صديقها من الجامعة, يحضران لجميع المشاريع معاً.. في الحقيقة هم يحبان بعضيهما من فترة وجيزة, لكن...
- لكن.. ماذا؟
- لا أعرف يا عمر, لا أرتاح له, و لا أشعر أنه نظيف النية, و لا أظنه ينوي حقاً التقدم لأهلها يوماً كما يدّعي, و أخشى عليها منه...
- و لا أنا... لا أرتاح له أبداً...

أضيفت فكرة إلى الأفكار القافزة و المتضاربة بصخب في رأسه, حتى تجاوزت قدرته على التحمل...
شعر بخطر أن يتحول إزعاج الأفكار كلها تلك إلى حالة اكتئاب قد يطول الخروج منها, فقرر الهروب للنوم.
أوقف دورانه في البيت و استلقى في سريره, و ظلّ يكرر الأغاني و تدندنها شفتاه دون أن يستطيع إيقافها حتى غلبه النوم...

-13-

الثالث من آب **2012**

رمضان آخر يمر على الثورة...

جاثماً على الأرض و عن يمينه محمد قائم يصلي السّنّة بعد العشاء, جلس عمر يتأمل في أرجاء الجامع و من كان فيه من الناس... يركع بعضهم و يقوم الآخر, يسجد بعضهم و يقعد الآخر, و الإمام يصلي السنة في محراب مزخرف بأحجار ملونة و أشكال هندسية و كتبت أعلاه الآية "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً".
على يمين المحراب كتبت لفظة الجلالة "الله" و عن يساره كتب اسم النبيّ "محمد", يتابع بنظره للأعلى ليقرأ آية "فبأي آلاء ربكما تكذبان" فيتبع الآية ليجد أن سورة الرحمن قد نقشت بأكملها على محيط الجامع كلّه...
يتابع للأعلى ليتأمل القبة المزخرفة أيضاً و في محيطها شبابيك ملونة ترك أحدها مفتوحاً, و قد علق في وسط القبة ثريا ضخمة فيها عشرات الأضواء و مئات القطع الزجاجية, علقت إلى السقف بسلسلة معدنية ذهبية اللون, كانت تدور ببطء شديد باتجاه عقارب الساعة حتى حد معين لتقف مؤقتاً ثم تدور ببطء بالاتجاه المعاكس, ترى كم عمر هذه السلسلة؟ و كم ستعيش بعد؟ و هل سيأتي يوم تنقطع فيه؟..

في نفس المسجد الذي اعتادوا أن يصلوا فيه في الأعوام السابقة, أقام عجوز بعباءة رمادية صلاة التراويح, فقطع صوته المرتفع شرود عمر.
ينهض عمر مع الناهضين, يصطف إلى جانب محمد, كما في العام السابق, خلف نفس الإمام و خلف نفس القرعة, و حتى بين كثير من نفس المصلين.
إلا أنه في هذا العام لن يتسلل خلسة من خلف أبيه مع محمد, فالحال اليوم مختلف تماماً في دمشق, فبعد أن دخل الجيش الحر لأحياء الميدان و الأحياء الجنوبية أوائل رمضان اختلف الوضع الأمني في المدينة كلياً...
و ظل الناس فترة يخافون الخروج بسبب أصوات المعارك و حواجز الأمن المضروبة في أحياء العاصمة كلّها, ففرض الناس على أنفسهم حظر تجول مسائي, جعل للخروج لأي مكان رهبةً و لا ينجز إلا لضرورة قصوى, إلى أن اعتادوا الأصوات و الحواجز, و إلى أن تراجعت حدة المعارك قليلاً لترتفع مجدداً فيما بعد...
في السنوات الماضية كان عمر يصلي فوق في السدة, إلا أن الجامع السنة لم يمتلئ نصفه لخوف الناس من القدوم, فصلى في ساحة الجامع الأساسية في الصف الرابع أو الخامس.
يقف محاطاً بالناس و لا يصل نظره للإمام الذي كان متوسط طول القامة...
صوت الإمام الدافئ العميق, و نغمته المتأوهة الحزينة تجعل جسدك يقشعر مع المد, و مقلتيك تغص بالدمع مع آيات الرحمة, شيء في صوته يجعلك تشعر بالشوق لا تعرف لمن, و يحل عليك الخشوع حتى دون الالتفات لمعاني الآيات...
ذاك المزاج الروحاني المستسلم ما يلبث أن يتبدد ما أن تحضر في ذهنه عبارات و أسئلة من مجموعات الحوار, حتى الآيات نفسها تتحول لأسئلة حين يناقشها في رأسه بمنظورهم أو حين يكون فيها ما يبث الحيرة في قلبه...
يجبر نفسه على الشرود عن الآيات أحياناً ليتهرب من مناقشتها, إلا أنه ما يلبث أن يعود بذهنه لها مناقشاً ما تحمله من معانٍ...
ركع الإمام, و ركع خلفه المصلون, باللّاشعور لحقهم عمر...
فجأة و أثناء نزوله... لمع السؤال واضحاً جليّاً, لم يكن همساً هذه المرّة بل كان صراخاً عالياً مزعجاً تجمعت فيه كل تلك الأسئلة الصغيرة و الهموم الكبيرة, رنّ في رأسه و تفكيره

كصوت ضرب مطرقة على قدر نحاسي كبير..

"ماذا أفعل أنا الآن؟ ما هذا الذي أفعله؟ ما هذه الحركة التي أقوم بها؟ هل حقاً أركع كما يفعلون؟ هل حقاً أفعل كما قال لي رجل من ألف و أربعمئة عام أن أفعل؟ هل أنا على صواب؟ هل فعلا أصدق هذا الرجل و أمتثل لما يقول حرفياً؟ ماذا لو كانت كذبة كبيرة؟ ماذا لو كان الدين كذبة و الوحي كذبة و الله كذبة؟ ماذا لو كانت كل تلك التفاصيل عن حركات الصلاة و نسب الزكاة و محرمات الصيام و الشيطان و الملائكة و الجنة و النار من اختراع الإنسان؟..."

قام الإمام و قام وراءه عمر ثم نزل يسجد فنزل... و أكمل صلاته على تلك الحال من الشرود و التساؤلات.

فعلى الرغم من حضور تلك الأسئلة في رأسه قبل الآن إلا أنها هذه المرة كانت شبيهة بصدمة جعلته يستفيق فجأة و يشك بجدوى ما يقوم به و ما يؤمن به, كانت وقحة لدرجة استطاعت أن تغرس فيه شيئاً من الضياع و الحيرة الجديّة بين شعوره بالرغبة بغسل دماغه لهول ما يجول فيه أو ربما الإفاقة من وهم ما يفعله, مما جعله ينتظر حتى تنتهي الصلاة ليطلب من محمد الخروج من المسجد مؤقتاً ليشربواً شيئاً و يعودوا لصلاتهم...

- الآن؟! انتظر لبعد الركعة الثامنة على الأقل...

- أشعر بعطش شديد, و ثمة ما أريد إخبارك به...

خرج الشابان, توجها لمحل قريب و اشتريا قنينتي عصير...

- إذاً؟... ما الذي تريد إخباري به و لا يمكن تأجيله؟...

- محمد, باتت الأسئلة و الشكوك التي ذكرتها لك سابقاً تزداد قسوة و إزعاجاً, بات صوتها أعلى و وتيرتها أسرع, باتت تزعزع شيئاً داخلي فتشعرني أنه لا جدوى من دعائي و لا أصل لمعتقداتي...

تنهد محمد, و أعاد غطاء القنينة لمكانه, ثم أحكم إغلاقه...

- اسمع يا عمر, هذه الشكوك طبيعية تمر ببالنا جميعاً, بل تمر ببال كل باحث حق البحث على مر الزمان.

هناك أحاديث للرسول تروي أن ذروة الإيمان هو تلك الشكوك, و أنه كلما زاد إيمان الشخص و قربه كان نزاعه معها أشد...

الدين أصلاً يطالبنا بإعمال عقولنا, و ما دعوته للناس للإيمان به إلا دعوة جدليّة تحادث العقل, و لكل سؤال يخطر في بالك هناك إجابات عقلية طرحها الدين و هناك حجج تجدها عند علماء الدين و من تعمّق في تلك الجوانب.

- أنا مؤمن بكل ما قلت, و أوافق عليه جملة و تفصيلاً, و كثيراً ما أرد على تساؤلاتي من تلك الأجوبة...

لكن يا محمد... حين يصبح معتقدك الذي ترمي عليه كل همومك, و تستحضره كلما احتجت, و تستمد منه قوتك إذا ضعفت, و تتوكل عليه إذا ما هممت, الذي تداوي به أحزانك إذا حزنت, فكلما اعتقل صديق تقول سيؤجر و يعوضه الله عن عذابه, و إذا استشهد شاب تقول ذهب لنعيم الجنة و سيعيض الله أهله في مصابهم... إذا صار ما تستعين به على تسكين آلامك من مظالم الدنيا و الذي تمتنع لأجله عن كثير من الملذات, و تحارب هواك تماشياً مع أوامره, و الذي تعقد عليه كل آمالك و مصيرك, فتسترق منه نظرة عن مآلك بعد مماتك... حين يصبح هذا المعتقد الذي تعول عليه هذا كله "وجهة نظر" قابلة للنقاش, فإن شكاً واحداً بالمئة فيه كفيل أن يصيبني بالقلق الشديد, فإن كل حياتي اختياراتي توجهاتي, مصيري مسكن همومي, أهم محفزاتي و دوافعي كله كلّه هُدّد بنسبة الشك تلك مهما صغرت, و كأن كل شيء بات فجأة وهماً بوهم...

تنهيدة عميقة أطلقها محمد, و ارتسمت تقطيبة على جبهته, سكت للحظات يستشعر فيها مشكلة صديقه...

- و الله يا عمر معك حق...

ليس بالأمر البسيط و ليست بالقضية العابرة, و على فكرة أنا لم أكن أخبر تلك المشاعر و الأفكار قبل الثورة, أو لأكون أكثر دقة منذ حوالي السنة أخذت تلك الأفكار تتسلل إلى تفكيري...

و ما سبب تلك الكتب التي رأيتها عندي إلا بسبب نمو تلك الأفكار و الشكوك, فلجأت للكتب و المحاضرات.

لهذا أستطيع فهم ما تشعر به, و الحمد لله أجد في بعض ما أقرأ منها على قلّته ما يريح...
- طيب ماذا لو كانت كل تلك الكتب و المحاضرات على خطأ يا محمد؟...
- انتظر حتى تقرأها ثم تحكم, لن يجبرك أحد على تصديق محتواها...
- أعرف, و لكن ما أريد قوله أنك تقرأ وجهة نظر واحدة, كتب موجهة باتجاه واحد و لم تطّلع على الكتب التي تدافع عن وجهة النظر المضادة, و تنقد ما تقرأ...
- طيب لا بأس, تعال نبدأ من اليوم, أنا و أنت رحلة بحث نقرأ فيها و نستمع فيها و نناقش فيها.. نمشي رويداً رويداً على كل ما تقع عليه أيدينا من المواد التي تتعلق بهذا الموضوع...
- لا أعرف, في الحقيقة أخاف... أتمنى ذلك و أريده لكني أخاف إن بحثت و تعمقت أن أصل للنتيجة الغلط, أن أترك, أن أبتعد... أخاف...
- عمر ..إن صادق البحث سيصل الطريق الصحيح, و ليس الحل أن نغمض أعيننا بحجة أننا نخاف, إن كنت صادق النية هادئ التفكير جاد البحث, فإن القراءة ستفيدك و توسع فهمك, لتدلك في النهاية على الطريق الصحيح...
من بين المحاضرات التي أريد مشاركتك إياها, هناك رجل أسمع له كثيراً في الفترة الماضية, يقول في أول محاضرة سمعتها له...
"إن الله لا يخاف من التفكير و البحث كما يصوره لنا الشيوخ!"
و سمعت له كلاماً جميلاً يقول فيه _ ربما مستشهداً بحديث عن الرسول, لست متأكداً من ذلك_ "إننا أحق بالشك من إبراهيم" فإبراهيم الذي كان نبياً قال لربه: أرني كيف تحيي الموتى, فأجابه الله: أولم تؤمن؟ قال: بلى و لكن ليطمئن قلبي... فإن كان إبراهيم النبي احتاج رؤية كيفية الخلق ليطمئن, فنحن أحوج منه للطمأنينة و أحق منه بالشك...
- شيخ يقول هذا؟!..
- هو عالم معه دكتوراه, و لا يدعي أنه شيخ بالمعنى التقليدي للكلمة.. ثم إننا يا عمر اكتفينا من حديث التخدير و الأفيون الذي يريدك أن تؤمن و تسلّم دون منطق...
حتى إنه يذهب أبعد من ذلك فهو يرى أن الملحد الباحث بصدق كامل عن الله و الذي يخصص من جهده للبحث الجاد, و ليست غايته التعجرف و التعالي أو الهروب من

الفشل أحق بكثير بالجنة من الشيخ الملتحي المتعصب لفكره و ملته و مذهبه الذي ولد عليه, و يتمسك بأفكاره بطريقة متحجرة حتى أنه يكفّر كل من يخالفه من البشر و كأن مفاتيح الجنة قد أوليت إليه... و هل تعلم بم يعلل قوله هذا؟

- بم؟

- هو يرى أنه لو بعث كليهما في زمن محمد أو أي نبي آخر, لكان ذاك الشيخ في صف أبي لهب يقول بتعصب هذا ما وجدنا عليه آبائنا, فيما كان المفكر يناقش الأفكار الجديدة المطروحة بصدق و تفكر, ثم لاتبع قناعاته سواء اقتنع بالدين أم عكس ذلك... فغايته هي الوصول للحق.. و الحق فقط...

- و الله أراحني كلامك يا محمد... و لكن لأكون صادقاً معك أظن أنها راحة مؤقتة, فأسئلتي كثيرة و عقلي لا يرتاح و لا يريحني معه...

- لا تقلق, لن نقف عن البحث و التفكير, اعتبر أن رحلتنا بدأت من اليوم...

- أتعرف ما مشكلتي؟... مشكلتي أني لا أقرأ, و لا أستطيع الجلوس لفترات طويلة خلف كتاب.. لكن إن شاء الله سأبدأ بالقراءة و سأعتادها, أريد أن أبدأ مرحلة جديدة كلياً, أريد أن أقرأ و أتبحر و أعتاد القراءة لفترات طويلة...

- ممتاز, لنباشر معاً إذاً, لنبحث اليوم عن كتب متعلقة بهذه المواضيع لنبدأ قراءتها سوياً...

- إن شاء الله.. أسأل الله أن أجد فيها ما يريحني رغم شكّي بذلك...

في الأيام الثلاثة التالية لم يتغير الحال كثيراً, فكل من التسويف و ضيق الوقت جعل بحث الشابين أقل جديّة من نقاشيهما و حديثهما عن الموضوع يومياً...

قرارهما بالبحث و القراءة كان قائماً إلا أن الشروع بتنفيذه كان متباطئاً.

اقترح محمد كتاباً للقراءة لكنهما لم يبدآه بعد, و ازدادت في تلك الأيام أسئلة عمر كمّاً و عمقاً, و صار أكثر جرأة على التعبير عنها...

غدا الخروج بين ركعات التراويح عادة يومية, يبوح فيها عمر بالأسئلة التي طرحتها الآيات في رأسه, ربما لا تكون الأجوبة التي يصوغها مع محمد كافية و لا حتى مقنعة بشكل

كامل, لكن مجرد البوح بها لمحمد كان نوعاً من الفضفضة و تنفيس القلق الذي تخلقه في نفسه...

في اليوم الرابع جاء عمر بنسخة الكترونية عن الكتاب الذي ذكره محمد, و جاء الأخير بأربعة محاضرات صوتية للرجل الذي تحدث عنه سابقاً, تبادلا ما جاء به كل منهما أثناء خروجهما و أدلى عمر كما في الأيام السابقة بسؤال أثارته آيات التراويح.

ما أثار سؤال اليوم كانت آيات تتحدث عن قصة موسى و اصطفاء الله له من لحظة ولادته و انتقاله إلى بيت فرعون إلى أن غدا رجلاً فشيخاً, فدار السؤال عن عدل اصطفاء الله لبعض الناس أنبياء و مقربين دون الآخرين, و تقديس أوامر أشخاص دون غيرهم, و لم قد يربط إله الأكوان رضاه برضى أشخاص عنك و اتباعك لهم؟ و هل الدين يكرس ذلك أم أنها مغالطة تسللت و كرّسها الإنسان السلطوي ليعزز سلطته؟ مما قاده لسؤال أكبر هل الدين سلطة أم أنه منهج مخلّص؟..

و كالعادة كانت فضفضة و توصيف للمشكلة الفكرية و محاولة للتفسير لكن دون الوصول إلى حل مقنع تماماً, فلم يكونا قادرين و إن عزموا على حل تلك المعضلات الفكرية...

في اليوم الخامس دخل عمر المسجد مجهزاً لوقت خروجهم موضوعاً للنقاش أو لنكون أكثر دقة همّاً للتنفيس, أثاره في نفسه عبارة أحد الملحدين على النت "إنني لن أؤمن بأديان كان دعاتها يعتقدون أن الأرض مسطحة و ليست كروية"...

و رغم أن عمر لم يجد بعد بحثه في القرآن ما يشير لذلك صراحة إلا أنه لم يجد العكس أيضاً, و خاصة مع اتساع المجال في تفسير الآيات لتشمل معان عديدة لا تتعارض مع كون الأرض كروية, لكن السؤال ظل يتفرع برأسه, و ظل دون أن يشعر يمحّص في كثير من الآيات يبحث في معانيها عن تعارض بين العلم و الدين...

عادة ما يكون محمد قبله في المسجد, إلا أنه اليوم لم يأت بعد, فظل عمر ينتظر قدومه فيما بدأ الإمام صلاته, ثم التحق به قبل الركوع مباشرة و هو يسأل نفسه "ترى ما الذي أخّر محمد؟".

انقضت صلاة العشاء و لم يأت محمد بعد, استغرب عمر تأخره المفاجئ, فاتصل به, إلا أن

جهازه كان خارج التغطية...
عاود عمر محاولة الاتصال أكثر من مرة بعد الفراغ من صلاة السنة بعد العشاء, لكن هاتف محمد لا زال خارج التغطية, هاتف مهترئ, لا بد أن بطاريته قد فرغت...
بين كل ركعتين من صلاة التراويح يعاود المحاولة مراراً و تكراراً...
تمر آيات يحاول أن يمحصها لكن تفكيره لم يكن متاحاً للنقاش الآن, بل كان يتساءل عن سبب عدم قدوم محمد, و سبب عدم إخباره له بنيته عدم المجيء...
يبتكر عقله عدداً من الأسباب معظمها متفائل, و يتخذ قراراً بينه و بين نفسه بأن يطلب من محمد حين يراه إعطاءه رقم أحداً من أهله ليحفظه عنده في حال تكرار موقف كهذا في المستقبل...
ربما نام محمد بعد الفطور, و فرغت بطارية هاتفه فلم يوقظه للصلاة...
اعتاد عمر من الأيام الماضية الخروج و الحديث و الاستراحة ثم العودة للصلاة, فكان مجمل الركعات التي يصليها تتراوح بين الثمان و الاثنتي عشرة... فبدأت نفسه بعد الثامنة اليوم تحدثه أن يعود الآن و يسبق أهله للمنزل بسيارة أجرة, فهو متعب و ضجر إلى حد ما لغياب محمد... أصلاً انشغال باله بعض الشيء, لا يسمح له بالتركيز في الصلاة...
حسناً, و لكن الإمام قد بدأ الركعتين التاليتين للتو, و قد قام أبوه يصلي أيضاً...
فليصلّ معهم هاتين الركعتين ثم ليخبر والده برحيله و يعود للبيت قبلهم اليوم...
أكثر من ربع ساعة انتظار و لا تمر سيارة أجرة شاغرة واحدة, فقرر أن يمشي باتجاه البيت و يوقف أول سيارة أجرة يصادفها على الطريق.
أثناء الطريق كانت يده تكرر محاولة الاتصال بشكل مستمر بمحمد... و النتيجة نفسها.
تقل نسبة الأسباب المتفائلة التي يبتكرها عقله لصالح المتشائمة...
إلى أن تذكر وجهة محمد التي كان عليه أن يذهب إليها خلال النهار, فدبّت في قلبه كتلة رعب مفاجئة و باتت معظم التفاسير لغيابه تتخبط برأسه متشائمة قلقة...
كان محمد ينوي إيصال مساعدات طبية إلى منطقة ساخنة في ريف دمشق, و كان من عادة عمر أن يرافقه في رحلات كهذه, إلا أن أبو جوزيف تطوع من يومين للذهاب بدلاً عنه, فحمل عبئاً عن عمر, الذي ظل نائما حتى وقت متأخرٍ اليوم...

تسارعت خطوات عمر تسارع أفكاره في رأسه, يمشي سريعاً تارة و يهرول أخرى, و يلتفت كل دقيقة خلفه عسى أن تمر سيارة أجرة..
يداه تكرر اتصاله اليائس, و شفاهه تتمتم...
- محمد... يا رب... يا رب!... محمد...
و أخيراً!.. سيارة أجرة...
يؤشر لها بيده, تقترب من بعيد, شاغرة أكيد... يلوح لها بكلتا يديه...
تمر بقربه تتجاوزه و تكمل دون أن تتوقف...
بشيء من الغضب يتابع طريقه و قد تعاظم القلق و الخوف في نفسه.
- تباً لي لم لا أحفظ عندي رقم أبو جوزيف؟ يا الله... لا رقم بيت محمد و لا أحد من أهله, والله غباء.. يا لله...
يتعامل بعنف مع هاتفه, يحاول و يحاول... يضغط اسم محمد و ينتظر حتى يسمع أنه خارج التغطية ليعاود المحاولة من جديد...
- لم لا ترد؟!.. لم لا ترد؟!...
باتت هرولته أسرع, و قطعه للشوارع أقل انبتاهاً, لحسن الحظ كانت السيارات جد قليلة في الشارع...
على أحد الأرصفة يتمهل, يقف لحظة و ينحني قليلاً, يضع يديه على ركبتيه.. يحاول التقاط أنفاسه..
"انتظر حتى أراك يا محمد, و الله سأوبخك توبيخاً عنيفاً, انتظر حتى أمسك بك والله لأحطمن هاتفك و بطاريته اللعينة...
يا رب... فلتكن بطاريته السبب و سأشتري له بطارية على حسابي...
يا رب... فليكن بخير و سأجعله يعتذر شهوراً لما أمرّ به... "
بقي بينه و بين بيته شارعين يجتازهما عادة بحوالي العشر دقائق مشياً, فتوقف عن محاولة الاتصال, و توقف عن الالتفات مستجدياً سيارة أجرة...
وضع هاتفه بجيبه و حول هرولته إلى ركض صريح...
يجهز في رأسه ما عليه أن يفعله فور وصوله... سيفتح الحاسوب ثم الحساب ثم سيرسل

لأبي جوزيف يسأله و في نفس الوقت سيسأل في المجموعة السرية للتنسيقية التي يعمل معها محمد, و يسأل جميع من في الدائرة المقربة منه في العمل الثوري .. على كل هم قلة, و المفروض أنه هو الشخص الأقرب له, و هو لا يدري عنه شيئاً...

"يا رب.. أسألك أن يكون قلقي هذا مبالغاً فيه و لا مبر له... يا رب...محمد لا يتحمل امتحان كهذا...

يا ويلي... و الله محمد رقيق ضعيف البنية.. يا رب والله هو أضعف من أن يمر بتجربة اعتقال.."

فور وصوله المنزل باشر بتنفيذ المخطط الذي رسمه, إلا أنه لم ينجز منه إلا خطوتيّ فتح الحاسوب و الحساب ليرى مباشرة أن أبو جوزيف قد كتب "فك الله أسرك يا غياث سوريا" (الاسم الوهمي لمحمد)...

كلتا يدي عمر عافت الحاسوب و ضربت رأسه, خطوة للخلف تبعده عن الحاسب... تبعده عن حقيقة أقرب ما تكون للوهم... يكذّب عينيه, يرفض ما أتت به, يرفض تآمرها مع العالم الذي أخذ يدور به و يقلبه رأساً على عقب و يخطفه من نفسه و يخطف لونه من وجهه... يرفع رأسه و ينظر للأعلى...

- لا... يا الله!... لا!...

يتراجع للخلف أكثر, يبتعد عن الحاسوب أكثر...

هبط عليه حمل هائل من مشاعر الغضب, الحزن, و الندم... نزلت كصاعقة زرقاء اللون ضربت صدره و انتشرت إلى أطرافه فأوهنتها و جعلته عاجزاً عن الوقوف فجلس على الأرض واضعاً يديه على رأسه, أعجز من أن يفكر أو يتكلم أو يبكي, فظل صامتاً يحاول إدراك ما حلّ بصاحبه...

بات أوهن من أن يظل جالساً فاستلقى على ظهره عاجزاً عن الحراك, عاجزاً عن أي شيء, و ظل على حاله على الأرض حتى جاء أهله....

سواد تلك الليلة كان طويلاً بما فيه الكفاية ليستطيع تدريجياً استيعاب حقيقة أن محمداً قد اعتقل..

دون حراك كان مستلقياً في سريره و عيناه شاخصتان تتأملان سقف الغرفة..
ساعات عصيبة تمر بمحمد.. و ساعات عصيبة تمر بعمر...

بضع أيام طويلة لزمت عمر ليستطيع التعافي من صدمته, خلالها سلب أي لون من حياته, و بات عاجزاً عن عيشها أو حتى أداء أبسط وظائفها, فكيف ينام و قسوة أرض الزنزانة تجاهر بعداوة جسد محمد؟ و كيف يأكل و رائحة عفن الزنزانة تخنق محمد؟.. و إن حاول وضع لقمة في فمه فإنها تغص, و تستحي معدته أن تستقبلها, فما أن يقربها من فمه حتى يمر طيف محمد في خياله جائعاً وطيف أم محمد و قد عافت الطعام و عافتها الراحة و السعادة... كيف يضم أهله و قد استبدل السجان الشتائم و الركل بكلمات الرضى التي تودع بها أم محمد ولدها؟.. كيف يضحك و الظلمة تخفي بهجة الحياة عن عيون محمد و رعب المجهول يحاصره؟ كيف يبتسم و الدمع لا يجف عن وجه أمه؟... أيام مرت يمضي نهاره حزناً و همّاً, يسأله عقله عن حال صديقه في كل لحظة.. و يقضي ليله يقلب في صور محمد أو يدعو له كلما مرت في باله صورة لأحد أشكال العذاب في المعتقل...

-14-

الأول من أيلول **2012**

رغم قلة كلماتها و عدم فهمه لمعظمهم كان عمر يغني مع المسجلة في السيارة, أغنية مغربية أو جزائرية الله أعلم, بعض كلماتها عربي و الآخر فرنسي, يفهم الفرنسي منها أكثر من العربي, يدندن لحنها بصوت أعلى من صوت المسجلة نفسها... في طريقه لاصطحاب أخته و صديقتها من مقر الجمعية...

لم يكن ليهتم أكان مستمتعاً حقاً بلحن الأغنية أم أن أثر مشواره الأسبوعي هذا ما زال جميلاً عليه... لم يعد يعرف, فما حملته شهور مضت من الخنق و التضييق سلبت شيئاً من ذكائه العاطفي ليفهم مشاعره, أو ربما سلبته الاهتمام بأن يعرف...

حتى أن الأسئلة الفلسفية و الدينية عافته ربما رأفةً منه بنفسه في فترة كان أحوج ما يكون فيها إلى الله...

يصل المقر باكراً, يطفئ المحرك و يبقي على الأغنية, يسرح فيها لدقائق, و ترتسم على وجهه نصف بسمة باهتة تخلقها أحلام يقظة تسرق مشاهدها من الماضي... حيث لم يكن ألم و كانت أكبر الهموم أصغر من أصغر هم يحملونه اليوم حتى تبدو كل هموم الماضي

منتهى الطفولية, كانت المخاطرة أن يدخل مع أصدقائه مطعماً لم يجربوه من قبل و لا يعرفون جودته, و التضحية أن يذهب مع صديقه مشواراً صعباً لا يحبه كالذهاب لتسيير معاملة في إحدى الدوائر الحكومية في سوريا الأسد, و لم يكن الموت يقترب حتى من أن يكون في حسبان مخاوفهم علاوة على أن يخيم على كلماتهم اليومية....

نقرٌ على الشباك يوقظه من أحلامه الوردية, ليصحوا على وجهين ضاحكين تشير صاحبتاهما إلى قفل الباب ليفتحه لهما...

على الطريق تطلب أخت عمر منه التوجه إلى المجمّع التجاري في منطقة برزة, فعلا تريد لقاء أحدهم في المجمع بدل الذهاب لبيتها... أعادت علا الطلب لتوضح رغبتها بالنزول في أقرب نقطة ممكنة على طريقهم لبيتهم, لئلا تشكل عبئاً عليهم...

- عمر أوصلني لأقرب نقطة على طريقك أنت ثم أكمل طريقي أنا بالحافلة...

إلّا أن عمر أصر على إيصالها لباب المجمع على الرغم من إصرارها الغريب بالمقابل حتى آخر عشر أمتار من الطريق أن ينزلها لتكمل طريقها وحدها...

نزلت علا من السيارة بعد أن ودّعاها, و كان على عمر أن يدور بالسيارة حتى يعود من حيث أتى...

أثناء تدويره السيارة رآها في المرآة تسلم على أيمن, و دخلا المجمّع معاً.

بشيء من المزاج النزق, ينطلق بأسرع ما يمكن, مصدراً ضجيجاً عالياً بالسيارة...

أعاد تشغيل المسجلة, غير الأغنية, رفع الصوت, رفعه مرة أخرى, فتح الشباك, أمسك ناقل الحركة بعنف و أنزله للثالث, ثم أعاده للرابع, أعاد إغلاق الشباك, بيد راجفة أخرج من جيب جاكيته قطعتي حلوى كان قد أحضرهما لأخته و صديقتها و أعطاهما لأخته...

- الاثنتين لي؟ دع واحدة لك...

- لا, شكراً...

أشار له شرطي بالوقوف فتجاهله و كأنه لم يره, بل داس على دواسة البنزين, حتى كاد يصل حدها الأخير...

- عمر!! أشار الشرطي لك..

قاد بسرعة و رعونة, يمر بين السيارات بتهور جعل أخته تطلب منه مراراً أن يخفف

السرعة...
مزاج غاضب يخفي حزناً مخنوقاً جعله يتصرف بنزاقة لا مبررة, فيغضبه كثرة المحدبات الصناعية على الطريق و يشتم طول زمن الانتظار على الإشارة, و يلعن سوء تنظيم الطرقات...
و ظل على حاله تلك حتى وصل حارتهم, ركن السيارة, و ظل جالساً فيها سانداً رأسه للخلف, يتنفس بسرعة و توتر و أخته ترقبه بصمت لدقائق معدودة, تستجمع كلماتها و تستوعب أثر المفاجأة التي خلفها تصرفه, إلى أن قالت...
- ما بك يا عمر؟ اهدأ يا أخي...
بعينين مغمضتين, أمسك يدها, قبّلها, و أبقاها على وجهه, يسترق منها بعض الأنس..
- آسف إن تسلل التوتر إلى تصرفاتي, عصيبة الظروف التي أمر بها, و طالت فترة انتظار الفرج...
نزلا من السيارة و صعدا للمنزل, و لم يعلقا مرة أخرى على ما حدث...

بعد ثلاثة أيام كان عمر يحدث مضراً على النت, ينتظر حتى ينهي شكوى همومه, آلام حياته البعيدة, مشاكل جامعته الجديدة, وسطها الغريب و جفاء الناس فيها, حتى يحل دوره و يبدأ هو بالشكوى له...
أضاء في تلك الأثناء إشعار الرسائل, يفتح الرسالة و إذ بها أخته تخبره بموعد مظاهرة محمية من قبل الجيش الحر في برزة, و تسأله إن كان بإمكانه الذهاب, علّهما يذهبان و يأخذان صديقتها معهما...
يضحكه واقع الحال...
- بيني و بينك عشر أمتار و جدار واحد و نتحدث عن طريق النت... ثم هل ستذهب علا معنا؟ أم أنها ستذهب مع أيمن كما العادة؟
- لا, لن تذهب مع أيمن, أظن أن هناك مشكلة ما بينها و بينه...
- مشكلة؟!
- نعم.. أشعر أن في اللقاء الأخير ما هدم شيئاً بينهما...

الخامس من أيلول 2012

بعد وصولهم لمكان المظاهرة, و دخولهم من حارات لا يحفظ طريق العودة منها إلا الله و ساكنو المنطقة, وقف ثلاثتهم ينتظرون بداية المظاهرة التي تأخرت أكثر من العادة اليوم...

في لحظات الانتظار يبتكرون التسلية من اللاشيء, و يصادفون مجموعة أصدقاء يعرفونهم, يسلمون عليهم و قد غمرهم الضحك و البهجة, فشعور أن تصادف شخصاً تعرفه في مظاهرة رائع, و يمكن أن يغير نظرتك له...

و خاصة أن واحداً منهم كان عمر يظنه بسبب إخفاءه لآرائه مؤيداً للنظام...

يتصورون للذكرى مع أعلام الثورة على الحيطان... صورة له, صورة لأخته, صورة لعلا, صورة لثلاثتهم التقطوها بمساعدة شاب مار استوقفوه, انتبه عمر بعد أن أدار ظهره للمسدس على خصره, كان من الجيش الحر.

ثم أخذ صورة لمريوله مع علم الاستقلال هي الوحيدة التي يستطيع وضعها على النت...

يخرج عمر من جعبته قلماً ليكتب ذكرى, فيرسم إلى جانب علم استقلال صغير اسم حسابه و حساب أخته الوهميين على أحد الجدران, و يكتب بعدهما مازحاً عبارة باللغة الانكليزية "**for ever alone**"... "وحيدون للأبد", فلا علاقة تربط واحداً منهما و لا حبيب يتعلق قلبه بأحدهما... يعيد القلم و يشرع بتصوير الاسمين... توقفه علا...

- قبل أن تصور!.. لم لم تكتب اسمي؟...

- لست وحيدة مثلنا...

- بلا.. بت وحيدة...

فرحاً بحركته المتذاكية, أضاف اسمها, و التقط الصورة التي احتفظ بها مخلداً تلك الذكرى...

أقبل المنظمون, و برّروا تأخرهم المفاجئ بذهابهم لتشييع أحدهم شهيداً و دفنه بعد الصلاة عليه في مسجد في برزة..
كونهم فرغوا للتو من تشييع تظاهروا فيه, أعربوا عن نيتهم اختصار وقت المظاهرة التي كانوا أصلاً قد ألغوها صبيحة هذا اليوم بعد استشهاد صديقهم, إلا أن الحاضرين من أرجاء العاصمة لم يصلهم خبر إلغائها, فلم يشاؤوا تخييبهم...
تظاهر, صخب, هتاف حرية, الأعلام ترفرف في السماء, تحجب الشمس تارة ثم تبتعد أخرى لتمر الأشعة بين أصابعها فتصل عيونهم, يمشون تجاه تلك الشمس غير آبهين بالتكلفة و لا بعد الطريق...
مريوله على رقبته, ينشغل بالهتاف لحظات و يعود أخرى بنظره إلى كل من علا و أخته جانبه...
بساطة فهمهما للحرية بعيداً عن التعقيدات, الفلسفات و الأيديولوجيات تلخص توق شعب كامل لها...
ما أرقهما و هما تهتفان في مظاهرة هي أخطر ما يمكن أن تقوم به في بلد الأصفاد, يستحيل سماع صوتيهما بين الجمع, و في أنوثتيهما قوة تصهر صخور الاستبداد خجلاً...
تجعلانه يسأل نفسه هل قدمت لبلدي ما تستحق؟ تجعلانه يلوم نفسه على تقصير ربما لم يرتكبه, يحترم حضورهما, اهتمامهما و حس إنسانيّتهما فيما تنشغل فتيات كثيرات الآن بطلاء أظافرهن و التحضير لحفلاتهن, و فيما يتحجج كثير من الشباب بمليون حجة, و هم ينظرّون على الناس من خلف شاشات الحاسوب...
على كل لن يشعر بمتعة الطريق هذه إلا من كان على متن سفينتها, و لن يتذوق سعادة كنز الحرية أكثر ممّن اجتاز دربه, درب مليء بالمخاطر, شباب و فتيات ممن آمنو بالحرية يقدمون لها التضحيات, يتحدّون أمواج المجهول لأجلها و يسيرون على دربها و آمالهم تسير قبلهم, فلا أحد يسعد بكل انتصار لتلك الثورة أكثر ممن رهنوا كل ما يملكون عليها, و جعلوها رحلة حياتهم المصيرية...
حارات ضيقة يمرون خلالها, اعتاد أهلها مرور المتظاهرين يومياً...
على يسار أحد الأزقة الضيقة باب مفتوح, لمح يداً تمسك بحافته ترفض أن تفلته, كانت

يداً بيضاء رقيقة مليئة بالعروق الخضراء, تشبه يد أمه, أشعره الحنان في تجاعيدها بشوق إلى ضمّها و تقبيلها.
لاحق طقم الصلاة المنسدل على ذراعها فأوصله إلى وجه مسن أبيض تركت السنون فيه نقاطاً رقيقة من النمش, وجه أصيل أصالة عروق الياسمين المتسلقة جدران بيتها, و عيونها زرقاء دمشقية تذرف دموعاً نقية نقاء ساقية تشق طريقها بين صخور قاسيون منذ عشرات السنين.
بيأس تحاول ثلاث فتيات _ ربما كانوا بناتها_ سحبها للداخل, على ضعفها تقاومهم بكل ما أوتيت من قوة, تريد أن تراه, تحسبه بينهم كما في كل يومٍ يهتف معهم, من هنا يمر, تبحث عن وجهه بينهم, علّه يمر اليوم أيضاً, فلا تجده...
أخفض عمر صوته خجلاً, و صار الهتيف يهتف للشهيد و أهله...
- "أم الشهيد ... نحن أولادك"
كانت أم الشاب الذي شيعوه قبل قدومهم, غيب عنها الحبيب فخرجت تنشده فيهم, و صوتهم لم يكن غريباً عليها أبداً, كان صوت أبنائها...
يتغير الهتاف ليصبح "بالروح بالدم نفديك يا شهيد"...
فتصارع البكاء لتنفجر بالهتاف معهم...
دبت رؤيتها في نفوسهم جميعاً حماساً ممزوجاً بالغضب الحزين...
أكمل عمر سيره مع المظاهرة, و بقيت روحه عندها رويداً تحاول مواساتها, لحظات رؤيتها تلك كانت كفيلة بألا ينسى في حياته تلك المرأة, التي ظلت محفورة في رأسه باسم "المرأة التي يشبه وجهها صفحة من سورة مريم".

بعد انقضاء المظاهرة و خروجهم من المكان, مرّ ثلاثتهم على حاجز منصوب على الشارع العام...
بصورة عامة لم تكن الحواجز داخل دمشق ذو جدوى أمنية حقيقة, و يتلخص معظم الهدف منها في فكرة أن يقول النظام لشعبه "أنا هنا, لتشاهد بعينك سلطتي و قوتي المتمثلة بالسلاح بعيداً عما تسمع من أخبار تفككي و انهزامي, انظر لعينة من القوة التي

تواجه أفكار تمردك"
و ليرسخ في أذهان الناس فكرة الطاعة التي تهمشت بسبب الثورة, فيجعلك تقف في الصف وقتاً طويلاً ثم تخرج الهوية بكل تسليم و إذعان ليراها العنصر و ترجو أن يرضى عنك و يسمح لك بالمرور...
و تتفاوت طريقة تعامل كل من تلك الحواجز مع الناس تفاوت العساكر الواقفين فيها, فهناك حواجز عساكرها مجندون يافعون لا ناقة لهم و لا جمل, يحملقون في هويات المارة ربما شاردي الأذهان إن كانوا يعرفون القراءة أصلاً و يفعلون ما يفعلون لأن عليهم أن يفعلوه.
و هناك حواجز اشتهرت بتدقيقها و سوء معاملتها للناس ينحدر القائمون عليها من خلفية كارهة أتاح لهم وقوفهم مع سلاحهم كامل السلطة لإخراج حقدهم على الشعب و عدائهم لأهالي المناطق الثائرة.
بنظرة مريضة و استخدام مشين لسلطة مطلقة في أياديهم, لا وازع يقيضهم و لا عنان يكبحهم, يخرجون ما يخرجوه من أحقاد على الناس بدافع عقد النقص أو عقد طائفية... الحاجز الذي مروا عليه كان من النوع الثاني, النوع الكاره البغيض ترى في وجوههم كرهاً, و في عيونهم حقداً و تصرخ ملامح الواحد منهم لتقول "أنا شبيح"...
كان مرورهم بالحاجز سيراً على الأقدام, فرمقوهم بنظرات فيها تحدٍّ و ابتسامة استهزاء بقوة سلاحهم... ثم عادوا بنظرهم إلى عيون بعضٍ, عيون فيها ابتسام و تكتم الضحك بالكاد, لسان حالها يقول: يا لهؤلاء الحمقى لو يعلمون أننا من دقائق فقط كنا نلعن روح قائدهم و نتظاهر ضده...
استقلوا حافلة صغيرة و جلسوا في المقعد الأخير فيها...
ربما كانت نشوة ما بعد المظاهرة, و ربما كان تبادل النكات, أو برودة الهواء الداخل من النوافذ, و ربما صحبتهم المجتمعة على الحرية و الطبيعية, و ربما بساطة المشوار و متعة ركوب الحافلة التي قل من كان يحبها كما يفعلون, أو ربما ذلك كله معاً ما جعل رحلتهم تلك ممتعة, فيها شيء من طعم السكر...
بعد أن نزلوا من الحافلة, كان عمر بوعي أو بدونه يطيل الطريق, بل يطيل الرحلة كلها

فلا يريد العودة للبيت الآن...
فاقترح أن يذهبوا معاً ليشتروا شاحناً لحاسوبه, ثم أن يعودوا للبيت مشياً...
و مرة أخرى و ما أن اقتربوا من البيت حتى اقترح أن يذهبوا لتناول شيء ما, فجوع ما بعد المظاهرة غزا ثلاثتهم...
اقترحت علا محلّاً للشاورما بجانب بيتها, كانت قد اعتادت أن تشتري من عنده, و مدحت به و بجودته...
مشوا للمطعم لأكثر من نصف ساعة, و ما أن وصلوه حتى قالت علا بشيء من المزاح...
- ها هو المطعم التحفة...
كان المطعم شعبياً بسيطاً صغيراً قبيح الديكور رديء المظهر, آخر ما قد يتوقعه كان أن يكون جيداً, إلا أنه لم يذق الشاورما أطيب مما ذاقها عنده...
يتناول سندويشته بابتسامة عريضة, شدة الجوع و لذة السندويشة تجعلانه يبلع بسرعة قبل حتى أن يتقن المضغ, يكاد يغص من الضحك كلما نظر إلى علا... كونها محسوبة على طبقة مخملية و نحفها لا يوحي بالشهية التي تبديها, اختارت أكبر سندويشة في المحل بخبز "الصمون" و اعترضت لما طلب عمر السندويشات جافة قليلة الدسم, و لقمتها أكبر من لقمة عمر بمرة و نصف...

في البيت يحدث عمر مضراً عن يومه, عن متعة رحلته, عن المرأة صاحبة الوجه الذي يشبه صفحة من سورة مريم, عن الحافلة, الابتسامات, و الشاورما...
و يسمع منه عن ألم الغربة, عن برودة البعد, و قباحة الألوان في بلاد لا تشبه بلدهم في شيء, حتى الخضار و الفواكه تعبس في وجهك و أنت تتناولها, و زرقة السماء لا تضاهي جمال لون الزفت في أرض الوطن الحبيب, شوارع غريبة, أبنية غريبة, كل شيء يتجهم للسورين هناك حتى الابتسام... يبيع الواحد منهم كل الرفاهية و طول الأبنية هناك على أن يقضي خمس دقائق يمشي فيها تحت جسر الثورة, في سوق الحميدية و الشعلان أو قرب الجامع الأموي أو في حارة بيته البسيطة, و تتلخص أمنياته في أن يشرب فنجان قهوة , فنجان قهوة فقط على شرفة منزله...

ثم فتح عمر حساباً اسمه "بشير السوري" لا يعرف أحد غيره أن محمداً هو صاحبه, و كان قد خصصه للعمل الثوري الخطر منه خاصة, و اتفق كليهما ألا يخبرا أحداً عنه, و إن اضطر للاعتراف أن يعترف عن أحد الحسابات الأقل خطورة...

أرسل له رسالة أخبره فيها ما حدث معه خلال النهار و حدثه عن مستجدات الأمور, ثم طلب منه أن يكون بخير, و أن يبقى قوياً, و طلب منه أن يعود بأسرع ما يمكن للبيت...

اعتاد عمر منذ الأيام الأولى بعد اعتقال محمد أن يفعل ذلك كل يوم تقريباً, يفتتح الرسالة برقم هو عدد الأيام التي غاب فيها محمد, يحدثه كأنه يستطيع فتح الرسائل و مبادلته أطراف الحديث...

و ينتظر يوم خروجه حتى يقرأ كل تلك الرسائل...

أنهى إرسال الرسالة ثم عاد ليكمل تصفحه, ليفاجأ بصورة التقطت لهم من الخلف في مظاهرة اليوم, و نشرتها إحدى الصفحات, فيرسلها لعلا, و يتبادلان الحديث رويداً, و يناقشان بعض أخبار الثورة...

ينهي حديثه معها و يتمنى لها ليلة سعيدة, ثم يضع على صفحته صورة لرسم كان قد رسمه منذ زمن بعيد إلا أنه لم يُره لأحد من قبل...

كان الرسم لرجل يقفز في الهواء من علو شاهق قفزاً حراً, مادّاً جسده و فاتحاً ذراعيه, لا شيء يلتقطه تحته إلا الهواء ثم الهواء و الهواء إلى الماء البعيد العميق... قفزة لطالما حلم عمر أن يقفزها يوماً...

بمخيلة تكاد تستشعر كل كلمة, و بغرق شبه كامل في الحلم حتى تقمص كل مشاعر الرجل كتب عمر تحت الصورة...

"أغمضت عينيّ, و استنشقت الهواء البارد... سحبت شهيقا طويلاً مريحاً هادئاً في محاولة لأبطئ نبضات قلبي المتسارعة, و ملت للأمام و سمحت لثقلي باتخاذ القرار.

أفلتّ العنان للجاذبية لتفعل بي ما تشاء, فسحبتني بقوة و بشيء من عنف, نادتني .. صرخت بجسدي لم ترحم خوفي... تغلغلت في كل خلية لتقتل ما بها من موت و تحيي ما بها من حياة... الهواء ينحت وجهي ليرسم ملامحاً جديدة... يناديني لأخرج مما أنا فيه, في

قرارة نفسي اتخذت قراراً: لقد تركت نفسي القديم في الأعلى واقفاً على الحفة...
لحظات .. اختصرت سنين .. و اخذني الماء على حين غرة ... لأخرج انساناً جديداً.."

-15-

السابع من أيلول **2012**

ليس من عادة عمر أن يفتح حسابه الوهمي خارج البيت خوفاً من الرقابة الأمنية, إلا أنه كان في حالة من اللامبالاة سمحت له بذلك...

جالساً في قهوة راقية وسط دمشق ينتظر قدوم صديق من أيام المدرسة يدعى "خالد ", فتح حسابه و أخذ يتصفح بشرود بالكاد يفهم ما يقرأ, يد تحمل فنجان القهوة و يد تضغط سهم النزول على الحاسب...

قرأ عبارة من أحد صفحات الإلحاد, تلك الصفحات التي كان قد هجرها و هجره فضول التبحر فيها منذ اعتقال محمد, فتح الصفحة و أخذ يتصفحها ببرود و عدم اكتراث, فهي لم تعد تشكل له هاجساً, حتى لمح اسم علا, شده اسمها كلياً, و كانت قد أعجبت بأحد محتويات الصفحة...

يقرأ المحتوى الذي أعجبت به... كالعادة لا كفر بما جاء به الدين بشكل واضح, مجرد دعوة للخروج من أطر التفكير المغلقة...

يفتح صفحة علا, كثير من الطرافة و استقلال الشخصية في عباراتها, يضحكه كثير مما

تكتب و لا يقاوم الإعجاب أو التعليق...
أثاره الفضول فيما يتعلق بمشاهدته لها في كثير من تلك الصفحات, يريد أن يعرف رأيها, هل دوّخها ما دوّخه؟ و هل بإمكانه إفادتها أو بإمكانها إفادته؟...
كتب نصف رسالة و لم يستطع إرسالها بسبب قدوم صديقه, فأجّل الموضوع ليعود للمنزل...
في البيت أرسل الرسالة يسأل عن نظرتها للدين و عن قوة إيمانها و سألها فيما إذا كانت تصلي, لا يعرف أكان اقتحامياً بأسئلته تلك أم لا, لكنه ببساطة كان على طبيعته و لم يتردد في إرسال السؤال...
فيما ينتظر الجواب أخذ يتصفح حسابها الحقيقي من حسابه الحقيقي, يقلب الصور و الحكايات, يتلمّس الجنون و حب الحياة, حس المبادرة, و التطوع في مشاريع هادفة, و الجمع بين بساطة الطفولة و مسؤولية الرشد...
كان جوابها مبهماً بعض الشيء, لكنها عبرت بشكل رئيسي عن كونها تفكر بهذه الأمور كثيراً و خاصة مؤخراً, و أن في الدين أو المتديّنين كثير من الأفكار التي لا تستطيع استساغتها و تبعثها على التفكير فيها و نقضها, لكنها لم تبدي موقفاً حاداً و ردت على السؤال بأسئلة وجّهتها له... معظمها كان عن رأيه هو...
بدوره هو أقر أنه تراوده أيضاً تساؤلات يبقيها غالب الأحيان لنفسه و يتركها برسم الإجابة يوماً ما...
لا يذكر عمر أي نقطة تماماً تحول فيها النقاش عن مساره و انتقل إلى المزاح و التسلية, فأخذ طابعاً مريحاً و امتد طويلاً يقفز من موضوع لآخر لا رابط بينهم إلا متعة الحديث...
في حياة الإنسان ساعات و أيام بل حتى شهور تمر مرور الكرام ليس لها وزن و لا تغير في حياته شيئاً, و هناك لحظات ثمينة تغير و تبدل ليصبح ما بعدها مختلفاً تماماً عما قبلها, نقطة التحول تلك كانت إحدى تلك اللحظات...
تحدثت عن فلم تحبه و أرسلت له المشهد المفضل لها فيه, حدثها عن فلمه المفضل و أرسل لها أغنية أحد مشاهده... ثم أرسل لها رابطاً لتنزل الفلم كاملاً, ربما يشاهدانه معاً

في وقت لاحق...
تبادلوا الأغاني, اقترح مقطعاً من أحد حفلات الفنانة الأمريكية "أديل", كان كليهما يعرفه, إلا أنهم أعادوه عدة مرات دون أن يشبعوا منه... اقترحت مقطعاً لأغنية أخرى من نفس الحفلة, و ظلا ينهيان الأغنية و يبدآن بالتي بعدها, يسمعونها معاً, و كان عليه أن ينتظر في كل مرة ليبدأا سوياً فالنت عندها أبطأ.
غرق في الحديث و عاش اللحظة مسروراً, جالساً في الصالون و النور مطفي, يقبل على حاسوبه بابتسامة أعطته مظهراً أخرقاً, كلما تمر أمّه تجده يقهقه وحيداً مع الحاسوب... "جن الولد..."
آخر جملة قالتها أمه قبل أن تتركه و تذهب للنوم, و قد قالت له: تصبح على خير, إلا أنه لم يسمعها, لم يرفع رأسه حتى...
و بقي على حاله تلك ساعات و ساعات, كلما ظن أنه لن يضحك أكثر, تفاجئه بحس الفكاهة عندها, نكاتها لا تعكس خفة الظل فحسب بل تعكس شيئاً من ذكاء يخلق البسمة من لب المواضيع الحياتية, و كأنها أدركت الحياة لأقصاها ففهمت سخافتها و استحقاق السخرية منها...
ذكرته بصلاة العشاء قبل أذان الفجر بقليل و أنه منذ حوالي الساعتين قال أنه لم يصلّ و لم يقم من حينها...
أحب أنها ذكرته, و ذكره ذلك أيضاً بالموضوع الذي فتح الحديث بادئ الأمر, لا بأس ربما يكملان الكلام عنه في الغد...
كان عليه أن يختم المحادثة, عليه أن يبتعد عن تلك الشاشة التي التصق بها ساعات طويلة, و يا ليت الوقت يتفهّم, و يا ليته يرحم... فودعها, و قام لوضوئه الذي صلى به كلاً من العشاء و الفجر...

مستلقياً على ظهره في سريره, و البسمة مرتسمة على وجهه, يراجع المحادثة في رأسه... يحدث نفسه, يسأل نفسه ما هذا؟...
ما هذه المشاعر؟ لم كان مستمتعاً بهذا القدر؟ لا يهم ليكن ما يكن, المهم أنه جميل و

سيعيده في الغد, لحظة!... يعيده في الغد؟!.. هل هذا صحيح؟ هل هذا صواب؟ طيب لم يريد أن يعيده؟ ربما هو معجب بها...
على الأقل هو يعرف أنه معجب بذكائها, بخفة ظلّها و بساطتها, بعدم تصنّعها و لطف تعاملها...

كانت علا فتاة في جمالها هدوء لا يبهر بقدر ما يريح العين...
سمرة بشرتها الخفيف سواد شعرها اللامع شقاوة شخصيتها و استقلاليتها جعلها من الصنف الذي يشد عمر بشكل يعذبه بطريقة ما لدرجة أنه يعيفه...
فمن الصغر و منذ أن كانت صديقة أخته في الإعدادي كان يشعرها عشرة و يشعر نفسه ثمانية... كانت من نوع الفتيات الذي لا يتجمل أمامه و لا يطلبه... و تشكل له تحدٍّ لا يعرف ما هو...
شيء من التحرر, استقلال من كل تبعية, تفرد, تميز, يجعلها قائمة بذاتها... تأخذ القرار و تنفذه, تبني أفكارها الخاصة و تتخذ القرارات وفقها, تختار لون طلاء حيطان غرفتها, تختار جامعتها و كليتها و ترسم لنفسها دربها... العمر الذي بدأت فيه اختيار طعامها في المطاعم كان عمر لا يزال يناضل ليمسك ملعقته بنفسه دون أن تلقمه أمه, و فيها كثير مما حرم منه هو...
كان أجمل ما فيها عدم كمالها و عدم سعيها لذلك, تضحك عند تلعثمها أو خطأها بالكلام, تضحك عند سقوطها أو تعثرها, لا تخفي عيوبها, و لا تتجمل...
آخر مرة وضعت فيها طلاء الأظافر كان في طفولتها...
فيها من البساطة بقدر ما فيها من تعقيد عجيب و عادات غريبة... كعد درجات الطوابق عند الصعود و لبس الأحذية الرياضية الرجالية, الخوف من الحشرات الصغيرة كالنمل الصغير بشكل رهابي أكثر بكثير من الحشرات الكبيرة كالصراصير...
فيها من الشقاوة ما يجعل كثيراً من تصرفاتها صبيانية تكسر حدود المعقول و تتجاوز الحواجز السخيفة و البروتوكولات المتوارثة, دون أن تسلبها أنوثة تنساب من بين أصابعها و شعرها السبل و غرتها التي تنزل على عينيها فترفعها بيدها في اليوم عشرات المرات في

حركة متكررة تغدو نزقة متسارعة في ساعات التوتر أو الغضب...
لم تكن علا لتعتبر من "متقني الحياة" أو الناجحين فيها حسب المعايير التقليدية التي تحكم البشر, لا تعرف قيادة السيارة, و لا استعمال الحاسوب إلا بنسبة ضئيلة تكفي حاجياتها المتواضعة, أكبر طبخة أنجزتها سندويشة الزعتر, كثيراً ما تكسر أغراضها كالقرطاسية مثلاً و ما يسلم منها غالباً ما تكون نهايته ضائعاً في مكان لا يعلمه إلا الله, تم طردها في الصف العاشر من أحد المدارس بسبب مقلب كانت قد حضرته لأستاذ الرياضيات.
تكره شكل قدميها و تتمنى لو أخذت شكل أنفها من أمها بدلاً عن أبيها, تكره نحفها الشديد و صغر قدّها, تكره الشجارات و كلام البنات و السطحية, و تكره تعامل أهلها معها على أنها طفلتهم المدللة... شيء متوقع من شخص يسعى للتحرر و الخروج من أي إطار سلطوي...
تحب علا تجربة الأمور الجديدة, لا مثل أعلى لها في الحياة إلّا ربما شخصية "إميلي" في الفلم الفرنسي الشهير, تحب تدليل نفسها بين الفينة و الأخرى بالذهاب وحدها لكافيه تجالس كتاباً و فنجان قهوة...
تختلف عن عمر في خلفيتها الاجتماعية بشكل كبير, فمعظم أصدقائها من الشباب, و كان لها حبيب قبل الحبيب المنصرم و ربما قبله واحد آخر, يجمع بينهم صفة واحدة... الغباء لا تتقن انتقاءهم و كلهم دونها في المستوى الاجتماعي الفكري و الثقافي, آخرهم "أيمن" يلبس كالمهرج و ينغاظ عمر من طريقة تعامله معها الذي فيه شيء من الخشونة, يسحبها بإصبعه لتمشي جانبه أثناء تقطيع الشارع بشكل فظ متعجرف, و القديم فيهم لم تره من قبل انطلاق الثورة بأيام طويلة, فتحت حسابه من فترة وجيزة لتكتشف أنه مؤيد للنظام...
في مجتمع تحكمه أمهات تبحث عن القشور, إتقان الطبخ و جمال المظهر و لون الخمار و شلة الأصدقاء و حسن المنطق و اتقان الإتكيت, و آباء يبحثون عن اسم العائلة و السمعة و الشهادة العلمية و الخلفية الاجتماعية و مهنة الأب و مركزه... كانت فرص التقاء عمر بعلا لا تتجاوز الثمانية بالمئة...

و في عائلة شديدة كعائلة عمر, قائمة على خلفية اجتماعية و دينية صارمة تنخفض النسبة إلى ثلاثة بالمئة...
عمر نفسه كان مرناً يهمه اللّب دون الأطراف, إلا أنه كان تقريباً منعدم التجربة قليل الخبرة, محاولات الفتيات في الجامعة التقرب منه كانت تصد بحائط من الأخلاقيات الصارمة, و الالتزام الأعمى.
يحزنه كثيراً أن يبدو لئيماً متعجرفاً, لكنه لم يكن ليستطيع مخالفة مبادئه...
فقضى سنوات الجامعة في نزاع بين أن يكون طيب التعامل مع الجميع و بين أن يترك فاصلاً يحجب عنه ذلك النوع من العلاقات "الحرام".
مظهره الخارجي, مواكبته للموضة إلى حد ما, مزاحه, اجتماعيته, و جنونه أحياناً... كلها معاً لم تكن لتعكس أبداً كونه ملتزم دينياً.. على الأقل حسب نظرة المجتمع العجيبة.
استراتيجيته الخاصة مع البنات جعلته شديد التقنين في الحديث و التواصل مع الجنس الآخر.. استراتيجية كانت غير مفهومة لدى الكثير من البنات بل و حتى لدى أصدقائه المقربين... و كشفت له الأيام فيما بعد أنها كانت خاطئة منغلقة بلا منطق...
مجمل ما سبق جعل المنطق يقول له ألا يكرّر فتح الأحاديث في الغد, إلا أن كلمة "منطق" تصبح بلا منطق في هذه الأمور, المنطق الذي غادر عمر في الأيام التالية...
فعاود فتح الأحاديث معها في اليوم التالي, يتطرق فيها بشكل بسيط إلى النقاشات الدينية, و يتحدثان عن القصص الحياتية اليومية, التفاصيل التي قد تكون مملة في غير تلك الحالة... أين ذهبا, ماذا أكلا, مع من اجتمعا, قصص عن صديقتها المفضلة, مشاكل جامعتها و دراستها, موادها التي رسبت فيها و لم يعلم أحد بعد أنها رسبت فيها, حتى قصص مضر كانت تصل بالتفصيل إليها, حيث يصبح أي حديث ممتعاً...
نقاش فكري يكتشف فيه كم يتشابه اللبّان على اختلاف القشور, تشابه في طريقة التفكير و منطق المحاكمة, حرية الإبداع, التسامح الفكري, سعة الأفق, و تعدد زوايا النظر للأمور..
جمال تذوق كليهما للفن, جعلهما يقضيان طويلاً من الوقت يتشاركان مشاهدة أجمل الصور, تعرض عليه فيديو, يعرض عليها أغنية, ساعات من مشاركة أجمل ما يحب

كليهما.. حتى لو كان رآه من قبل, يراه معها مرة أخرى, و يكتسب العمل الفني طعماً آخراً...
ربما اتفق ذوقيهما في كل شيء, نظراً لاتساع طيف ذوق كل منهما, إلا في حبه لنوع موسيقا و احد و هو "الترانس" و حبها لنوع واحد و هو "الميتال" و مع هذا سمعت معه أغنية ترانس و سمع معها أغنية ميتال... و بطريقة عجيبة تحول صراخ المغني فيها إلى صوت عذب جعله يهز برأسه على ألحانها...
يحدثها عن الطب و هموم الطب, هو يكره الحفظ و معظم الطب حفظ...
تشاركه خبراً يتحدث عن جريمة ارتكبها عناصر من الجيش الحر, يتأسفان لواقع الحال الذي وصلت له البلاد, يحلّلان الوضع يناقشان تفاصيله و عمومياته, تفاجئه بوعي سياسي لا يوحي ظاهرها به...
ناقشا كتاباً كانت قد قرأته من مدة قصيرة...
في النقاش العقلي لا يرى أجمل من العقلانية في جملها, تميز في التفكير بنكهة خاصة, في التسلية لا يجد أطرف من عباراتها, عدم تحميلها للأمور أكثر مما تستحق, في تذوقها للفن يشعر أنه و أخيراً وجد من يسمع جمال الأنغام كما يسمع, أخيراً هناك من يرى الألوان كمان يرى, أخيراً هناك من يفهم الأحاسيس خلف الكلمات كما يفهمها...
تشكو له مللها من دوام الجامعة و ضغوط المشاريع الواجب عليها تسليمها قريباً...
يشرح لها الآلية الهرمونية و دور النواقل الكيميائية و العصبية في السعادة و الرضى, ثم يطلب منها أن تقوم و تحضر كأس حليب ساخن بالشوكولا هدية منه لها بعد أن شرح لها كيف ترفع الشوكولا نسبة السيروتونين في الدماغ, ذاك السيروتونين اللطيف الطيب المحبب الذي يزيد الشعور بالرضى... كوباً تدلل نفسها به, تشربه بهدوء, بسعادة, برمي للهموم كلها... جامعة, مشاريع, أفكار, آلام, حروب, أهل, مشاكل, كلها كلها... و تمتع نفسها لخمس دقائق بذهن صاف لا يعكره حمل ماضٍ و لا هم مستقبل, فقط عيش اللّحظة بأجمل ما فيها, فتطلب منه أن يحضر لنفسه كأساً أيضاً...
شربا الشوكولا معاً و شاهدا فيديوهين مضحكين على النت... خرجا من كل جو كئيب من كل انزعاج و ضحكا... ضحكا حتى سالت دموعها ضحكاً و آلمه بطنه من شدة الضحك,

أنهكهما الضحك... كثيراً ما كان التعب يقتحم جسده مؤخراً, إلا أنه و منذ زمن بعيد لم يقتحمه بسبب الضحك...

تنقضي الساعات كأنها دقائق, يسترق نظرة للساعة فلا يصدق كيف خطفه الوقت, يتحتم عليه الآن أن ينهي الأحاديث قبل أن يستيقظ أبوه للفجر و يرى أنه ما زال مستيقظاً على حاسوبه... يا الله لم تكون اللحظات الجميلة دائماً قصيرة خاطفة؟ عليه أن ينتظر الآن لليوم التالي ليكرر جلسته المحببة...

باتت مجالستها في المساء عادة يومية, يحاول ضميره أن يفاوضه ليتوقف أو يتمهل على الأقل, إلا أنها كانت كالرمال المتحركة كلما قاومها أكثر كلما غرق فيها أكثر, الفرق الوحيد أنه غرق أحبه و أراده... أراده بشدة...

يعدّ ساعات نهاره بفارغ الصبر حتى يحين موعد جلسته تلك, يجالسها من صالونه الصغير المظلم فيحلق منه معها إلى أصقاع الأرض لا يوفقه حائط, لا يمنعه عائق, لا يفتشه حاجز, يطير بلا قيود, يذهب معها إلى مكان أجمل, و أي مكان معها كان أجمل...

بطريقة ما باتت هي القيمة الأهم بل و منها تستمد الأشياء قيمتها, فلا جمال للفيديو إلا إذا شاركه معها, و لا معنى للصورة إلا إذا أرسلها لها, أهمية أي خبر ثوري ينبع من فرحتها به معه...

أحياناً يشاهدان فلماً معاً, و قد أعدا لائحة بأجمل عشر أفلام ليشاهدانهم معاً, علماً أنه كان قد شاهد ستاً منهم من قبل, لكن تلك المشاهدة كانت سخيفة لا طعم لها, طعمها اليوم غير, سيكون طعمها أحلا من السكر و بسمته اليوم لم تكن أعرض من قبل...

في كل مرة يفتح في آخر النهار و يرى أن عنده منها رسالة, يتسارع نبضه حتى يفتحها, و في كل مرة يظهر عنده أنها تكتب أو مجرد أن يكون ينتظر منها رداً يكون في غاية الشوق, يتحرق ليرى منها سطراً أكثر من تحرقه أثناء انتظاره نتيجته في البكلوريا البائسة...

كل ما كان يلزمه حاسوب صغير و أحياناً جهاز الموبايل مع النت, ليحول الصالون القبيح الذي طالما ضرب فيه في صغره إلى جنة لا يسمع فيها عذاباً و لا يذكر فيها ألماً...

كان معها شفافاً, يستطيع الخروج من جسمه, كانا قادرين على الطيران فوق الجبال حيث يبدو العالم صغيراً وديعاً, يشتمان عبق السهول الخضراء الشاسعة, يلامسان مياه بحيرة

بيديهما, حيث كانت المياه هادئة باردة, ثم يذوّبان حفنة ثلج غرفاها من قمة جبل بدفء الشمس على ساحل أحد الجزر, و يستشعران سخونة الرمل و نعومته بأقدامهما و يقفان على الشط طويلاً يشاهدان الغروب...
يمشيان بين الأبنية العالية في أحد مدن الأرض, يمشيان في شوارعها يغنيان يستكشفان ينظران حولهما, و الناس فيها أجانب و غالبهم سياح ملونون متنوعون تجمعهم صفة الطيبة فقط, لا يرمقهما بنظره أحد و لا يستهجن ضحكهما أحد...
ثم يعودان في رحلتهما إلى مدينتهما الجميلة و قد تجاوز الليل منتصفه, مدينتهما التي باتت حزينة, دمشق و ما أحلاها... يطيران عبر سوق الحميدية و قد أغلقت محلاته في وقت باكر, يقطعانه من أوله لآخره حتى يتجاوزا سقفه فيصعدان للسماء, ينطلقان بسرعة كبيرة... يتهربان من قبحهم جميعاً, يتحرران من قيود سجّان ظالم و مجتمع أظلم, يتجولان في الأعلى حيث لا يمسكهما أحد, يلامسان بطن الغيوم, حيث تكون دمشق نائمة أسفلهما و النجوم تبتسم أعلاهما, ثم يهبطان بسقوط حر ليبدآ الطيران قريباً من الأرض و التجول في حاراتها القديمة, يمران بسرعة قرب شجيرة ياسمين فيتناثر خلفهما الزهر, يمزق بيده نعوة و صورة رئيس... ثم يستقران على ظهر الأموي, يرقبان شروق الشمس و قد لونت قبته باللون الذهبي الدافئ, يتأملان ما فيه من شموخ يستهزئ بسجانه, و يتوعده بصمت أنه قريباً لن يدعو لك في بطني شيخ سلطان...

الخامس عشر من أيلول **2012**

كواحدة من الليالي الماضية جلس عمر في كنبته ليتحدث مع علا...
صالون معتم, حاسوب, سماعاته في أذنيه, و كوب شوكولا في يده... كل شيء في تلك الليلة كان لا يجعلها أكثر من ليلة عادية.. إلا أنها لم تكن كذلك...
كان عمر في الأيام الماضية يسأل نفسه عنها, لا تغادر باله لا في ليل و لا في نهار...

كان يريد أن يعرف أو ربما يتأكد... فلربما كان الجواب واضحاً و أبسط بكثير من أن يحتاج لتفسير لكل تلك الأسئلة التي بدأت بلم يخاف عليها إذا خرجت مظاهرة خوفه على أخته؟ و لم يشتعل غيظاً بوجود شاب في دائرة قطرها مئة متر حولها؟ و لم يتحول لأحمق تختنق كلماته في وجودها؟ لم يخرج إلى عالم آخر حين يرى ضحكتها؟ عالم لا صوت فيه إلا صوت ضحكتها و لا لون فيه إلا لون ضحكتها و الغمازات التي تظهر في ضحكتها و شكل عيونها أثناء ضحكتها... لم يكون أسعد ما يكون و أحزن ما يكون في وجودها؟ و لم كانت أجمل ساعات يومه تلك الساعات التي يجالسها؟ و تكتسب كل الفنون معان جديدة حين يشاركها إياها؟ لم يكون معها منتهى العفوية بمنتهى التخطيط و الدهاء في آن معاً؟ لم يسأل نفسه عنها؟...

لا يحتاج كثير من الذكاء ليعرف الجواب على كل تلك الأسئلة التي أخذ يناقش نفسه بها في نوع من التأكد لا أكثر, فلربما هو و في قرارة نفسه كان يعرف أن الجواب عليها واحد و يتلخص بكلمة واحدة...

في تلك الليلة طلبت علا منه الانتظار ريثما تحدث خالتها المغتربة عن طريق "السكايب", و طلبت منه لئلا يشعر بطول الوقت أن يرسم لها شيئاً, فقد كان عمر يعرف لمحة بسيطة عن استعمال بعض برامج التصميم, سألها ماذا تريد أن يرسم لها بالتحديد, فأجابت أنها تريد بالوناً...

في نوع من المزاح استعمل عمر برنامج بسيطاً (الرّسام) و رسم دائرة بسيطة متعرجة بيده, ثم لونها بألوان علم الاستقلال و كتب اسمها بالأحمر بدل النجوم في الوسط... أكمل الشكل إلى منطاد بدل البالون, و أرسل لها رسمته حين عادت...

اعتاد عمر بعدها فعل ذلك كلما تأخرت عليه, أو اضطرت للانشغال بشيء ما, فصار عنده ملف كامل لتلك الرسومات, لم يرسل لعلا منه إلا ذاك المنطاد... و ظل محتفظاً بالملف ليوم ما أو مناسبةٍ ما...

في تلك الليلة كان شيء من السحر و الطمأنينة يتسرب إلى الأحاديث, فهدأت الموسيقا, و قلت مشاهد الفيديو, وكثرت الكلمات...

تحدثا كثيراً عن الذكريات و الأيام الخوالي, أرته كثيراً مما تحب من الأحداث على صفحتها,

و لم تبق صورة و لا سطر في صفحته لم يرها إياه و يروي لها قصته, حتى دخلوا الثلث الأخير من الليل...

خليط من المشاعر الجميلة و الطريفة كانت تسيطر على المحادثة لتجعلها عفوية تسكب عليهم مزيجاً غريباً من الدفء المحلى بالعسل...

شيء أكبر من المصطلحات, ألطف من التعبيرات, كان يصل خلف الكلمات, فهمه كليهما... شيء لا يلزمه خطوط إنترنت ليمر عبرها و لا حتى هواء لينقلها, يعبر الفراغ و ليس بضوء, ينتشر في الأعصاب و ليس بسيالة عصبية, يصرخ بكيان الإنسان و ليس أمواجاً صوتية, دافئ يتغلل أكثر من الحرارة فلا يعزله عازل, مخترق أقوى من الكهرباء و لا يحتاج لناقل, تتقن الأرواح الكلام به و ليس بأبجدية, أعقد من كل العلوم و يفهمه أبسط إنسان إذا ما لامس قلبه... و كون الصورة كانت أوضح من أن يشرحها راسمها بالكلمات, و كونهما عرفا الأمر في قرارة نفسيهما معرفتيهما لنفسيهما, لم ينمق كلامه و لم يحتار في طرقه, و لم يتجاوز أسلوبه في حيلته أسلوب مراهق خانته الكلمات فأنجدته الإحساسات...

- ...و في لبي أشبهها كما لا أشبه أحد, في خارجي أختلف عنها اختلافاً كبيراً, بطريقة تكملني و تجعلني أنسحر بها...

- الاختلاف جميل, و ليس من المفروض على البشر أن يشبهوا بعضهم ليحبوا بعضهم...

- لا أعرف ما الذي يمنعني؟ ربما أخشى التسرع, و أخشى أن أخسرها كصديق...

- هناك نسبة مخاطرة في كل عمل, و لو أردنا أن نستعمل العقل في كل شيء, لما قمنا بشيء...

- ماذا لو كانت لا تبادلني المشاعر؟

- لا أظن, و لن تعرف دون أن تجرب...

- ربما ما زال الوقت مبكراً... فلأنتظر قليلاً

- ربما ليس كذلك...

- لكن ظروفنا صعبة يا علا, أختلف عنها بكل مقاييس المجتمع, سنتعذب كثيراً, و الله أنا خائف, خائف جداً... العقل و المنطق يقول لي بكل بساطة و وضوح ألّا أفعل...

حينها أرسلت له علا رابط الصورة التي كان قد رسمها من قبل و وضعها على صفحته,

صورة الرجل القافز من حافة الجبل بشكل حر في الهواء, بشكل جنوني غير آبه بالمخاطر و لا يمت للعقل بصلة...

- لطالما قلت لي يا عمر أن حلمك أن تفعل فعلته...

- و هل حان الوقت برأيك؟

- نعم...

باستجماع لكل شجاعة في نفسه, و باعتصار لكل نقطة جنون في أصغر خلية في جسده, و بترقب الرّاهِن لكل أموال عمره على حصان في مضمار سباق لا يملك أي فكرة كم هو احتمال أن يخذله أم لا, و بخوف الغريق أن يفقد طوق نجاته, و بشعور الخدر الذي ينتاب الثمانية لحظة الاقتراب و أخيراً من وهج العشرة... أطلق العنان لنفسه, و فتح بوابات السد أمام نهر مشاعره, فانفجر الشلال يجرفه بقوة يستحيل معها أن يقاومه أو أن يعيده و يعكس حركته... ربما تعثرت أصابعه بالكتابة للحظة حين صرخ به عقله أن تمهل لم التسرع؟! انتظر اسبوعاً أو اثنين, انتظر حتى تضمن أن تبادلك المشاعر, لكن عقله كان قد تأخر بصراخه هذا كثيراً...

بلهجة المشتاق الضائع, بلهجة المتناسي لمفاهيم صون صورة الذات المعقدة رمى بنفسه من الحافة و قال لها...

" يا ويلي.. يا ويلي.. يا ويلي.. كم أحبك..."

دقيقة صمت حلت في عقله بعد ضغطه زر الإرسال, يتأمل فيما كتب لها بعيون شاخصة, يكاد لا يصدق فعلته, نبضه يتسارع, أصابعه الباردة ترتجف على لوحة المفاتيح, دقائق ينتظر فيها الرد, ربما محت فيها الرد مرة أو اثنتين.. تلك الدقائق مرت عليه ساعات...

كل ما كان يتمناه و يتوقعه:

"أنا أيضاً"

أما ما حصل عليه فهو:

- أنا؟!... **me ?!** (بالإنكليزية) **moi?** (بالفرنسية)

و أكثرت بعدها وضع إشارات الاستفهام و التعجب و رسم وجوه التفاجؤ...

كالذي ضرب على وجهه صفعة أفاقته من سكرته, ارتبك لوهلة ثم راح يسألها؟...

- حقاً؟! أتمزحين؟ و من سيكون غيرك؟ أحقاً لم تشعري؟...
خجلة من مزحتها التي كانت نتيجة ارتباكها من ذاك الموقف...
- بلا! بلا, طبعا شعرت, آسفة... كنت أمزح, آسفة.. سماجة مزحتي كانت نتيجة ارتباكي, تفاجئي و عدم معرفتي لما أقول في هذا الموقف...

استبدلت توقعاته و تمنياته بتلك المزحة و التي تلاها استعراض من قبل علا للصعوبات, ثم نقاشات قصيرة افتتحت بالدينية و لم تنته بالاجتماعية, لكن ضيق الوقت جعلهما يختصران الكلام يقطعانه و يؤجلان التتمة للغد...
إلّا أن عدم قدرته على التحمل جعله يفتح النت مرة أخرى من هاتفه مختبئاً من أهله في سريره, يستفهم عن سبب ردّة فعلها بطريقة غير مباشرة و يسمع منها عن الاختلاف في "المعتقدات "... طلعت الشمس و هم على حالهم تلك, دون أن تصل إليه صورة واضحة, بل ازدادت الصورة إرباكاً و تشوشاً... فغادرا النت و بقيت تتمة الحديث تنتظر يومهم التالي...

السادس عشر من أيلول 2012

في هذا اليوم كان دماغ عمر الذي لم ينم إلا ساعة و نصف الساعة قبل الذهاب إلى دوامه بالمشفى, لا يستطيع أن يخرج من إطار التفكير في سبب تناولها للصعوبات و الاختلافات الدينية و الاجتماعية فور تصريحه لها عن مشاعره, هل كانت فعلاً متخوفة و تريد أن

تضعه في الصورة, أم أنها مجرد حجة للرفض المهذب؟
فهل يختلفان لهذه الدرجة؟ و هل الاختلاف في طريقة التفكير عائق لا يمكن تجاوزه؟
إذا كان المختلفون حتى في المذهب أو الديانة لا يجدون في ذلك مشكلة...
انتهز اول فرصة للخروج دون أن ينتبه دكتوره, و غادر المشفى ليقابل صديقه خالد الذي كان على موعد مسبق معه...
لم يكن بإمكان عمر التركيز على أي مما يقوله خالد, و اضطر ليبدي حجته في ظل عدم تركيزه معه ونظراً أنه لا يستطيع التفكير بشيء آخر, أن يروي لخالد قصته بشكل موجز, في محاولة ليسمع نفسه بصوت عال...
صار خالد يبدي رأيه بالموضوع و ينصحه و يوجهه, لكن عمر لم يكن يسمعه, لا شيء يستطيع الدخول إلى دماغه المشغول, الذي لم يحظ بلحظة راحة و لم يلحظ حتى أنه جائع و قضى عمر النهار كله دون أن يتناول لقمة طعام...
كان عمر يتحين لحظة دخوله البيت ليشغل حاسوبه و يحدثها...
انتظرها حتى فتحت, و أخذ يستفهم منها عما تقصده من الاختلاف الديني...
هل فقدت إيمانها بالدين؟ طيب فليتحاورا, فلتفهمه بما تشعر.. قد يكون أكثر من يفهمها كونه يمر بتجربة تدفعه للتساؤل و التبحر...
أخذ يطمئنها أن الشك حقها, و أن هناك ما يرد على تساؤلاتها... لربما أفقدها إيمانها كثرة أخطاء المتديّنين...
- لا يا عمر... عندي أصدقاء ملحدون و أصدقاء مؤمنون متدينون و في كليهما السيء و الحسن...
لدى عمر صديق أو اثنين ممن اختاروا الإلحاد... على الأقل هذا ما يعرفه, و ليسوا بمقربين أصلاً, فلم يكن يألف وجود شخص ملحد في حياته أو بين أصدقائه... لكنه حاول أن يكون متفهماً قدر الإمكان...
- طيب حدثيني عن انتقادك للدين, قولي لي, دعينا نفكر معاً...
- لن يعجبك ما أعتقد به...
- لست من نوع الأشخاص الذين يحكمون على الناس من معتقداتهم, أنا نفسي مررت

بحالة شك و رحلة تفكر و عصفت بي الأسئلة, وجدت أجوبة لبعضها و لبعضها ما زلت أبحث, لكنها لم تعد تخيفني و لم تدفعني لنقد الدين كله, ثم إننا معتدلان كلٌّ في وسطه...

- ماذا تقصد بمعتدلين كل في وسطه؟

- أنا شخص منفتح متقبل, و معتدل بين المتدينين و أقبل الآخر, و أنت شخص متقبل أيضاً, و معتدلة في وسطك و من يفكر مثلك...

- كيف عرفت هذا؟

- بنت خالتك وضعت عبارة تسخر من أداء الصلاة, أنت لا تفعلين شيئاً كهذا...

شيء من انزعاج انتاب علا التي كانت تحب ابنة خالتها كثيراً, و لم تشأ أن ينظر لها بطريقة تنتقص منها...

- ابنة خالتي صغيرة تمزح كثيراً, مجنونة لا تحسب ما تقول, و لا تقيس ما تفعل, لا أحب أن تحاسب و تحمّل فوق طاقتها, النت لا ينقل الواقع بأمانة, فما أدراك لعلّي أكون أبعد منها عما تؤمن أنت به؟ و لعلها تكون مزحة من قبلها...

- إذاً, أخبريني, حدثيني و لنتناقش, صدّقيني لا شيء فوق النقاش و ليس في الدين ما يخبّئه... فلنبدأ اليوم و لتكن رحلة النقاش و الحديث تلك طويلة, أحدثك بما أشعر, تحدثيني بما تشعرين, و نبحث عن الأجوبة معاً...

- طيب, انتظر حتى أصيغ لك بعض الأسئلة, ثوان فقط...

- قبل أن تذهبي, أخبريني هل تصلين و تصومين؟

- أصلي: لا, أصوم: الحقيقة أني لا آكل في النهار الرمضاني.. أخاف أن يحزن أهلي من ألّا أشاركهم معتقداتهم... فأفعل ما يحبون أمامهم و أخبّئ عنهم ما يجول في رأسي خوفاً من كسر خواطرهم, و خاصة أمي... فهم لن يفهموا يوماً ما أفكر فيه...

- لا تشاركينهم معتقداتهم؟ أي لست تؤمنين بالدين؟

- لا...

ربما كانت كلمة صغيرة, إلا أنّ وقعها على عمر كان ثقيلاً للغاية, الغريب في الأمر أنه كان يشعر بذلك و يتوقعه, لكن النفس أحياناً تمني نفسها بالأمل بشكل غير منطقي, كالسجين

الذي يقاد إلى غرفة الإعدام و ما زالت نفسه تقول له أن شيئاً سحريّاً سيحدث و سينقذك في آخر لحظة...

حاول عمر ألا يظهر خوفه من تلك الكلمة, و أن يبدي تفهمه الكامل لها...

- مررت بشيء قريب مما تشعرين يا علا, لكني أجد لكل سؤال جواب و لا أجد حتى في أسئلتي الغريبة مهما كبرت ما يستحق أن أترك الدين ككل من أجله... على كل تعالي نناقش بهدوء اعتراضاتك الأساسية على الدين.. الخطوط العريضة و ليس التفاصيل... دقيقتين أو ثلاث لزمت علا لتصيغ أسئلتها التي أرسلتها دفعة واحدة

- عمر.. لم قد ينزل الله العديد من الأديان و ينقسم الناس وفقها و تشتعل بينهم الحروب الطاحنة على مر السنين كل لإعلاء كلمة دينه؟ لم قد يقسم الله خلقه؟ لم قد يحرم الزواج بين الناس من الأديان المختلفة؟

إذا كان الإسلام بالخاصة و الأديان عموماً من الله فلم يرتبط إذاً انتشارها بالجغرافية؟ و لم ينزل بلغة قوم و بأرضهم و حسب ثقافتهم ثم يقوم بمحاسبة الجميع على حد سواء و يطلب منهم أن يتبعوه... و إن كان الإسلام هو الصحيح فإن أقل من سدس أهل الأرض ممن سمحت لهم ظروف الجغرافية و غيرها أن يسلموا فقط هم في الجنة و البقية الباقية مصيرهم إلى نيران الله الرحيم بعبيده... و لم يحتاج الله لينشر دينه للسيوف و "الفتوحات"؟ و لم قد يأمر الله بقتل من ارتد عن دينه؟ إن كان هو لا يسلب حياة من كفر به...

لم قد يهتم إله الأكوان بالتفاصيل الدقيقة في حياتي أنا الكائن الضعيف؟ لم قد يهتم بصلاتي بل و بأي يد أتناول الطعام و بأي رجل أدخل الحمام؟... و لم قد يختص الله شخصاً دون البشر فيعطيه العصمة عن الخطأ ليوكل له مهمة إيصال هذه الأوامر لنا ثم يكون شخصاً مقدساً منزهاً عن كل خطأ و بيده سلطة التشريع الذي يودي للجنة أو النار...

كيف يكون الله حسب الأديان سميعاً قريباً و يكون عظيماً و قادراً على كل شيء و هو أيضاً ودود رحيم ثم تعاني الشعوب و ذلك رغم دعواتها و استرحامها له ما نعانيه؟

لم قد يحرق الرب الرحيم خلقه لأنهم فعلوا أشياء هو من خلقها لهم؟

قد أختلف مع مؤمن بالرأي.. فتكون نتيجة هذا أن أخلد في نار جهنم لقرون و قرون و

قرون لأني وصلت حسب المعطيات التي فهمتها إلى نتيجة لا ترضي الرب الرحيم...
يغفر الله حسب الدين كل شيء إلا الشرك, طيب لم؟ هل الشرك أعظم من القتل؟ هل من المنطق أن نحاسب على فكرة في رؤوسنا أكثر مما نحاسب على إجرامنا؟
لم يطلب الله مني أن أغطي شعري و لا يطلب منك ذلك؟
إن كان الإسلام دين يصلح الفرد و المجتمع, فلم كانت التجربة الناجحة محصورة في سنوات قليلة, ثم لم يثبت نجاحه في انتشال أمة و إيقافها على قدميها و جعلها تنافس الأمم, و كانت أمتنا لعقود هي الأفشل على الإطلاق في معظم المجالات... فهل هو حقاً فلسفة تلبي حاجة الإنسان و تصلحه؟
لِمَ لم تذكر ديانة واحدة شيئاً عن الديناصورات التي كانت تحت الأرض في ذاك الوقت و لم ينطق بها أحد حتى اكتشفها العلماء, أقصد لِمَ لم تذكر ديانة واحدة إلا ما تراه عيون دعاتها, و كانت محصورة في زمان و مكان لا تصلح لغيرهما؟ فيما تحدثت قصصاً و قصص بالتفصيل عن نملة تحدث سليمان من تحت الأرض, و عن ملائكة تغطي بأجنحتها العظيمة نور الشمس...
ثم جاءت له ببعض الأمثلة عن تعارض العلم مع الدين, و غيرها و غيرها من الأسئلة التي انهالت فيها علا على عمر لأكثر من عشر دقائق...
و على الرغم من أنها أشعرته بشيء من فقدان الأمان كرجل سحب من تحته لوح خشبي كان يحمله فوق هاوية ساحقة و لم يبق له إلا يديه العاريتين لتمنعه من السقوط, إلا أن الشعور الذي سيطر عليه كان في المجمل الدهشة, و ذلك ليس لقسوة الأسئلة أبداً بل كان مدهوشاً بذكاء الفتاة السائلة, ما صدر بكل عفوية عن تلك الفتاة الصغيرة الحجم جميلة الوجه كان أسئلة فلسفية ضخمة قد تحير المفكرين, لقد كانت في عشر الدقائق تلك صوت عمر العالي الذي كان معظم الوقت يبقيه منخفضاً يهمس به لنفسه, حتى أن بعض الأسئلة صاغتها بنفس الحرفية التي مرت برأسه يوماً...
حاول عمر الإجابة بترو و أن يصيغ بعض الأجوبة الصغيرة لكن كان واضحاً له أنه لن يستطيع ببساطة الإجابة عن أسئلتها على النت, فأسئلتها تلك تحتاج كتباً و مجلدات, و هي أكبر من أن يجيب عليها برسالة و لا حتى عشرات الرسائل... و من ثم فإن عمر لم

يكن يملك رؤية كافية ليجيبها, و ما قاله لها كان قاصراً جداً و ضيق الرؤية عما وصل إليه فيما بعد... و لم يكن يعرف في ذاك الوقت أن أجوبته كانت لتكون أوضح و أكثر عمقاً مع تطور فهمه لله و الدين...

- علا, ليسوا أدياناً هم دين واحد... أصلهم واحد, محتواهم واحد, و هل هناك دين يسمح بالقتل أو الزنى أو السرقة أو إيذاء الناس؟ هل هناك دين يجيز ما يخالف الفطرة البشرية الطبيعية؟ جميعهم يدعون لعبادة القوة الواحدة التي خلقت الأكوان و هي المسؤولة عنه, هم دين واحد نزل على دفعات فيما يتناسب و تطور البشرية و لذلك اختلفت التفاصيل, اختلفت لتناسب المرحلة التي وصل إليها الإنسان من التطور, و على كل سنتحدث لاحقاً بموضوع التفاصيل و سأذكر لك بعض الأحاديث التي توضح عدم أهمية الخوض فيها, أما قتال البشر بعضهم بعضاً حسب الأديان, فإني أرى في ذلك ظلماً للأديان, فالبشر بطبيعتهم يحبون التجمع حول هوية يتعصبون لها و يقاتلون باسمها, و لو لم يكن الدين لكان شيئاً آخر كالقومية أو العرق و حتى القبيلة, و التاريخ بما فيه من حروب قائمة على هذه الأسس يدل على صحة ما أقول... الأديان لم تقسم الناس فالأديان واحد, الناس قسموا أنفسهم بنسخ محرفة حسب أهوائهم من الدين. فالاختلاف في الدين صنيعة البشر الذين يحبون التعصب و اتباع شيوخ أو أسياد أو قساوسة يحتكرون الدين كسلطة بين أيديهم...

بالنسبة لارتباط الدين بانتشار جغرافي أظن أن وحدة الأديان في الأصل و الهدف يجاوب على هذا الموضوع, فبما أني لا أرى اختلافاً جوهريّاً بينها فالأديان و التي هي دين واحد إنما تعم الأرض كلها...

انتشار الدين بالسيف, قضية أفكر فيها كثيراً, سألت عنها عدداً من الشيوخ أو علماء الدين و سأظل أسأل, مرة سألت شيخاً قلت له "إن كان هناك مواقع تواصل اجتماعي في ذاك الزمن فهل كانت الفتوحات شيئاً صائباً ؟" أجابني بـ "لا طبعاً", سألته إن كانت جميع الفتوح صائبة فأجابني أن الفتوح الصائبة ذهب ضحيتها عشرات فقط.. و أن هناك حروب سميت باسم الفتوحات و كانت في الحقيقة خاطئة و صارت باسم الدين لكنها كانت لتوسيع امبراطوريات و تقويتها كما صار في كثير من عهد الأمويين و من تلاهم, و

بصورة عامة سأظل أسأل و أبحث في الموضوع, و لن أريح بالي من موضوع كهذا...
التشريع الذي تأتي به الأديان ما هو إلا لتنظيم حياة الفرد بما يخدم مصلحته و مصلحة المجتمع, و الدين يسر سهل لا يأتيه التعسير إلا ممن يحتكرونه على أنهم شيوخه...
المفروض بالدين أن يحرر الإنسان من عبادة أي إنسان أو شيء دنيوي إلى عبادة إله واحد, عبادتك له تكون بالإحسان للبشرية و إعمار الأرض...

و ظل عمر لأكثر من نصف ساعة على حاله تلك يتناول معها النقاط واحدة تلو الأخرى ليرد عليها بأجوبة يزعجه ضعفها, عدم كفايتها و قابليتها للنقد حتى أنها غير قادرة على إقناع صاحبها نفسه بشكل كامل...
إلا أنه كان صادقاً معها يصارحها بكون الأسئلة محيرة و أن جوابه لكل منها غير كاف, كما أنه باح لها بإعجابه بكونها طرحت تلك الأسئلة...
بنصف نية صادقة واضح المعالم له تماماً يتلخص في أن النقاش يحتاج أن يكون وجهاً لوجه, و بنصف آخر أغرقه مد الحب فلم تبدو له معالمه بوضوح, سألها إن كان بإمكانها رؤيته في اليوم التالي في مكان ما يناقشان المسائل تلك بهدوء... فلم تمانع و تركت له أمر اختيار المكان و الزمان, و تودعا إلى لقاء في صباح الغد...

في تلك الليلة داهمت عمر حمى الأفكار, تشاركه السرير و تقلبه كما تقلب قطعة اللحم في المقلاة, يمزقه خوف حزين و حب صادق...
لم تكن يوماً تلك الأسئلة خطرة هكذا... مخيفة هكذا, أسئلة يرجوها أن تبتعد أن اتركيني أسترق دقائق نوم, دقائق فقط يرتاح فيها دماغ أنهكه التفكير و غزاه الحب... و هل هناك أعنف من الحب مرضاً يفتك بالدماغ و يوهن الجسد و يحرق الروح؟
بسذاجة ممزوجة بصدق يدعو ربه أن يهديها ألّا يتركها تضل السبيل, يصارع عواصفاً في رأسه كقشة تكافح للبقاء على السطح في بحر تتلاطم أمواجه...
كيف؟... كيف اكتسبت التساؤلات القديمة تلك جدية مصيرية؟ لم يشعر أن عليه اختيار طريق ما الآن؟ و كيف صار هو بتلك البساطة؟ يدعو الله أن يهديها! فما الهداية و ما

الضلال؟ و هل عليه أن يشفق عليها أم على نفسه؟.. أين الصواب؟ أين؟!
أيخشى عليها من نار الآخرة؟ أم هو غرور التملك و الرغبة في تطابق الأفكار؟...
إذا ما غط لدقائق في نوم سطحي يصحو فوراً مذعوراً غارقاً في عرقه يهلوس و لسانه يدعو لها و لمحمد... أن يا رب لا تضيعها, يا رب بما فيها من خير نادها و دلّها بك عليك... نادها يا حنّان
يا رب أسكن قلب محمد, يا رب أنر عتمته, و اقطع يداً تمد إليه بسوء.
يا رب وحدتي تنادي وحدته, يا رب ضعفي كان يستقوي بضعفه, يا الله يا أنيس المستوحشين, يا رب كلانا يحتاجك فلا تتركنا...
يا حبيبي... بحبي لك, لا تضيع حبي لك هباءً... كن موجوداً... كن موجوداً!!
يا رب إن كنت موجوداً فلا تتركني, دلّني للصواب, لا تترك محمد, لا تتركها يا رب...
يا ربي!... يا شراعي و مرساتي.. يا جذري و أغصاني... يا دفء قلبي و عالماً بأحزاني..
لا تخذلني, لا تتركني لعواصف ضعفي...
فوحدك تعلم!.. وحدك تعلم!...
اعتاد عمر غرابة دماغه الذي يقفز فجأة لفكرة جديدة لا يعرف من أين أتت, إلا أنه و مع قوله جملته الأخيرة, مر به طيف جدّه المتوفى من سنين, طيف أقرب للحقيقة حتى اشتم رائحة القهوة في يده, شعر جملته مألوفة جداً بل و سمعها بصوت جده, ربما كانت جملة كرّرها أمامه في صغره, أو ربما كان دماغه يهذي من شدة التعب, بكل الأحوال أضفى طيف جده شيئاً من سكينة على قلبه...
و ظل عمر على تلك الحال حتى بدأت خيوط الشمس تتسلّل من شرفته لتصل جبينه, فانشقت أجفانه لتحملق عيونه في عيون الشمس بجسد مرخي و دماغ مستسلم أطفأه الإنهاك, كورشة قطعت عنها الكهرباء للتو فخمدت فيها أصوات المحركات...
حمل نفسه من السرير ليبدأ يوماً لم يكن له معنى و لم يكترث لحدث فيه, إلى أن رآها...
كان قد حضر بعض المواضيع في الطريق إليها, بعض الحجج, آراء عما تحدثوا بالأمس, أفكار و مقترحات لتسويات فكرية, كثير من الكلام و الأحاديث تدور في رأسه و يتمتم بها لسانه محضراً نفسه...

مزيج من ضجيج الأفكار و دفعات الأدرينالين المنطلقة بين الفينة و الأخرى كلما تذكر حقيقة أنه ذاهب ليقابلها...

كل ذلك هدأ فجأة, كعاصفة تلاشت غيومها و سكتت رياحها لحظة رأى وجهها... فطار كل الكلام من رأسه و عن لسانه... وجه فتاة مشككة بالدين فيه نور الجامع و رهبة الكنيسة...

دخلا قهوة في المجمع التجاري في كفرسوسة, طلبا شراباً بارداً بالشوكولا, و جلسا لأحاديثهما...

عادة كان هو من يتحدث في المجالس, إلا أنه بادئ الأمر و ربما بسبب الدخان في القهوة, قلة النوم, التعب الذهني و هي... كان يجلس كالسكران ينظر إليها و هي تتحدث, بابتسامة اعتلت وجهه لا يقطعها إلا الضحك في بعض الأحيان...

أحياناً يكون الاقتراب من سجانك, معذبك, مالك أمرك القادر على إنزال جميع أنواع العقاب فيك, يكون فيه بطريقة غريبة نوع من الشعور بالأمان... ربما لأنك بالبقاء قربه تستشعر ما فيه من بقايا إنسانية و تحاول إشعاره بإنسانيتك في طلب للرحمة غير مقصود, و ربما لأن ما تبنيه في مخيلتك من تصور له و ما يحضر لك من عذاب قد يكون أكبر مما هو في الواقع, و أن أكثر ما تخافه و هو أن يمسك بك سجانك, قد حدث بالفعل فلم يبقى ما تخافه بعد الآن... على كل قد تكون هذه النظرية صحيحة و قد تكون منتهى السذاجة, و قد لا تصلح للتعميم, لكن على الأقل كانت صالحة في حالة عمر تلك...

كمتسول أكل البرد عظمه سنين طويلة كان جالساً قرب ناره, تغمره السعادة و تسرقه سكرة غريبة من النشوة و الاستمتاع بالوقت, لا يخاف أشد أفكارها الإلحادية تطرفاً و لا يستنكر أكثر أفعال ماضيها غرابة إذ تحدثه بماضيها و تذكر تجاربها أمامه.

كانت السبع و العشرون دقيقة الأولى كافية لينسى ما أصابه في ليلته تلك و ما قبل ليلته تلك...

الصدق كان سمة الحديث, اتفقوا ضمناً عليه بلا وعي أو كلام, ثم و في وقت لاحق ذاك اليوم أعادوا الاتفاق بوعي و توثيق بالكلام, ليكون الصدق سيد كلامهما مع بعضهما...

رويداً رويداً و من دون قصد أخذت حوارات الدين و المعتقدات تدخل مواضيع الكلام

بهدوء بعد أن سيطرت الراحة و الطبيعية على الحديث.
لم يكن هناك شيء من التشنج الذي كان يتوقعه في حديث كهذا.
قفزا بين حديث و آخر لا يربط بينها الكثير, لكن معظمها كانت تعريفية بطريقة أو بأخرى, يعرفها بعض صفاته, تعرفه وضعها و نشأتها... قصص من الماضي أو عن الأهل تصلح كأمثلة تعطي صورة عنها أكثر من الكلام المجرد...
- أبي لا يصلي إلا صلاة الجمعة, أمي تصلي لا تقطع فرضاً...
- أنت لم لا تصلين؟
- لا أستطيع أبداً القيام بشيء لا أقتنع به...
عندي خال ملحد, و آخر سلفي تكاد لحيته تصل سرته, أحب الثاني أكثر من الأول, قريب لقلبي و هو يحبني كذلك كثيراً, أولاد خالاتي و أخوالي كثير منهم قرروا الإلحاد...
- الأمر سار في العائلة..
ضحكت ثم أكملت...
- تقبلنا لبعضنا جميل فلا يضيق السلفي أو المتدين على غير المؤمنين, و جميعهم بالمقابل يحترم معتقداته.
سمعت ابن خالتي الملحد يحدث ابن خالي عن صعوبة اتخاذ القرار, و الشعور بالتعب النفسي الشديد في الشهور الأولى بعد اتخاذه, أن يكونوا ملحدين لم يكن قراراً سهلاً على أحد منهم...
- هل كل أولاد أخوالك و خالاتك ملحدين؟
- لا, أربعة منهم فقط ... بشكل رسمي واضح على الأقل... و الباقي يصلون و يصومون...
- هل أنت ملحدة؟
- لا, أنا أؤمن بالله.
- كيف آمنت به؟
- شعرت به, لم أستطع إنكاره, أشعر به, بوجوده, شيء ما في داخلي لا يمكن تجاهله...
- إذاً من أنت؟
- أنا علا... بلا تصنيف....

أؤمن بالله, لكنّي أظن أن الأديان جاءت لاستغلال وجود الله و شعورنا به و حاجتنا لوجوده, لبناء سلطان و تبعية و امبراطوريات...
كنت لا أعرف أن هناك تصنيفاً لمن حاله هكذا, لكن بعد أن بحت بما أفكر لابنة خالتي فتحت لي موقع "الويكيبيديا" على النت و طلبت مني القراءة لأكتشف أن هناك تياراً فكرياً كاملاً يؤمن بالذي أؤمن به يدعى " اللا دينية"...
- كيف توصلت إلى اتخاذك القرار بأن تكوني لا دينية؟
- أيام و أشهر من التفكير, لا أنام ليلها و أقضي نهارها أمشي في الشوارع باكية أبحث عن الحقيقة, لا يهدأ تفكيري.
- هل يمكن أن تعودي بقرارك هذا يوماً؟ و هل يمكن أن تفكري من جديد بتلك الأمور بعد اتخاذك القرار؟
- طبعاً!! هو ليس بالقرار القطعي.. هي رحلة بحث لا تنتهي, أنا أفكر في هذا الموضوع كل يوم.
في تلك الأثناء دخلت الكافيه فتاة محجبة تلبس المانطو و النقاب يغطي وجهها.
أشار عمر للفتاة الداخلة و سأل علا...
- ما نظرتك تجاه هذا الصنف من الناس؟
- عمر... لا أحكم على أحد من مظهره, أتقبل الجميع كما هم, كلٌّ له ظروفه في الحياة صنعته بما هو عليه, لدي صديقات مثلها, و الثورة جمعتنا مع كل أصناف الناس نعمل معاً...
- ربما هم يحكمون عليك, و ينظرون إليك على أنك ضالة, و يحكمون علينا بالضلال لجلستنا هذه.
- و لربما نحن نحكم عليهم بأنهم يحكمون علينا...
خالي السلفي يحبني كما أنا و أنا أحبه كما هو.
ابتسم عمر و أومأ برأسه معبراً عن رضاه عن جوابها و موافقته له.
قبل أن ينهضا لاحظ تلوث مريوله الجالس بينهما بشراب أحدهما, فصبغ ببقع من الشوكولا لم تفلح محاولتهما مسحها بالمناديل من تخفيف أثرها...

خرجا من الكافيه ليتابعا حديثهما أثناء المشي, تناولا بالنقاش بعض النقاط التي كانت قد أثارتها على النت بالأمس, و تناقشا أيضاً عن العدل الإلهي الموصوف في الأديان, و رغم عدم إقناع أحدهما للآخر خصوصاً أنها كانت مرحلة من النقاش يفيض فيها كل بما عنده, إلا أن الحديث اكتسب سماحة و درجة عالية من الراحة و الرقي.

طال الحديث كثيراً كما طال معه المشوار, و على الرغم من اهتمام عمر بتوضيح وجهة نظره إلا أنه كان مستمتعاً للغاية و استطاع التطور في سويعات قليلة من فكرة أنه يريد أن "يهديها" إلى فكرة النقاش القابل للأخذ و الرد...

يقطع الحديث بين الفينة و الأخرى بأحاديث عفوية تحلي مرّ الحياة, طُرفات طفولية, و نكات خفيفة...

تمر قطة فتتوقف لحظة لتداعبها و تروي لعمر عن حبها للقطط و الحيوانات بصورة عامة, تحكي له عن قطة ربتها في بنايتهم في صغرها دون علم أمها.

يحب كيف تجمع فتاة بين حب الحياة, حس تذوق الجمال, القدرة على الاستمتاع بصغائر الأمور و تقدير التسلية, و الفكر العميق, الوعي, الثقافة الراقية, و سمو الأهداف في الحياة, قلة من البشر من هم كذلك.

كانت كمرساة ضخمة هائلة تشد مركباً مثقوباً إلى قاع حبها, فلا يعود له القدرة على المقاومة...

الحديث معها كقهوته الصباحية التي يعشقها, مرارة خفيفة يولدها الاختلاف الديني الفكري لا تمنعه أن يدمنها, مرارة يكسرها كثير من السكر تتجلى حلاوته في خفة ظلها و عفويتها...

يمران أمام حاجز نظامي قد أسدل العلم بحيث يسد طريقهم, العلم الذي بات يحسب على النظام و قد رسمت في منتصفه صورة الرئيس, فتقتحمه برأسها و تلطمه بكلتي يديها, بحركة طفولية مضحكة جريئة جعلت عمر يلتفت ليتأكد أنه لم ينتبه إليهم أحد من العساكر.

مرا قرب مجموعة من الشباب رمقوها بنظرات رخيصة, تأخر عمر عنها ليتركها تمشي أمامه و ضربت عيونه عيونهم بشرر غضب و نيران غيظ و نظرات كادت تلتهمهم,

تمضغهم ثم تبصقهم في حاوية مجاورة.
يمشي حولها, تارة عن يمينها أو أمامها و تارة عن شمالها أو خلفها, يعادي نصف الذكور المارّين في الطّريق كالطفل الساذج البدائي الذي لم يتجاوز في نضجه غرائز الاستملاك.
كان مسروراً بشعوره أنها تستمتع بوقتها معه, تضحك من قلبها تتصرف على طبيعتها, لا تغادر البسمة وجهها.
قرأ في عيونها و في حركتها أثناء مشيها قربه السعادة و التسلية, تصر أن تحمل له مريوله, و رغم خجله بادئ الأمر إلا أنه كان غاية في الفرح بتلك الإشارات الصغيرة.

مرّا جانب محل مكسرات كان البائع يخرج لتوه الفستق من المحمصة فتوقفت لتشتري منه.
أخذت نصف كيلو و بعد خروجها قالت..
- أخذته لأمي تحبه كثيراً, ستسعد به ساخناً.
- معها حق, أنا أحبه أيضاً, كنت أشتريه فور خروجي من المدرسة كل يوم.
ففتحت له الكيس و أصرّت أن يأخذ منه.
أحبّ عمر فعلها ذلك, قليل من الناس من يتذكر أهله وقت تسليته, من يكون فيه خير لأهله شخص طيب فيه خير للناس أجمع.
- جميل أن تتذكري أمك بكيس فستق, لفتة لطيفة.
ساعات من المشي المتواصل في أرجاء دمشق و شوارعها, و لم يصبهم تعب و لم ينقطع النقاش و لم تنفذ الأحاديث, يصلان بيتها ثم يمشيان مبتعدين عنه أكثر من مرة, و في كل مرة يقولان هذه أخر مرة, إلى أن تودعا في الأخير بعد أن أوصلها لباب البيت.
ثم عاد لبيته مشياً يستعيد بذاكرته كل لحظة و كل حركة, يراجع كل نكتة و مزحة فيمشي مبتسماً شارد الذهن.
ينظر في الأزواج على الطريق, يبحث عمّن يشبههم, عندما يرى رجلاً يمشي مع امرأة طريقة لبسها متحررة إلى حد ما, يلتصق نظره بهم, يقول لنفسه هكذا سنبدو, ترى هل هذا ممكن؟... هل بإمكاني العيش معها؟
في طريقه للبيت يومها ابتسم و تجهّم بالتناوب عشرات المرات.

و في منزله ظلّ يراجع أحداث النهار في رأسه و يسأل نفسه السؤال ذاته مرات و مرات.
كان الوقت قد تجاوز العصر و دخل المغرب و فيما كان في بيته يفكّر في سريره كانت علا تفعل الشيء نفسه مستلقية في غرفتها و عيونها تحملق في سقف الغرفة و تقول لنفسها...
"تسليت كثيراً اليوم, استمتعت معه حقاً, لكن ربما صعبة هي ظروفنا و قليلة هي فرص توافقنا..."
معرفتها أن عمر ليس كغيره, وضوح جدّيّته, خوفها من اندفاعه و قابليته للتعلّق, و كونه ليس بالشخص الذي يتسلى كصديق لأيام محدودة, يعيشها كما هي دون عواقب ثم يمضي بسلام... كل ذلك جعلها حذرة, تسرع بالتفكير و تأخذه بمسؤولية و على محمل الجد و كأنه قرار مصيري حتم عليها أن تأخذه...
و ظلت منهمكة في التكفير و المقاربة إلى أن غلبها النوم, النوم الذي جافى عمر...
تختلط الأسئلة الفلسفية بالحب لتخلق مزيجاً سامّاً يبقيه متيقّظاً مهموماً.
كان كمن وضع فجأة أمام خيار ضخم, مفترق طرق, و كأن عليه أن يختار بين دينه الذي يتعرض للهجمات المتكررة و حب عمره, رغم أنه لم يكن يريد أن ينظر للأمر كذلك.
قيلولة طويلة قبل أن تستيقظ علا و تجلس لحديثها مع عمر.
صدقها و خوفها من أن يتطور الأمر قدماً و بسرعة دون توافر الإمكانية لإتمامه دفعها أن تصارحه بما تشعر, بطريقه أو بأخرى أفهمته, أوصلت له الرسالة: نعم الوقت معك رائع, لكن ربما يكون إتمام هذا الأمر صعب...
لزمها استجماع شجاعتها و ترتيب كلماتها بحذر لتفعل ذلك....
ثم حاولت بعدها التأكد أن تلك الفكرة بعد وصولها لم تكسره, فآخر ما كانت تريده أن تجرح شخصاً كعمر.
أكملا بعدها جلستهما اليومية, أحاديث و نقاشات و أغاني كمن يريد أن ينسى مصيبته أنه مدمن مخدرات بأن يأخذ جرعة منها, جرعة تنسيه همّه و تخرجه من عالم الحسابات إلى عالم ملون زاهٍ لا حزن فيه, عالم جميل رائع إلا أنّه مؤقت, و لا يزيده الأمر إلا تعلقاً بالمخدرات.
و أنهيا الحديث قبل الفجر بساعتين بموعد لقاء في صبيحة اليوم التالي, أي بعد ساعات

فقط.
كان فرحاً بموعده و مستغرباً منه, أن كيف تعالج النار بالنار؟

في غرفة المعيشة جلس عمر متربعاً على الأريكة, كان يعلم أنه لن يكون قادراً على النوم, فلم يتكبد عناء المحاولة إذاً؟ إن كان عليه أن يُقلى و يُشوى بنيران الأفكار و زيت الحب و على مقلاة دماغه الذي لا يرحمه فليكن ذلك في غرفة المعيشة لا في السرير.
ساعتان كاملتان يحاول مناقشة الأمور بهدوء و عقلانية, يبحث عن حلول أو مخارج, قرارات بلغة العقل يحاول شرحها للقلب, إلى أن استسلم مع بداية الساعة الثالثة و أطاح به الهيجان إلى شعور العجز...
دماغ استثنائي, لا يعرف عمر أَبتلي به أم أُنعم به عليه, دماغ مبدع ذكي, إذا ما شغله موضوع تناثرت داخله الأفكار كالشرر المتطاير و هاج المفاعل داخله فلا ترحم أشعته الدماغ و لا صاحبه, صاحبه الذي لا يستطيع تقرير ساعة بدء التفكير أو انتهائه.
دماغ يرهق نفسه في البحث عن المعاني خلف الأمور و قراءة عواطفه و عواطف الناس و المغزى من كل كبيرة و صغيرة في الحياة, يحمل همّ خمسين قضيةٍ و فكرة يناقشها معاً, و لطالما قال له "لكم يرتاح في حياتهم الأغبياء".
شعور عجز يصيبه بالشلل فلا يجد ملاذاً إلا إلى الله.
يدور في الغرفة ماشياً ينادي عليه...
أن لم يبقى لي قوة إلا بك, من ظلمة غرفتي في بطن الليل في نقطة تافهة في طرف كونك أنادي نورك, أن الحبّ المزروع لك في قلبي أكبر دليل عليك, لا يمكن أن يكون كل هذا الحب بلا محبوب...
طالما انقذتني يا محبوبي فلا تتركني يوم أكون أحوج ما أكون إليك...
نادى عليه, نادى عليه, حتى خرّ دماغه و انطفأ... و سلم الأمر كله إليه...
سحب نفسه ببطء و دخل المطبخ شرب بعض الماء, وقف بشرود هادئ أمام الشباك قليلاً, ثم دخل الحمّام و أخذ دشاً بارداً خفيفاً.
فتح خزانته, كم يحب اللون الأزرق...

لبس أقرب الثياب إلى قلبه, كنزة كحلية اللون لبسها في آخر مسائية ذهبها مع محمد في كفرسوسة يحبها كثيراً, تعطر ثم خرج ماشياً إلى مشفاه رغم بعدها...
بقع الشوكولا التي لم يغسلها عن مريوله تشبه بقع الدم, ما يرفع عنه الحرج, فلا ضير من بقع دم على مريول طبيب.
إلى أن رآها, مرر ساعتيّ دوام في المشفى و خرج...
بثيابه الجميلة, و برونق حسن و طلة أبهى من المعتاد, و وجه أهدأ مما كان يوماً, وجه نحته الإرهاق بطريقة غريبة فجعل فيه سلاماً مشرقاً وقف ينتظرها عند موقف باص وعدها عنده.
تأخرت عليه و هو ينتظرها في الشمس التي جعلت مزاجه نزقاً, اتصل بها أكثر من مرة ليكون الجواب بقي دقيقة و دقيقتين, تأخرت حتى بدأ تأخرها يشعره ببعض الغضب, و جعله ينوي أن يسألها عندما تصل عن سبب تأخرها.
بلا سبب منطقي عندما رأى الحافلة عرف أنها الحافلة التي تقلها.
من بعيد رأى حافلة "جوبر – مزة أوتوستراد " تقترب ثم تتباطأ لتقف قبله بعشرين متراً.
اللحظة التي نزلت فيها من الباص و وضعت قدمها على الرصيف, هبّت منها نسمة تشبه نسمات فجرٍ دمشقي, نسمة مشبعة برائحة الزهور تغلغلت في جسده و مسحت على وجهه المتعب...
و أطفأت كلّ غضب, بقوة الأنوثة الجبارة أركعت الغضب, و لكم يجد نفسه الغضب ضعيفاً يتقطعه الخجل أمام عينيها, أمام شعرها و ابتسامتها الخجولة.
كانت يومها ترتدي كنزة حمراء وردية اللون, انطبعت على شبكية عينيه و انحلت فيها, فاستطعمت عيناه طعماً حلواً, ظل يستطعمه أشهراً بعدها كلما أغمض عينيه ليتذكر تلك اللحظة.
كان قدومها كقدوم الربيع كل عام, شيء لا يعتاده مهما تكرّر, فكان عمر قد اجتمع بها قبل هذه المرة كثيراً و اجتمع بها بعدها أيضاً, لكن كان في كل مرة يراها كأنها المرة الأولى التي يراها فيها... كالمظاهرة مهما تكرّرها تظل في كل مرة تشعر نفسك تكسر القيود لأول مرة, في كل مرة يرى وجهها يشعر كم هو مشتاق لها و لو لم يفارقها إلا لسواد اللّيل.

أعربت عن أسفها لتأخرها, و لم يكن هناك حاجة لذلك, لم يسمع الكلمات أصلاً, كان مأسوراً بالبسمة و الغمازات على طرفيها, و اكتفى بإطباق جفنيه بهدوء... أن لا مشكلة.
هذه المرة لم يدخلا المجمّع و لم يقصدا مكاناً محدداً و بدآ بالمشي باكراً.
جرعة جديدة و هروب إلى جوف الموت الجميل, يمشي جانبها كمن يمشي على الماء, تخف خطواته حتى يشعر نفسه يحلق.
جمال حديثها و ذكاؤه يزيده جمالاً أنه معها.
الخليط المعتاد المتدرج من النقاشات الفلسفية إلى الطرفات المريحة.
كلما أفاق لثوان ينظر للطريق يستغرب أن متى وصلنا هنا؟
- تعال أعرفك لأفضل محل عصير في سوريا.
محل صغير في شارع الحمرا.
لم تقبل إلا أن تحاسب هي, فهو محلها الذي تعرضه عليه.
معدته لم تكن قادرة على استقبال شيء, لكنه لم يكن قادراً على رفض شيء.
تناولا الشاورما عند محلها, المحل الذي بات معتاداً لدى عمر و أسماه فيما بعد في نوع من السخرية "شاورما الدمعة".
معرفته لما ينتظره في البيت من تعب و تفكير و شقاء و تمزق بين قوتين تتجاذبانه, جعلته يقرر أن يعيش اللحظة معها لآخرها قبل أن يعود للبيت, ليبدأ صراعه من جديد ثم محادثتها لساعات من جديد و من ثمّ يواعدها في اليوم التالي ليأخذ جرعة أخرى من جديد.
صارت هي واحدة من عاداته السيئة المستحيل إيقافها.
ما الذي فعلته به تلك الفتاة؟
نهاره معها نعيم جنة, ليله تفكير و صراع و عذاب.
كانت بين النهار و ليله تسخنه تبرده, تمدده تقلصه, بل و تفعل ذلك بين اللحظة و التالية لها لتفتته كرمل صحراء تذروه رياح حبها كيف تشاء.
دخلت حياته كسمفونية عذبة عصفت بمكوّنات حياته و ناثرت أمامه أجزاء ماضيه و حاضره لتعيد ترتيبها و ترسم له مستقبلاً مغايراً.

في كل يوم يراها تزيد الأسباب التي يعشقها لأجلها و يزيد حبه لها..
يحب عقلها و جنونها, يحب شعور الحرية الذي ينتابه و هو معها, يحب محافظها الصغيرة, أحذيتها الصبيانية, كيفية عدّها للنقود بالخمسة و العشرة, المظاهرة معها, الخوف معها, الهروب معها, يحب النظر إلى عينيها من الجانب, و يحب كيف تخرس أصوات الناس متظاهرين و غير متظاهرين عندما تمر أشعة الشمس من عينيها البنّيتين, فيتوقف عن كل شيء, و يكتفي بالنظر لنقاء عينيها الدافئتين.
يحب البحة الخفيفة في صوتها, الحركة التي تفعلها زاوية شفتها عند غضبها, أظافرها الطفولية المتآكل أطرافها.
يحب كل شيء فيها بل و يحب نفسه معها.. صادق, مرتاح, لا يتجمل لا يصطنع شيئاً و لا يحاول لفت نظرها, تتطاير الأحاديث و النكات بوجودها دون حاجة لابتكارها.
يمشيان لساعات كل يوم, جالا دمشق مرّات و مرّات, يتركان في كل شبر منها ذكريات و ذكريات, عام و نصف فقط كان قد مر على الثورة, و لم يعرفا يومها ما ينتظر مدينة حبّهما من أحزان.
جلسا مرة في حديقة المدفع على مقعد خشبي و قد رفعت علا رجليها على حديدة أسفل المقعد خوفاً من النّمل...
- يضحكون لخوفي من الحشرات الصغيرة أكثر من الكبيرة.
- العدو الذي تعرفه و تراه بأبعاده كاملة أقل خطراً و رعباً من ذاك المتخفّي...
ضحكت... كان أول شخص يفهمها بهذه الفكرة و يوافقها عليها...
ماشياً معها إلى بيتها مرا ببقعته المفضلة في دمشق, البقعة التي عليك المرور منها عند النزول من المهاجرين في "آخر الخط" كما اعتاد أهل المدينة أن يسمّوه, نقطة كان يمر منها في صغره عند عودته من مشروع دمر مع أهله...
مكان يرى منه دمشق بأسرها مستلقية و يقسم فيه الجبل المشهد إلى جزئين كعينين كحيلتين تبتسم صاحبيتهما كامرأة جميلة صعبة المنال لا يقدر طاغوتها على إخضاعها أو أسرها.
مكان كان جده يأتي به إليه بالسيارة, يجلسان يتأملان جمالها ريثما ينهي عمر كيس

"ديربي" و قنينة "كازوز".
مات الجد و شب الطفل و ما زالت دمشق هي هي... فتية رونقها باهر, عريقة جمالها آسر و ما زال للمكان نفس الشعور حين ينظر إليه كأنه ينظر متحديّاً في عيون المستقبل يتوعده أن سأعود يوماً و سأقف هنا و سيكون لنا حديث آخر...
وقف معها متأملاً المشهد و راحت أوراق الشجر الصفراء يتطاير بعضها أمامهم و يزحف الآخر على الأرض...
- كم أحب الخريف... و قلة من يفعلون.
نظر إليها مبتسماً و قال لها بهدوء...
- لا يفهموه يا علا... قلّة من يشتم رائحة الخير الذي يعد به... رائحة المطر البعيد, قلّة من يفهم أن جنون الربيع إنما هو وليد حزن الخريف.
ماشياً إلى جانبها بابتسامة حزينة يفكر بصمت, فلامست يده ساعدها بالخطأ, سحب يده بسرعة و عفويّة, بطريقة لفتت انتباه علا كأحد الأمور التي مرّت في حسبانها فيما بعد...
كان عمر ينظر إليها وقتها و يقول في نفسه...
- هذه الفتاة... إن لم يكتب لنا أن نكون معاً, فهل سيرتبط بها من يقدّرها؟ هل سيأتي من يرى خلف تلك الطفولة خفايا ذاك الإنسان القيّم؟ انظر إلى علاقاتها السابقة... كلّهم حمقى...
يا الله, حرام أن ترتبط بشخص تافه لا يقدّر قيمة ما حظي به...
هل تحبني يا ترى؟ تلك الإشارات الصغيرة, اللّفتات اللطيفة... أن تحمل أغراضي أن تشتري لي أشياء, أن تحدثني عمّ يزعجها في جامعتها و بيتها, تحدثني بصدق عن بعض تفاصيل علاقاتها السابقة, أن تضحك معي, تتسلى معي, هل هو خاص؟ هل وصلت مكاناً خاصاً في قلبها؟ هل سأصل إلى مكان لم يصله أحدٌ في قلبها؟
أثناء ذلك كانا قد وصلا المكان الذي عليهما الافتراق فيه قرب بيتها و قد لاحت الحافلة التي يستقلّها عمر ليعود لبيته...
كان عمر حقاً و بشدة يريدها أن تحبه و تريده كما يريدها و أكثر, كان ذاك جلّ ما يريده و يشغل باله في ذاك الوقت... لذلك كانت الكلمات الاثنتي عشرة التالية التي قالتها

له على بساطتها فارقة بالنسبة له...

- لا تصعد تلك الحافلة أرجوك... ابقى قليلاً, انتظر التي بعدها أو حتى التي بعدها...

و رغم تعبه الشديد, و إرهاق بدنه, فوّتها و فوّت على نفسه ستّ حافلاتٍ بعدها و هو غايةٌ في السعادة أنّه يفعل....

- 16 -

السادس عشر من تشرين الأول **2012**

ليلة دمشقية هادئة, ككلّ يوم في الفترة الأخيرة قضى عمر نهارها مع علا...
في تلك الليلة بدأ برد دمشق الحنون يتسرب للبيوت فيجمع أهلها و يلفّهم حول مدافئهم...
مدينة حنون إذا ما أحببتك, عشقتك و فتحت لك أبوابها تدخلها من حيث تشاء لتعريك من أثقال الهموم و خطايا البشرية, تضمك و تذيبك عشقاً و تخرج أجمل ما فيك من مشاعر...
بغض النظر عن أصلك و مكان إقامتك, ستشعر عند دخولها أنك عدت لمنزلك و ستشعر أن فيها شيئاً منك, شيء ما في قرارة نفسك ينتمي لها بطريقة ما...

و إذا ما غضبت على أحد و استشعرت استبداده بها أو بطشه فيها, صبرت عليه و كادت له, عاملته باستعلاء كأنه حشرة عالقة على ثيابها, تنتظر حتى تنهض لتنفض ثوبها فتلقيه في مزبلة التاريخ, كنقطة سوداء مرت مروراً عابراً في تاريخها.
ليلة هادئة ساكنة تتعامل بحنية رأفةً بالفتى الذي كان ينتظره من العذاب الكثير.
أيام مضت كان غارقاً فيها في حلمٍ لا يريد أن يستفيق منه, كمن فضّل الوهم الحلو على الواقع المر.
أنهى نصف برنامجه اليومي الذي واظب عليه الفترة الماضية بأن ذهب معها و عاد لبيته منهكاً من المشي الطويل و جلس الآن يحادثها عبر النت.
أيام نصف ساعاتها عذاب و النصف الآخر نعيمٌ لا يوصف لم تغير كثيراً من رأي علا... و لا رأي عمر.
لساعتين جلسا يتحدثان لا يعرف فيها أي منهما رجحت له كفة اتخاذ القرار في فك أجهزة الإنعاش عن وليدهما الصغير.
لساعتين كان كلاهما في صراع بين أن يدافعا عن حق الوليد الغض في الحياة و بين أن يتركاه ينام بسلام, قبل أن يكبر و تكبر معه تشوهات متوقعة فيه... هل يخاطرا؟ أم يتركاه يموت الآن جميلاً, و تبقى آخر صورة له في ذاكرتيهما جميلة عذبة...
حتى أذان الفجر ظلّا ككل يوم, لكن هذه المرة لم يكن النقاش المعتاد, لم يتبادلا الأغاني و لا الصور, هذه المرة كانا يناقشان فرص نجاة علاقتهما, و قد طغت أجواء من الوداع على الحديث, و خيم عليه هدوء الحزن...
كلما رجحت كفتها في اتخاذ قرار إنهاء العلاقة, سارع بدون وعي و بدافع الكرامة ربما لإظهار نوع من تقبل الموضوع, بل الحسم فيه... فلم يكن عليها في كل جولة أكثر من إظهار عوامل صعوبة الاستمرار و الاختلاف, حتى يبادر هو بموافقته للفكرة.. ثم التعبير عن أنّه سوف يتعذب فترة لكنه بالإمكان تجاوز الأمر بتعقل و سوف يكون قوياً...
"سوف يكون قوياً" كم أضحكته بشكل مثير للسخرية هذه الجملة فيما بعد...
تعود كفّته للرجحان و يدّعي حسم أمره, فترجعه عن قراره دون قصد...
كالراكبين في طرفي زورق يميل كلٌّ لطرفه محاولاً تأخير الغرق المحتم.

كم يريدها, و يكره أنها لا تريده لدرجة تجعله لا يريدها, لكن ربما هي تريده!
على تلك الحال من دوار البحر بقيا حتى الفجر, دوار أخرج من الداخل ما يحاولان إخفاءه من مشاعر بدوافع الكبرياء.
- هل ستكرهني يا عمر؟
- لا يا علا, حتى لو أردت... فلا أستطيع.
- يا عمر, لا أتحمل أن يكرهني شخص مثلك... أرجوك لا تكرهني.
- سأحاول ألّا أفعل..
- ستتعب؟
- أكيد.. كثيراً... سألامس حيطان الموت, لكن لا شيء أفعله...
- يا لله!!.. لا تقل هذا. يا الله... تباً لي, أرجوك يا عمر لا أستطيع أن أسبب هذا لك...
اشكِ لي يا عمر, حدثني, سأظل صديقة مخلصة, ستظل صديقاً غالياً... حدثني الآن, قل لي أي شيء تريد قوله.
- أي شيء؟
- نعم, أي شيء تريده...
- أي شيء؟... أي شيء؟
- نعم, أي شيء..
- أحبك....
كانت تلك المرة الثانية التي ينتظر فيها كلمة "أنا أيضاً" و ما حصل عليه كان الضحك ثم العبارة العامية "يحرق حريشك".
قرارٌ بألّا يكونا حبيبين, و إصرارها على أن يبقيا صديقين مقربين, و أن يخففا بالتدريج المشاوير و المحادثات التي أدمناها, قرار اتخذاه ببساطة قبل أن يغادرا النت.
الشعور الذي ينتاب عمر دائماً بصعوبة ظروفهما, النقاش و التعب و العذاب بعد انتهاء مشوارهما كل مرة, كان يجعله في كل مرة يودّعها, يشعر بغصّة و كأنها آخر مرة يودعها... هذه المرة كان الشعور أقرب للحقيقة.
كم كان بشعاً وقعها عليه كلمة "إلى اللقاء" يومها... كم شعرها قبيحة كاذبة و وحيدة في

آخر السطر...
قرارات اتخذت لتدخل حيز التنفيذ بعد دقائق, و ما أسهل الكلام أمام التنفيذ.
بيد مترددة مجبرة أن تطيع أمر الدماغ, أطفأ حاسوبه...
فجأة و بضغطة زر اسودت الشاشة و اختفت ألوانها, سكت صوتها كمن أطفأ شاشة مراقبة القلب لحلمٍ ميت.
فجأة لم تعد تلك الشاشة مصدر سعادة لا يجف, و ضاق الصالون المعتم به.
فجأة وجد نفسه وحيداً كنقطة في صفحة حاسوب لم تتسع في الصفحة السابقة فرميت بالتي بعدها.
وحيدة وحدة الرقم واحد إذ يغادره الصفر, فيتمزق الرقم و يفك الالتحام الثمانية بالعشرة, لتسحب سلاسل من نار الفرقة الثمانية بعيداً, و لا تفلح مقاومتها الابتعاد عن معبودها الذي تشتاق لضمه مرة واحدة, الالتصاق به مرة أخيرة.... إلا أنّه يعلو فجأة و يرجع سلم الأرقام كما كان و كما قرر له أن يكون.
قطعت أوتار عوده و صمتت كل الألحان في انتظار عزف مقطوعة كان يعرف حق المعرفة شدة قسوتها.
كان ضعيفاً خائفاً, عيناه متوسعتان ينتابه الذعر من تخيل ما سيحدث له من ألم في الفترة القادمة.
كان الألم الذي يتوقعه كوحش مختبئ خلف صخرة ضخمة يزيد خوفه منه جهله بشكله, إلا أن المعطيات المتوافرة له عنه هي معرفته لدماغه و كم يتعبه إذا ما شغله التفكير, و معرفته كم هو شخص عاطفي حسّاس المشاعر, و معرفته لقدر حبه لها, فعلم علم اليقين أن ما ينتظره من عذاب و ألم كبير, كبير للغاية...
وقف عن أريكته كمصدوم لا يفهم ما حلّ به, يحاول أن يهرب بتفكيره إلى أبعد ما يكون عن الموضوع, أن يتجنب التفكير بأي شيء الآن, و ساعده على ذلك صدمة دماغه من حمله الضخم المفاجئ...
استلقى في سريره, وضع رأسه تحت المخدة, و ضغط المخدة على رأسه, و ضغط نفسه بالسرير, يحاول الغرق فيه, الالتحام به, و كأنه يجبر نفسه على الغرق في النوم, الهروب

إلى النوم... و انطفأت عليه أضواء يومه...

ساعات من تفكير و قلق, أيام من عذاب جحيم... انكفأ فيها عمر على نفسه, اعتزل الكون, رافق العزلة و صاحب الصمت, صار يقضي رحلته للمشفى كل يوم مشياً و يعود منها كذلك يحدث نفسه و يحدث ربّه.

يمشي فيتخبط, يسأل فيحتار و يتألم, و ينظر للدنيا من خلف نظارته الحزينة و قد أحاط بها إطارٌ أسود لم يكن قادراً على الخروج منه.

أيامٌ لا يتوقف فيها لا في ليل و لا نهار عن التفكير... تفكير في كل شيء, في حبه, في قناعاته الدينية...

شعوره أنه كان يضحي بحب عمره لأجل قناعاته الدينية جعلته يناقشها أكثر و أكثر, بطريقة تحرمه الطمأنينة, لكن في نفس الوقت شعوره أنه يضحي لأجل الله جعله يقترب منه أكثر... كان في كل لحظة يتواصل معه, يخبره بكل أفكاره, يشكو إليه همومه و يذرف إليه آلامه و يطلب منه العون و السداد.

المفارقة أن الأحاديث المسائية عبر النت مع علا لم تتوقف رغم اختصار وقتها, و توقف المشاوير اليومية.

كانت علا تصر أن يبقيا صديقين, فعمر ليس كمن مضى, عمر شخص صادق, هم يأتون و يذهبون أما هو فشخص لا يعوض و لا تريد خسارته.

دعته أكثر من مرة للخروج و تناول الشاورما عند محلهم...

- لا يا علا, ارحميني, أحاول أن أخفف, أن أنساك... لا ترجعيني للصفر, لا تعذبيني.

- طيب... سوف أؤجلها لكني لن ألغيها...

أيام العذاب تلك, و عواصف التفكير التي لا تهدأ باحت له بكل وضوح: أنه لن يستطيع....

ليلة الواحد و العشرين من تشرين الأول 2012

استجمع عمر كل الظروف و المعطيات التي تداولها في الفترة الماضية, و لملم شتات نفسه الممزق و وضعها كلها في سلة واحدة إلى جانب النتيجة التي أوصلها إليه عذابه أنه لن يقدر على فراقها, و حاول أن يرسم منها قراراً ثم ابتكار حلول تساعده على تحمل عواقب القرار....

فمثلاً كانت علا قبل ذلك و في حديقة "المدفع" في دمشق, حدثته قليلاً عن الصعوبة التي يواجهها أطفال أناس مختلفين فكرياً... فوصل في بحثه لحل أراده أن يكون منطقياً و الأهم أن يكون عملياً مرناً لمشكلة كهذه, بحيث يضمن تمكينهم من صناعة طريقهم بأنفسهم, و إرشادهم بطريقة لا تصبغهم بلون أحد إلا لونهم أنفسهم...

و مثلاً لاختلافهما فكرياً, فكر في تسويات و حلول تقبل كل منهما كما هو, لا تصرّ على تغييره أو تهميشه, تحفظ له هويته و حريّته و لا تخنق عالمه, تترك له حرية التبحر لاستكمال رحلته و رسم نسخته الخاصة من الإيمان.

مقترحات و مقترحات, أفكار و أفكار كلها تخلص إلى أن بإمكانهما التوافق و التعايش بأجمل ما يمكن, حملها و قرر الإدلاء لها بها.

ما لم يكن يعلمه عمر أنه لم يكن بذاك النضج في ذاك الوقت, و أن كثيراً مما يقول و يقترح لم يكن قادراً على تنفيذه بعد, و أن رؤيته و معتقداته ستتطور و سيقطع أشواطاً في رحلة بحثه بشكل ينظر فيها لتلك الحقبة فيرى نفسه أنه كان طفلاً ساذجاً.

بكل الأحوال.. الحب يعمي و يصم, و يجعل منك في يوم رجلاً خارقاً و قادراً على التكيّف مع كل شيء, و في آخر طفلاً ضعيفاً عاجزاً لا يمكنك تحمل أي شيء.

البعد عنها لا يطاق, و لم الابتعاد أصلاً؟ لا أسباب وجيهة تفرّقهما, و لن يقف شيء في وجه

حبهما, المرونة سمة كليهما و كل المشاكل لها حلول.... بهذه النفسية فتح النت من هاتفه ليحادثها.

بحماس طفل دنا مما يصبو إليه, جهز على ورقة رؤوس أقلام عن أفكاره تلك لئلا ينسى منها شيئاً و جلس يحادثها.

كان متردداً حائراً, أربكه كيفية فتح الموضوع و إيصال الرسالة.

لكن على الرغم من كل شيء, التفكير, التعب, الحيرة, الوهن الجسدي لقلة النوم.... كان للحظات قصيرة سعيداً كمن أشرقت حياته بالألوان مجدداً بمجرد فكرة إمكانية العودة إليها, فكرة جعلت الثمانية تغلق عينيها و تسرح في خيالها منتظرة الموج أن يرميها على شط العشرة من جديد.

بين كل الأفكار في رأسه كانت فكرة واحدة تشغل باله بشكل رئيسي الآن... فقبل أن يصرح بما عنده, أراد أن يشعر بحبها له, أراد أن يشعر بأن ما "يضحي" لأجله يستحق كل ذلك, أراد أن يسمعها مرة واحدة, أن يكون جوابها لمرة واحدة كما يتوقع.. كما يريد... أراد أن يتأكد أنه يعطي فرصة لإحياء شيء كان حيّاً أصلاً... فلتحببه للحظة, فلتدخله جنة قلبها و سيحارب من أجلها الكون...

- .... و البعد أتعبني جداً يا علا... جداً...

- يا الله... ليتني أستطيع أن أخفف عنك.

- علا, لم أعد أتحمل, و لا أريد أن أتحمل.

- صبراً يا عمر... صبراً.

- لم يهدأ تفكيري من يومها, و أنا أحدث نفسي و أبحث عن حل.

- ستحتاج لفترة يا عمر... ارحم نفسك.

- يا علا... أمشي في الطرقات, كالهائم على وجهه, أبحث عن وجهك في وجوه الفتيات فلا أجده...

- يا عمر, ستجدها يوماً... سترى وجه تلك الفتاة التي تستحقك.

- لا أريد غيرك....

أعرف أني وعدتك و وعدت نفسي أن أنساك, لكني وجدت أنه ظلم أن أحرم النبات من

مائه ثم أطالبه بالنمو, أن أحرم الكاتب من مصدر إلهامه الوحيد ثم أقول له اكتب, أن أحرم الرسام من ألوانه ثم أقول له ارسم...

- عمر... الأيام الأولى هي الأصعب, لتعتاد الأمر فيما بعد, و يوماً ما ستجد مصدر إلهامك و ألوانك, فتاة تستحق شخصاً مثلك, و ربما تكون أفضل لك مني...

- موجوع يا علا...

- سيذهب الألم يوماً, صدقني.

- كيف يذهب و دوائي بعيد عني؟

- ستمر هذه الأيام يا عمر... فقط اصبر.

كانت أجوبة علا تسبب له الضيق, و تعطيه صورة عن رأيها بالموضوع, لكنه لم يحجم نفسه, لم يعد يملك شيئاً يخسره, و لم يعد يهمه شيء, فأكمل الطريق لنهايتها, و كم ندم في ما بعد أنه فعل....

كان كسفح جليدي بدأ بالتصدع ثم أكمل بتسارع هائل لم يعد بالإمكان إيقاف انهياره لا بكلمات أحد و لا بأفكار و معاني الكبرياء و صون صورة الذات...

- آه يا علا.. يا ليتنا كنا في عالم غير هذا العالم, لما تركت روحي تبتعد عن روحك...

- يا ليت...

- لم؟ لم يا علا لم تحبيني؟

- عمر!!

- أجيبيني...

- عمر.. لم تفعل هذا بي؟

- علا, أجيبيني هل تحبينني؟

- يا عمر... لم تحملني فوق طاقتي؟ لم تفعل هذا بي؟

- حقي أن أعرف, أريد أن أعرف, ببساطة أجيبيني هل تحبينني أم لا؟

سكتت علا عن متابعة الحديث, فيما ظل عمر يكرر سؤاله أكثر من مرة.. إلى أن سكت بدوره منتظراً جوابها, وظل ينتظر...

لحظات من صمت و ثوان من ظلام حلّت, ظهرت بعدها كلمة صغيرة على شاشة عمر,

انطبعت في مخيلته و وجدانه, و لم ينساها بعدها أبداً.
" لا.."
" لا.." واضحة لا لبس فيها, جلست بوقاحة في منتصف شاشته لتخلق لما قبلها نهاية و ما بعدها بداية.
" لا.." صغيرة هامسة بحيث قد لا تنتبه لها في معرض الكلام, ضخمة كفاية لتكون صراخاً يصدّع رأسه.
" لا.." اخترقت عيونه و اقتحمت محلّات إعرابه بثقة و أنانية لتجد لنفسها إعراباً فريداً بها.. كانت " لا.." الناهية لما قبلها المدمّرة لما بعدها...
لطالما عشق عمر تمرد الـ " لا " و كره انصياع الـ "نعم" لكنه لم يكره في حياته أكثر من تلك الـ " لا.."
كانت تشبه كل " لا" قالها له أبويه.. و كأن الكون قرر أن " لا..".
" لا.." قتلت آخر حارسٍ من أمل يحمي به قلبه و بقي قلبه مكشوفاً عارياً يستقبل السهام.
" لا.." ارتسمت على شاشته و بعدها نقطتان صغيرتان تخفيان الكثير.. كثيرٌ لم يعد يهمه.
نقطتان سالتا على وجهه دمعتين و ابتل بهما سريره, ثم فاضت عيونه بما فاضت فلم تعد تكفي الدمعتان و صارت الدموع تنهمر من زوايا عيونه الأربع لتقطر من ذقنه.
دموع خرجت من الداخل و انصبت على المخدة التي فاضت بحزن و ألم لم تعد قادرة على كبته داخلها, غصّت المخدة بدموع في طعمها مرارة حزن لم تخبرها من قبل.
دموع تركها تنزل حرّة تمشي على وجهه تتفحص خطوط ملامحه بهدوء و لم تهم راحتا يديه أن تمسحها, و ما الفائدة من مسحها طالما أن سببها حدث و لن يلغيه مسحها.
بألم المفجوع لملم ما تبقى من كرامته و ودّعها إلى غير رجعة...
كانت الـ " لا.." كفيلة بأن تكبح ما جهز من أفكار, و لم يعد من قيمة لكل ما عنده, تناثر كل ما حضره لها من كلام و ذراه في سلة المهملات مع قطع الورقة التي حضر عليها رؤوس الأقلام.
لم يعلم إلا الله و سريره ما رآه الفتى تلك الليلة...

بكت معه الغرفة و انغلق بابها ليستر عليه ما بقي من رجولته الخديشة.
يضمّه غطاءه مسكناً بكاءه و تتقارب جدران الغرفة و تميل عليه حزناً لأنينه... و تنسدل الستائر محاولة تغطية الجرح المكشوف.
حتى صداعه أثناء البكاء عافه هذه المرة رأفةً بحاله.
يحاول تغييب وعيه بأن يرتمي للنوم, يغط دقائق إلى أن الألم لا يغادره و كأنه ألم ضرس في كل نقطة في جسمه و روحه, يتعاظم من المحيط باتجاه المركز حتى يصل ذروته في قلبه, ألم ممض مضن لا يغادره حتى يوقظه... و كأن جسمه دخل معركة أنهكته, يتصارع فيها أعضاؤه تارة ثم يبكون لحال بعضهم تارة أخرى, يلوم العقل قلبه للحال التي أوصلهم لها, فيشكي الأخير ألمه و ضعفه...
برديات جهنم التي غزت جسده لم تجد فيه مقاومة, فلم يكن قادراً على الارتعاش و لم يكن يملك الرغبة في الحياة...
كان كمن فاتته سفينة نوح, فلم يعد يرى في الحياة أمل, ينتظر الموج ليأتي و يأخذه...
يقبع مرتخياً في سريره الذي جعلته الدوخة يدور به و يهتز, كالمستلق في تابوته ينتظر الدفن المريح..
يستلق على ظهره و قد فتح ذراعيه كأنه ينتظر ملك الموت ليعانقه فيريحه, فتنسل الدموع من زاوية عينيه من تحت أجفانه المطبقة لتجد طريقها إلى أذنيه دون أن يعترضها.
كلما خفّ جريان دموعه تذكر الـ " لا.." لتعود لفيضانها من جديد...
كلما تذكر الـ " لا.." يشعر نفسه و كأنه يسقط إلى هاوية دون قاع, فيظل يسقط و يسقط... يستصرخ قلبه الرحمة فيكتم سواد الهاوية صوته و يكبل خفقانه.
حُرم مدمن علا اليوم من جرعاتها, علا التي لا يعرف متى أدمنها و لا كيف بهذه السرعة أدمنها, لتعلمه الأيام و الأشهر القادمة ألّا يأمن الحب بعد اليوم... ذلك الحب السارق البريء الوجه الذي يتعامل معك برقة يستحيل معها أن تشتبه به حتى يسرق سعادتك.
الحب الذي دخل إليه من شاشة حاسوب و خرج من أخرى, كأي شيء افتراضي على النت و ترك وراءه الألم حقيقة ملموسة لتدل عليه, حقيقي لدرجة أنه فقد إيمانه بكل شيء إلا

به...

مرت تلك الليلة كما عليها أن تفعل, و قطار الحياة لا يرحم آلام دهس المقيدين إلى سكته لا يستطيعون استقلال القطار فينعمون و لا مغادرتها فيرتاحون...

-17-

الخامس و العشرون من تشرين الأول **2012**

تحت سقف شقت أشعة الشمس طريقها من ثقوب الرصاص فيه, يتمشى عمر مع أخته في أحد أسواق دمشق القديمة, كانا قد حضرا قبل ساعة و نصف من وقت مظاهرة مقررة في شارع "مدحت باشا".

كان يوم غد أول يوم من أيام عيد الأضحى, و كان من عادة عمر و عائلته أن يصوموا يوم وقفة العيد من كل عام و يفطروا في بيت عمّه, صام اليوم معهم أيضاً, كونه أصلاً زاهدٌ في الحياة و قد عفّت نفسه عن كل لذّة فيها...

إلا أنّه اعتذر عن الإفطار معهم و فعل المستحيل لإقناع أهله بعدم ذهابه, لعدم قدرته على مقابلة الناس, و تحجّج بالمشاغل و الدراسة...

بصمت و عيون ذابلة ينظر للسوق, المحلات و الوجوه... كيف تسلل كل هذا الحزن إليهم؟

يقف الباعة خارج محلاتهم يتأملون المارّة لا ينادون على بضاعتهم حتى, أين ذهب لون سكاكر سوق "البزورية"؟ كيف غزا اللون الرمادي جدران دمشق القديمة؟ كيف حل الحزن أصفراً يسيل على مآذن الجامع الأموي؟ أين السّائحون يصوّرونها؟ يصورون تباهيها بجمالها, شموخها و عراقتها... ماذا سيصورون اليوم؟ و من يرغب في رؤية دموع أرملة عشعشت الكآبة في حجارة شوارعها؟

تركها المريدون حين استبدلت برائحة ياسمينها رائحة الموت في كل شبر من أرض البلد.
حين استبدلت بترانيم طربها أخبار الإعدامات الميدانية و الاعتقالات في كل مكان, حين باتت حزينة مفجوعة مصدومة صدمة أم تتعرف وجه ابنها في مشرحة ضمّت ضحايا صاروخ طائرة من السماء أو سيارة مفخخة من الأرض فأطبق الموت عليها كفكّي تمساح لا يرأف بجسدها الغض و جمالها الفاتن.
ربما هو الحزن الرابض على قلب عمر و قد غرس مخالبه فيه و امتدت أطرافه كالأخطبوط الأسود لينتشر في كل جسمه, أو ربما حقاً كانت دمشق في حداد...
حداد عجزت حتى عن عد أسبابه, لكنها من يوم لبست السواد من أشهرٍ طويلة لم تخلعه, و زاد سوادها حزناً لهول ما نزل بأختها حلب التي كانت تموت بصمت و قد تخلى عنها العالم أجمع, فحرقت أعرق أحيائها و حوصرت بلقمة معيشتها أرقاها...
من بين رؤوس الناس المثقلة بالهموم, و في وسط السوق المخنوق بمحلاته الصامتة, ظهر رجل أعمى يرتدي نظارة سوداء و يرفع رأسه للأعلى و قد أماله جهة اليمين و هو يكرر كلمة "يا كريم".
كان يجر أمامه عربة عليها حلوى, و في وسطها قد وضع مذياع شق صوته صمت السوق...
كانت تصدر عنه تكبيرات العيد بصوت عال يعكره صوت خشة ناتجة عن قطع صغيرة مكسورة منه, بنغمة أهل الشام المميزة عن غيرها و المشرّبة بلحن حنون كان يصدح:
" الله أكبر ... الله أكبر ... الله أكبر ... لا إله إلا الله..."
كونه كفيفاً فلم يكن الرجل قادراً على رؤية الدّهشة التي يثيرها عند الناس, كان ينظر إليه أصحاب المحلات و المارة_ و بينهم أم و ابنها لفتا نظر عمر_ و لسان حالهم يقول:.. "حقاً؟!.. عيد؟!... أي عيد هذا.. ؟!".
يدٌ رطبة تسلّلت إلى أصابع عمر و أمسكتها, فالتفت عمر لينظر في عيون أخته و شدّت أصابعه على يدها, كانت مدهوشة أيضاً, تستجدي فيه مؤنساً و قد اختلط حزنها بالأمل, فتبسّم لها بسمة غصّت بدمعة حبيسة...
أكملا مشيهما ضمن السوق الضيق إلى أن انفرج فجأة و ظهرت نهاية سقف السوق, و

تباعدت المحلات لتظهر الساحة الخارجية للجامع الأموي...
سماء مشرقة لا يحجب شمسها إلا أجنحة الحمام يطير بمجموعات حول الأموي.
نزل بنظره ليتأمل في الحمام على الأرض و في الناس الواقفين في الساحة, فلمحها بينهم...
في منتصف الساحة و مع فتاة أخرى وقفت و قد لبست نظارة شمسية و ربطت شعرها الأسود...
استحالة أن تفوت مظاهرة كهذه جعله يتوقع قدومها, لكنه لا يعلم به, لا يجب أن يعلم به, لا يجب أن يهتم, لا يجب أن يفكر فيه, هل يجب أن يسلّم عليها؟ ماذا يجب أن يفعل؟
" يجب... يجب..." تباً للحياة و لـ "يجب"...
ربما من المفروض أن يسلم عليها بشكلٍ طبيعي, لكنه لم يكن في مزاج أن يسلم عليها, فأرسل أخته تسلم على صديقتها و وقف ينتظرها بعيداً.
فيما ذهبت أخته تسلم عليها.. نظر إليها من بعيد...
ما زالت جميلة... و هل تغير بضعة أيام في شكل أحد؟.. ربما كانت بضعة أيام لكنها مرت عليه سنين.
تقف هناك... كم تبدو صغيرة في تلك الساحة الواسعة...
هذا المخلوق الصغير غير عالمه و أفقده إيمانه و هدم ما بنته فيه سنون في المدارس و الجوامع..
ما أجمله من مخلوق رقيق رقة الياسمين قاسٍ قسوة الصخور.
كانت هناك, همّه هناك.. ألمه هناك... تجسد كلّه فيها.
أشاح بنظره للحظات و وقف بعيداً ينتظر انتهاء السلام...
لم يكن عمر قد روى لأخته تفاصيل ما حدث, إلا أنّ عيونه فعلت, كانت أخته ذكية مرهفة الإحساس, فلم تطلب منه المجيء معها للسلام و لا طالبت أن يسيروا معاً...
عليه أن يتركها و يمشي مع أخته, ليكمل طريقه و هو يعلم أنها تمشي على نفس الأرض التي يمشي عليها...
أعانه أنه صائم أن يمانع نفسه, أن يقيد روحه من الخروج لتلحقها... إذ تستشعر روحه و

تعلم أنها قريبة ها هنا... في نفس المكان.
اقترب من مدحت باشا فدخل عمر مع أخته قبل المظاهرة بدقائق إلى محلٍّ قريب ليشتريا تذكاراً, أي غرض صغير, المهم أن يضيّعوا دقائق الانتظار بأي شيء... و لئلا يلفت انتباه الأمن إلى تجمع عدد كبير من الشباب في المنطقة.
اشتريا ربطة يد له و تذكاراً بمغناطيس خلفه يعلّقانه على الثلاجة...

كان سعرهما **185** ليرة أعطياه **200** ليرة فلم يكن لديه فكة ليرجع لهما الباقي, فخرج العجوز بحركات متباطئة ليبحث عن فكة عند جاره...
بصوت فيه نبرة قلقة مرتبكة _ إذ كانا خائفين من أن يبدأ التكبير و يفوّتانه_ قال كليهما:
- لا مشكلة يا عم... مسامح!!
- لا, لا يجوز... انتظرا قليلاً...

أصر على إعادة الـ **15** ليرة و لولا لطف الله لفاتهما بدء المظاهرة بسببها.

خرجا من المحل على عجل متجهين إلى النقطة المحددة.
الخوف الذي لا بد منه قبل كل مظاهرة "الطيارة" منها خاصة اقتحمهما كالعادة.
مسك يدها الباردة ليطمئنها و سحب وشاحاً من حقيبتها ليغطي به وجهه... استغرب بادئ الأمر استشعاره نسمة مفاجئة من نسمات علا تمر به و تلفح وجهه, فدار برأسه حوله يبحث عنها... إلى أن عرف السبب في جملة أخته:
"لا يا عمر.. هذا وشاح علا سأستعمله أنا, خد أنت الرمادي".

شيئاً فشيئاً غصَّ المكان بوجوهٌ مألوفة, الشباب و الفتيات المعتادون, زملاء المظاهرات الطّيارة في دمشق و المتواجدون معهم في مجموعات سريّة على شبكة تواصل اجتماعي على النت.
جو "ابتلاع الريق بصعوبة" الذي يخيّم قبل كل مظاهرة...
ينظرون في عيون بعضهم, كمن يخطط لسرقة مع شريك مجهول, عليه أن يثق به و يسلّم له لإتمام المهمة...
يعلم جميعهم ما الذي سيعم هنا بعد ثوان...

- يا رب تمر على خير... قالت أخته.
شد على يدها..
- آمين, لا تخافي يا قلبي...
ثم انفجرت الكلمة التي انتظرها الجميع...
كلمة مألوفة, مألوفة جداً... تشبه أول مرة سمعها فيها قبل أن تعتادها أذنه, و كأن عداد الوقت أُرجع للصفر.
كلمة صدحت عالية كمدافع العيد, تعلن أن لا عيد و في سوريا بيوت لم تجف فيها بعد دماء الشهيد.
كلمة ارتعشت جدران الأموي من صداها.. و طارت حماماته من علو صوتها.
"تكبير!!"
مع انطلاقها و لحظة اقتحامها رأسه, انهارت داخله جبال من قهر, و اندفع غبار انهيارها نحو الخارج في عاصفة انفجرت رياحها لتحمل حطاماً و حزناً متراكماً... كتلة من أحاسيس تتدرج من مركز يشكله حزن أسود إلى محيط من غضب أحمر أشعت منه و ارتسمت مشاعرها جميعاً على وجهه.. في ملامح تخيف قارئها...
وقفوا في دائرة, و كانت علا في الطرف الآخر... يرى سمرة وجهها فيصرخ بأعلى صوته, أن فكوا الظلم عني و عن شعبي... أن ارحل أنت و ألمك....
عادت عيونه للبكاء من جديد... كل شيء كان سريعاً إلا الدموع كانت تسيل ببطء لتأخذ وقتها بالسير على وجهه...
صار الهتاف " يكفي مجازر.. يا ابن الفاجر!..."
هتاف جعل صور الأطفال التي جزت أعناقها تمر برأسه, أطفال نظر قاتلها في عيونهم فأفرغ فيها غرائزه و سلبها الحياة بطريقة لا تمت للبشرية بصلة, فازداد اشتعالاً على اشتعال...
يحادث السفاح كأنه يراه, كأنه ينظر في عيونه...
صار جزء منه يطعنه.. يقطع يده أن كفى!!
و جزء آخر كان يبكي حاله... و حال الشام...

و جزء آخر ... كان يتظاهر ضدها....
خرج هتافه آهات تشكو حاله و تنفس قهره, صرخ كما لم يصرخ من قبل.. صرخ حتى ذابت حنجرته و تصدع رأسه, و شعر بما داخله ينساب منه كماء دافئة تنفس وجعه...
صار الهتاف: "هي الشام... ها... ها.." ضربوا أثناءه بأقدامهم على الأرض حتى زلزلوها و زلزلوا السّوق كله...
خمس دقائق لا أكثر, قالوا فيها أكثر مما يريدون "نحن هنا, ألمنا لا يسكت, نحن الشعب و عيدنا يوم رحيلك" إلى أن انتهت المظاهرة و انصرفوا آملين أن يحل العيد على هذا البلد الجريح يوماً....

أثناء انصراف الجمع وقع نظره في نظر رجل أصلع, سمين, ذقنه حمراء قصيرة...
كان لئيماً مريب المظهر تنسل من عيونه رسائل الحنق و الكراهية, يقف على جانب الجمع يتفحص الوجوه, ينظر إلى كل واحد منهم إلى أن وصل لعمر فنظر إليه نظرة خبيثة و هز برأسه و كأنه يتوعده, ثم تمتم كلمات.. غالب الظن أنها شتائم...
لم يستطع عمر منع نفسه من النظر إليه باشمئزاز ثم أشاح بنظره عنه و انصرف ساحباً أخته من يدها و اندس محتمياً بجمع المتظاهرين مسرعاً في مشيه...

خرجا من مكان الخطر على عجل.. و مشيا طويلاً إلى أن وصلا السيارة التي كان قد ركنها في مكان بعيد جداً.
استغرقوا بعض الوقت لشراء حلويات و بعض العصير للإفطار, وضعوها في صندوق السيارة و انطلقوا.
أوصل أخته إلى بيت عمه البعيد على أطراف دمشق قبل أذان المغرب بقليل و أكمل طريقه بالسيارة إلى البيت وحيداً.

كثير من الأمور في حياة الإنسان قد لا يفهم الغاية منها لكنه يعرف تمام المعرفة أن القدر أرادها أن تكون...
ما حدث مع عمر في الثمان و العشرين دقيقة التالية كانت مشيئة قدر يعجز عن

تفسيرها المنطق... ظلّ الشاب طويلاً بعدها كلما تذكرها يتعجب من مصادفة ما حدث, و يكاد لا يصدق تفاصيلها لولا أنّها حدثت معه...
أثناء وقوفه على إشارة المرور شارد الذهن متعب الجسد, التفت إلى يساره و إذا بالرجل الأصلع ذو الذقن الحمراء في سيارة من نوع "كيا – ريو" بيضاء... شاء القدر أن يلتفت الرجل أيضاً و ينظر من شباكه إلى عمر...
تأمل الرجلان في عيون بعضيهما ثانية أو اثنتين إلى أن تأكّد كلٌّ منهما من تعرفه الآخر.
توسعت عيني الرجل الأصلع و صرخ بعمر:
- أنت!! يا ابن الكلب!..
دون أي محاكمة عقلية, و دون أن يلتفت ليحذر قدوم السيارات من الجانبين إذ كانت إشارته حمراء.. دفع عمر برجله دواسة الوقود لآخرها, و انطلق مصدراً غباراً و ضجيجاً عالياً.. و انطلق الرجل الأصلع خلفه مباشرة...
لم يكن لدى عمر أدنى فكرة عمّا عليه أن يقوم به, كل ما فعله كان الاستجابة لغريزة البقاء و الاندفاع بعيداً بكل ما أوتي....
توجه يميناً و دخل في طريق جانبية, فدخل وراءه بسرعة كبيرة...
يحاول عمر الافلات منه بأن يدخل حارات فرعية تضيق بسيارته و سيارة الرجل.
صوت قلبه يزاحم صوت محرك السيارة و تحاول يداه المرتجفتان الإحكام على المقود الذي كان يهتز من مرور السيارة في طريق متعرجة.
لا وقت لأن ترف جفونه رغم ضرب الشمس لعينيه الشاخصتين.
يقود برعونة و تهور في حارات ضيقة يستحيل معها خروج السيارة سالمة, إلا أن الغريب أنها لم تصب بخدش إلا اللّهم شيء بسيط حين ارتطمت مرآتها اليسرى بحائط فدفعت منغلقة دون أن تنكسر.
دخل حارة شديدة الضيق حتى أنه صعد بالدولابين اليساريين لسيارته على رصيفها ثم خرج من الطرف الآخر...
فجأة وجد نفسه في طريق مستقيم لا حارات على جانبيه, انطلق بأسرع ما يقدر عليه محركه, لكن الرجل خلفه كان أسرع, فصار يصطدم به من خلفه, فيتلقى عمر الصدمة

تلو الأخرى و يستمر بالهروب...
لاحت لعمر حارة على اليسار قبل الوصول لآخر الطريق, في أجزاء من ثانية اتخذ القرار بأن يدخل فيها.
انعطف بشكل فجائي و دخل الحارة و لم يستطع الأصلع التوقف أو الانعطاف خلفه.
استغل عمر الفرصة و انتقل من انعطاف لآخر, يحاول إضاعته بين الحارات... ينظر في المرآة فلا يجد له أثراً...
وجد نفسه في طريق أوسع من سابقاتها فاندفع في سبيله للخلاص...
ثوان ظن نفسه فيها أنه نجا و إذا بالسيارة البيضاء تخرج من بين البيوت على يمين الطريق, خرجت من اللامكان فجأة و وقفت قاطعة طريقه...
بكل قوته داس الفرامل ليتوقف عندها تماماً و تلامس مقدمة سيارته مقدمتها.
أمسك عمر بناقل الحركة و عدله باتجاه الخلف.
نزل الرجل بسرعة البرق, و ركض باتجاه عمر, فمد عمر يده ليقفل الأبواب إلا أنه أقفل خطأً أزرار الشبابيك.
فتح الرجل باب السيارة ناظراً بعيون فيها شرر إلى وجه عمر المصفر, و انهالت يده الغليظة على كتفه... مال عمر بالاتجاه الآخر مثبتاً نفسه بالسيارة و دفع بكل قوته دواسة الوقود هارباً للوراء.
اصطدم الرجل بباب عمر, فركض مع السيارة خطوتين أو ثلاث, ثم عجزت ساقاه عن مجاراة سرعتها فتعثر و سقط ماراً تحت الباب الذي أغلقه عمر مباشرة.
لحظتين فقط وقف بعدها الأصلع على قدميه و عاد راكضاً لسيارته ليتابع مطاردته.
بسرعة دار عمر بمقدمة السيارة في الطريق الواسعة, و هو ينظر إلى الأشخاص الواقفين حوله يتفرجون, يتمنى ألا يتدخل أحدهم و يقوم ببطولة القبض عليه...
و ظل على حاله تلك يحاول النجاة بأي طريقة و يدفعه الرعب القاتل إلى مناورات بالسيارة ما كان ليظن أنه يستطيع أداءها, و رغم حبه لسيارته لم يكن يهتم لأي ما يحل بها, كل ما كان يريده وقتها النجاة و النجاة فقط...
بقرار خاطئ و سرعة جنونية اندفع عمر إلى الشارع العام..

شوارع دمشق المقطعة بالحواجز لا تترك له العديد من الخيارات للهروب, فبعد خروجه من الحارات الشعبية صار أي قرار خاطئ, انعطاف واحد غير صحيح كفيل بأن يتم القبض عليه في مدينة تعج بالحواجز, مصادفة واحدة بوجود دورية أمن, أو أن يتصل الرجل الأصلع بهم, كان كفيلاً بإنهاء القصة كلها... صموده حتى الآن أصلاً كان معجزة...
لكن و بعد فترة قصيرة من خروجه من الحارات وجد نفسه في طريق مزدحم نسبياً, وضعه أمام ثلاث خيارات, إما أن ينعطف يميناً أو أن يذهب بشكل مستقيم أو أن ينزل في نفق على اليسار.
زحمة لم تترك له حرية اختيار واسعة, إلا أنه حاول الهرب من الرجل بأن انحرف يساراً في آخر لحظة و نزل في النفق, فيما اضطر الأصلع لإكمال الطريق في الأعلى...
كان النفق مزدحماً, أنهك التوتر جسده الصائم و بدأ اليأس يتسلل إلى قلبه.
لا يستطيع العودة و راءه و في نهاية النفق على طريق الرّجوع المعاكسة كان عادة ما يتواجد حاجز, غالباً سيستعين بعناصره للقبض عليه... فماذا عليه أن يفعل الآن؟
أين المفر؟!...
استشعر نفاذ الوسائل و انسداد السبل و عمت به حالة من الشلل, من انهيار كل قوة, من انعدام الحيلة, من العجز و منتهى الضعف... الاعتقال يحاصره و لم يعد هناك مفر منه, فجلس في سيارته بصمت المذعور, خلع نظارته و جلس ينتظر ما سيحل به, لا يصدر عنه إلا صوت نبضه المتفجر و نفسه المتسارع...
السير يمشي به ببطء إلى مصيره المحتوم, أيقن تماماً ألّا شيء يستطيع فعله... فنادى عليه.... بعيون الخائف المترجِ, و بلهفة الضعيف الحائر... و من أعمق نقطة في مخابئ نفسه خرجت و حرك بها شفاهه بهدوء المنهك و صريخ الغريق, تمتمها باستسلام كامل و نطقها كأصدق كلمة خرجت من فمه من يوم ولد: " يا الله "
لم يطلب منه شيئاً, و لم يسم له حاجة, فقط نادى عليه, و ظل ينادي عليه...
صَغُر عمر حتى تلاشى, و اضمحلت ذاته, و امحت كل كلمة "أنا" في سجلاته, و كان هو وحده كل شيء...
حين عجز لسانه عن تلفظ أي شيء غير لفظة " يا الله ", كان لسان حاله يقول "كلانا

يعرف.. أنه ليس لي الآن سواك..."
ظل كامل كيانه ينطق بها "يا لله"... كررها و كررها حتى بدأ شيءٌ من طمأنينة يتسلل إلى صدره و يغمر قلبه, مسحة رحيمة مسحت على أنفاسه فأهدأتها, و رغم أنه لم يكن يعلم ما الذي سيحل به آخر النفق إلا أنه هدأ و تماسك قليلاً....
فور خروجه من النفق وجد عنصرين من الحاجز قد وقفا في المنتصف و الأصلع على يمين الطريق و قد ركن سيارته بالعرض و وقف يبحث عن سيارة عمر و هو يكرر الشتائم.
- أين هو ابن الحرام؟!.. أين يظن نفسه سيذهب ابن الكلب؟..
يسقط نظر الرجل على سيارة عمر, فيصاب عمر بالجمود لثوان بطيئة, ينظر إلى وجه الرجل أن ماذا سيفعل بي الآن؟!.. يتابع الرجل بنظره إلى بقية السيارات...
بهدوء و ثبات مجهولي المصدر يمر عمر بملاصقة الرجل يكاد يصدم خاصرته بالمرآة اليمنى للسيارة, و الرجل يطاول رقبته باحثاً عن عمر و سيارته...
لا يدري عمر بأي منطق مر, و لا كيف انسل من بين أصابع الموت, لكنه بكل بساطة تجاوزه و انطلق و لم يفكر حتى أن ينظر إليه في المرآة.
عن يساره طابور سيارات طويل وقفوا على الحاجز في الجهة المقابلة و عن يمينه رصيف يعج بالمارة, من خلفه رجل أصلع و من أمامه النجاة...
لم يكن الوقت الآن مناسباً ليسأل نفسه, كيف نظر إلى سيارتي مباشرة و لم يراني؟ كيف لم يتعرف السيارة التي ظل يطاردها لقرابة النصف ساعة؟... لم يكن يهتم بالإجابة الآن, كل ما كان يريده أن يصل البيت بسلام...
تماسك لأربع عشرة دقيقة أخرى وصل فيها بيته.
دخل المنزل وحيداً, خلع حذاءه رمى مفاتيحه أحماله و ثيابه, رمى كل شيء و توجه إلى المغسلة, يغسل وجهه و يبكي, استغل ألّا أحد في البيت فعلا صوته بالبكاء... استمرت آهاتٌ في داخله بالخروج بكلمة "يا لله"..
لم يعد يعرف بم يؤمن, لكن ما خبره اليوم كان حقيقياً ملموساً, كان أكبر من البرهان و السفسطة الكلامية...
كان طاقة بداخله, كان قوة أكبر منه, ناداها فلبته... كان شيئاً بحث عنه طويلاً, لكنه

اليوم و بلحظة صدق واحدة وجده... عرفه دون تعريف...
عزم أن تظل تجربته تلك لنفسه, فهو يعلم أنه إذا ما ذكرها للمشككين و الملحدين فسيجدون له ألف برهان و برهان و ألف تفسير منطقي و تفسير, لكنه و بكل بساطة كان هناك و يعرف, لأنه يريد أن يعرف...
نظر عمر إلى المرآة بعيون غبشت رؤيتها الدموع, و وضع يده على قلبه و قال بصوت مسموع:
"هناك من وضعك هنا".. ثم نظر للوداجي ينبض في عنقه و قال "و أمرك أن توصل الدم إلى هنا... هناك من بث فيّ روحي, و لم يخلقني عن عبث, هناك من لبّاني اليوم و لم يتركني...و أنا أحبه"
خيوط أولى من وعد بدأ يحيكها عمر في رأسه و هو يتجه لسريره الذي استلقى فيه, و عانق تلك القوة الخفية داخله... توجه لها بحب و تواضع أن سامح تعجرفي, مشتاق و سأصل.. مشتاق و سأصل....
و غط في نوم طويل...

-18-

اليوم الثلاثون من تشرين الأول **2012**

سارحاً يتأمل في الكم الهائل للكتب في مكتبة لا يصل رأسه لنصف طولها, وقف عمر في غرفة جده و كأنه يرى المكتبة للمرة الأولى يرتدي ثياب نوم ما زال يرتديها منذ غادر البيت, ينتظر قدوم أخته في أية لحظة لتأتي له بحقيبة ثياب...

فمنذ حادثة المطاردة و هو زائر في بيت جدته ينام عندها كما نصحه أصدقاؤه خوفاً من ملاحقته أمنياً إن تذكر الأصلع رقم السيارة...

فخرج من بيته حاملاً حقيبة صغيرة لم تتسع إلا للقليل من أغراضه.

ترك خلفه أباً قلقاً و أمّا حزينة و أختاً كئيبة, ليتغرّب في بلده, غربة رغم بشاعتها تظل أرحم من احتمال الاعتقال, لا يستطيع أن يخاطر, كان عليه أن يغادر.. و ما أصعبها في ذاك الوقت من حياته بالذات...

كان يقف مستغرباً... كيف لم يغتنم الفرصة ولا مرة قبل اليوم ليتبحر في كتب جده؟ جدّه

أستاذ التاريخ البسيط الذي بنى هذه المكتبة يوماً بعد يوم و كتاباً فوق كتاب و ضمّ فيها كل هذه الكتب بأنواعها... تاريخ, فلسفة, طب نفسي, روايات, كتب دينية, جغرافية, تشريح جسم الإنسان, بعض الكتب الطبية, مخطوطات لم يفهم منها شيئاً... و وجد في درج أسفل المكتبة دفاتر و أوراق بخط يد جده, كتب على الطرف الجانبي لأحدها 2005 - 2006 أي آخر عامين من حياة جدّه...

أخرجه من بين كومة الدفاتر بعد أن أثاره الفضول ليلقي نظرة على آخر ما خطه جده قبل أن يفارق الحياة, ففتح مباشرة للصفحات الأخيرة..

يقاطع تصفحه جرس الباب معلناً قدوم أخته, فيترك الدفتر و ينطلق ليفتح الباب...

الوشاح الأبيض, الجاكيت البيج, الوجه المنير... صوت مألوف, بسمة رقيقة قديمة قدم تعرفه الحياة, جديدة جدّة المشاعر التي حرّكتها في نفسه...

لوهلة شعر أنّه يراها للمرة الأولى, لحظة رأى وجهها شعر و كأن الأربعة أيام الماضية كانت سنيناً, شعر كم هو مشتاق لها, كيف ننسى الأشخاص الأهم في حياتنا؟ لم هم أهون الناس علينا؟

ضمها بعمق حتى شعر بضربات قلبها في صدره, ليسمع الكلمات نفسها... و يستنشق الرائحة نفسها, رائحة بيت, رائحة وطن غرب عنه...

ضمّة ذكرته بطفولة ضائعة, و أحلام منثورة, ذكرته بلياليهم الصيفية و شجاراتهم الطفولية, تذكر فيها الكثير, تذكر أنه كسير, و تذكر أنه كان بحاجة أحوج ما يكون لأم... فاتخذها أمّاً...

شعر في حضنها بالأمان, و للحظات خرجت من رأسه أصوات ركلات الأمن تكسر بابه, و نسي صوت السلاسل الحديد تنسحب على الأرض, نسي ذنوبه, و كثيراً من آلامه, شيء واحد فقط لا يستطيع نسيانه.. و لن يستطيع...

فيما جلست مع جدته تحاول محادثتها, ترفع صوتها محاولة التواصل مع الجدّة ضعيفة الحواس مدنفة القلب و قد تركها التدخين بلا رئتين و لم تتركه, كان عمر في تلك الأثناء يكتشف محتويات الحقيبة الكبيرة..

ثياب, بعض الكتب و القرطاسية لدراسته, أوراق بيضاء و قلم رصاص كما طلب, و بعض

الأغراض الشخصية, و أحضرت له في حقيبة مستقلة حاسبه الذي لم يكن يستعمله إلا للنت و لا نت في بيت جدته...
ساعة من وطن جلس فيها عمر مع أخته, يستأنس بقربها, و يتناول ما جلبته معها من طعام بيته بيد أمه, قبل أن يتحتّم عليها العودة للبيت قبل أن يحل الظلام...
ظلام يخيم عليه ليذكره بوحدته, و يحشو الوحشة في قلبه, في بيت مات صاحبه و سافر أولاده, بيت هجره أهله و قد تركوا في كل زاوية ذكرى, يتفتّل فيه عمر ينظر للصور المعلقة و الأسرّة المهجورة, بيت واسع استقبله بكل رحابة و لم يلزمه أكثر من لياليه الأربعة تلك ليربط به عمر عاطفياً و كأن حزن هجر أهله له وجد في عمر ما يشبهه...

حمل كتبه قرطاسيته و أوراقه و عاد إلى المكتبة, رتب أحماله و وزّعها في رفوف الغرفة, و عاد لتأمله الكتب... بعضها وضع على الرفوف مبعثراً و بعضها في صناديق كرتونية مهترئة.
أخذ يرتبها يصفّ قسماً منها إلى جانب بعضها, و يخرج الآخر من الصناديق إلى الرفوف و يعيد تصنيفها على مهل, و يضع في زاوية واحدة ما قد يفيده في بحثه, إذ كان قد أخذ وعداً صارماً على نفسه أن يجدّ في البحث, و ألّا يترك نفسه تائهاً و يترك أسئلته سابحة في تلافيف دماغه تثير الشك دون أن تقيدها مرساة اليقين.
في البدء كان طابع الكتب التي اختارها كلها دينية أو تصب في صالح إثبات صحّة الدين, إلى أن وجد كتاباً يطرح الفكر المعاكس تماماً, أدهشه وجود كتاب مماثل عند جده, فأفرغ زاوية أخرى من كتبها ليضع فيها هذا الكتاب و كل ما على شاكلته ليبحث فيها أيضاً, سحب الكتاب ليجد تحته آخر و آخر و آخر لمؤلفين مختلفين و بطرق تفكير متنوعة, إلى أن صار عدد الكتب في كلا الزاويتين متساو تقريباً...
بقطعة من قماش يمسح الغبار عن الكتب و الرفوف, يأخذ فكرة سريعة عن بعض الكتب و يختار لها مكاناً بين مثيلاتها...
أنهى ترتيب المكتبة, و عاد خطوة للوراء نظر فيها بشيء من رضىً إلى إنجازه, تواز الكتب و تناظرها... تنهد تعبه خارج جسمه و أخذ شهيقاً طويلاً مشبعاً برائحة الكتب و الحماس للبدء بها, ثم أطفأ نور الغرفة المرتبة حديثاً, أغلق بابها و اتجه إلى سرير خاله الذي بات

سريره الجديد...
سرير طريّ و أريح من سريره, و إلى جانبه ضوء قد يساعده على القراءة قبل النوم, لكنّه لا يعرف شيئاً عن طفولته و لا ذكرياته, لم يخبر شيئاً من آلامه أو أحزانه, لم يسمع من قبل ضجيج الأفكار في رأسه, و لا يصدر صريراً أثناء تقلبه ليواسي حيرته...
ما أن أطفأ الضوء بجانب السرير, و استلقى على ظهره, حتى تسللت إلى جسده متخفية بغطاء الظلام حمّى علا....

انقضى الليل الطويل و أطل عليه الصباح بلا شروق, أي شروق هذا بدونها و دون الشمس التي تتسلل أصابعها من نافذة غرفته فتمر على جبينه لتوقظه؟
ذهب إلى مشفاه كما عليه أن يفعل, ليقضي الدوام كما عليه أن يفعل...
طبيبه المشرف هذه الفترة يعتبر ممتازاً, فكان عليه أن يستغل الفرصة ليتعلم منه, فالدكاترة الجيدون قلّة.
يحاول جاهداً التركيز إلا أنها تتسلل بهدوء و ثقة لتسرقه من نفسه, يجاهد ليطردها من رأسه بلا جدوى حتى تربح المعركة تشلّ كل جنوده و تحتل كامل تفكيره و كيانه.
فيغدو ينظر إلى شفاه الطبيب تتحرك شارداً فيها و لا يصله منها صوت... يسأل نفسه و ما الفائدة؟ و ما قيمة هذه الحياة؟ و ما قيمة أن أعالج الأمراض و لا أستطيع علاج الحزن المزمن في نفسي, و الألم الطاعن في صدري؟...
إلى أن يمر الدوام و يخرج من المشفى هائماً على وجهه لا مكان له يقصده, يتمشّى بنفسه مع نفسه و لا يصاحبه إلا الألم يرافقه كظله فلا يتركه...
لا يعيده لبيته أو بالأدق بيت جدته إلا المكتبة التي كانت تنتظره أن يغرق فيها عل الغرق يريحه.
يصل البيت حاملاً معه بعض الطعام اشتراه له و لجدته المسنة...
يتناول نصف حصة بالكاد, و قد فقد الطعام مذاقه و لذته, و يسرع لمكتبته يتناول كتبها...
بادئ الأمر كان محتاراً من أين يبدأ, إلا أنه وجد نفسه يباشر بالكتب التي يدعم فلاسفتها

نظريات الدين, يختار كتاباً يعجبه اسمه من بينهم و يفتحه من منتصفه و من صفحة لا على التعيين, يقرأ منه فقرات ثم يغلقه منتقلاً لغيره, إلى أن شده أحدهم بأسلوبه فعاد لبدايته, و بدأ يمشي به بانتظام...

كانت اللحظات تلك نادرة, و ربما كان يخبرها للمرة الأولى, فعمر قليل القدرة على التركيز في القراءة, و لا يقدر على الصبر لفترات طويلة في قراءة أو دراسة, لكنه كان جالساً هناك لا يتحرك, يغوص في الكتاب واضعاً كلتا يديه على رأسه, مقطب الجبين وقد احمر وجهه لتدافع الدم إلى رأسه و دماغه, يرفع رأسه بين الفينة و الأخرى و يحملق في السقف يفكر للحظات بجملة قرأها أو يحاول استيعاب فكرة و تحليلها...

تشدّه الأفكار و اهتمامه بالموضوع كما لم يفعل كتاب من قبل, و رغم ذلك يظلّ طيفها في خياله و رائحتها تراقص روحه رقصة عذاب تسحبها ترفعها لتنساب وراءها لتتركها دون نيل الوصول بقليل, كلما حاول تجاهل صوتها في رأسه أطلت عيونها من حرف العين في كتابه, و انسابت خصال شعرها متدلية على حرف الشين, تحاصره من فوقه و من أمامه حتى لا يجد لنفسه مفر...

لا ينهضه عن كتابه إلا حاجة قصوى أو الصلاة بعد كل أذان...

يصلي على سجاد الغرفة القديم, يترك الكتب وراءه و يستقبل القبلة ليقبل عليه...

يؤديها بكامل الوصول, يؤديها ببطء المستسيغ, بطء و تأنٍ يجعله يشعر بالخجل أن لا نعود إليك إلا ساعات الضعف و التعب...

يستشعر القرب بهدوء, يطلب منه العون, عون القادر للعاجز... يستسمح شكّه ضعفه و نقصانه, يحادثه أن حتى لو لا أفهمك بشكل كامل, فما أعرفه عنك يكفيني, و يستشعر جملة "إياك نعبد و إياك نستعين" لأقصى عمق, حتى أنه يعيدها أكثر من مرة, يدعوه بالفرج, يحادثه و يشكو له, يشكو لرب لا ينساه إذا ما نساه الجميع..

ثم يجلس على الأرض دقائق يشرد فيها تطول أو تقصر ثم يعود لكتابه.

يجالس الكتاب, يحلله لأدق جملة و تفصيل, يمرّر كل فكرة على مصفاة داخلية يأخذ العقل على عاتقه الجهد الأكبر في تشكيلها, يتفحّصه بنظرة المشكك الناقدة تارة, و يهز برأسه مترنماً على لحنه تارة أخرى...

يحل عليه الظلام, و تكاد عيونه تعجز عن أن تبقى مفتوحة, فينزح إلى سريره و قد حمل الكتاب بيده, لصعوبة تركه إياه من جهة, و محاولة لتأخير إطفاء النور و بداية العذاب من جهة أخرى...

ينام على ألحان دكها قلبه بالأشواق, و قصف مدافع قاسيون أحياء مدينته الجنوبية...

لينهض إلى يوم جديد لا يختلف كثيراً عن سابقه.

ينهض كل يوم باكراً ليذهب للمشفى, يصل بابها يقف أمامه ثم و في كثير من الأيام يقرر ببساطة ألّا يدخل, يحضر مرة أو اثنتين في الأسبوع فقط, و في البقية يظل يدور مشياً أو في الباص, تجول أفكار الدنيا في رأسه, بعيون غادرتها الحياة يحاول فهم الحياة... ليعود مساءاً لكتبه.

عمر شخص اجتماعي و الأشخاص حوله لا ينتهون, إلّا أنه في تلك الفترة كان يهرب من الناس و دنياهم و إن صاحبهم فيصاحبهم بجسد خاوٍ تركته روحه, و انشغل عقله... و زاد عليه عزلته انقطاعه عن النت و عن عالمه الافتراضي الحقيقي الذي كان يعيشه.

بطريقة ما خرج من تعقيدات البشر و صار يراقبهم من بعيد...

بعد فترة ليست بالطويلة, بدأ بالنوع الثاني من الكتب, و دون أن يشعر صار يقرأ في ثلاث كتب معاً ما لبثت أن صارت أربعة بعد بضعة أيام, كتابين من وجهة نظر و الآخرين من المعاكسة, يفتحها على الأرض و يحمل قلمه الرصاص, يسطر تحت المثير, و يحاول أن يجد لكل طرح إجابة, يلخص على أوراقه بعض الأفكار و يصل مع نفسه لما يرضيه و يقنعه...

انغمس الشاب دون أن يشعر و صار مهووساً بتلك الكتب و اطروحاتها...

فغير الكتب و أوهام أن يصحو ليجد رسالة من علا في هاتفه لم يكن يتناول شيئاً, إلا اللّهم ما يبقيه على قيد الحياة.

صام عن الدنيا و لذّاتها, و غادره طيف الفتيات حتى من مناماته...

ينسى تسريح شعره أو حلق ذقنه, و لولا أن وضع الاستحمام السريع صباحاً ضمن روتينه اليومي لظل بلا استحمام...

رويداً رويداً صار روتينه أكثر انتظاماً, و قد دخلت فيه ساعة لقراءة ما له علاقة بالطب و نصف ساعة للرياضة... بشكل ما تحول الطب من الحفظ إلى الفهم, و صار الالتزام

بالرياضة ليس صعباً... لا يعرف لم, ربما لأنه صار لديه وقت الدنيا كله, فلا تلفاز يأسره و لا نت يشتته و لا فتاة تنتظره, و فيه من البؤس ما يصرفه عن كل مشتتات الحياة...
كان عمر يعاني من حزن لا يطاق, لكنه يشعر في نفس الوقت أن الحزن يغيره بطريقة غريبة, يخرج منه عمراً آخراً ما كان يعرف أنه سيقابله يوماً... ما جعله يعلق ورقة صغيرة على أحد رفوف المكتبة كتب عليها جملة لمحي الدين بن عربي "كل حزن لا يستمر لا يعول عليه".. كان حزيناً للغاية و كان عليه استغلال ذلك...
لم يقف نهمه للكتب عند حد, فصار يبحث من المراجع على المراجع, و يطلب من أخته جلبها له من النت مع كل قدوم... و أحياناً ينزل لمحل نت قريب عندما لا يقدر على الانتظار...
لم ينه إلّا كتاباً واحداً منهم... فقد كان يقفز من كتاب لآخر يسترق فكرة من كلٍّ منهم و يبحث عن نظيرتها.
الكتاب الوحيد الذي أنهاه كان رواية وقعت بين يديه و كأنه قد خطط له ذلك, شدّته فأوسع لها وقتاً في روتينه جعله قبل النوم مباشرة... كانت الرواية تدعى "الزحف نحو السماء" و كانت تتحدث عن شاب يبحث عن الفهم الحقيقي لله, فكانت على بساطة لغتها, و بعدها عن التفاسير المنطقية الدامغة, مساعدة مريحة, طمأنته أثناء رحلته الفكرية, و أنهاها في أقل من أسبوع...
جعله الحزن عاطفياً أكثر أو ربما أكثر إحساساً بالمعاناة البشرية, تنتظر دموعه دفعة صغيرة لتغادر جفونه.
يذرفها لسماع سائق تكسي عجوز يروي تفاصيل قصف بيته و نزوحه تاركاً ذكرياته مردومة تحت الركام, يتعاطف مع الصبية الشحاذين في الطرقات, يحاول إسكان الألم داخله بأن يساعدهم, لا يكتفي بالمال الذي قد يذهب لمن أرسلهم يعملون كشحاذين بل يشتري لهم قطع الحلوى و في بعض الأحيان جالسهم و حادثهم...
ينظر للناس بحب صادقٍ أصدق من أي يوم مضى, و كأن عنده حب فائض عليه أن يوزعه بلا شروط, و في نفسه شيءٌ من شفقة لحالهم... ينظر لهم يقول لنفسه انظر ما أضعفهم... يستغرب قدرتهم على الضحك... إذ ملأت الكآبة حياته حتى لم يعد يرى للضحك منطقاً.

مرة جلس في العناية المشددة وحيداً, يراقب المرضى, ينظر لأحدهم و قد أوصلت إليه أجهزة القلب و التنفس... أنصت إلى ضربات قلبه المتكاسلة ثم وقف إلى يمينه يتأمل في عيونه النائمة, يمسح بيده على رأسه, يرتب شعره الشايب, و يمسح بقطعة شاش وجهه الصامت, و يسأل نفسه... ترى لو خير بين أن يموت في ثورة قامت في شبابه في عمر قريب من عمري أو أن يموت هكذا, بعد أسابيع من غيبوبة تقوم فيها الآلات بوظائف أجهزته, و قد هجره حتى أقرب الناس إليه, ماذا سيكون خياره؟ ترى هل كانت أيامه التي قضاها في الفرق ما بين عمري و عمره تستحق أن يعيش؟ ألم تكن معظمها أحزان و بؤس؟... ربما يحتاج الناس في الخارج أن يروا ما يحدث داخل هذه الغرف.

أيام و هو يلملم نفسه بالكاد, بلا جدوى يهرب منها إلى الكتب, و رغم وفرة ما يقرأه كانت النتائج التي يصلها بطيئة... تشعره أن: مهما بحثت فإن الجواب بمعظمه يأتي من عندك...

أحياناً كان يشعر بالغيرة من علا... كانت قادرة على اتخاذ القرار الذي يمليه عليها عقلها, ربما قد يصل لقناعات تماثل قناعاتها, لكنّه كان يستصعب مغادرة بيت آواه حتى لو بدأت جدرانه تدلف عليه, علا لم تكن كذلك... و رغم أنه كذلك كان يريد ألا ينقص هذا من موضوعية بحثه...

ترى هل كان صلباً معها؟ هل أخافها؟ ربما أراها عن نفسه صورة أصلب مما هو عليه... هل أشعرها بشيء من التقييد؟ هل أشعرها برغبة منه باستملاكها؟ كم مرة كرّر أمامها كلمة "على الشخص تغيير نفسه لأجل من يحب" و كأنه ينوي أن يمحي هويتها؟ طيب و ما الفائدة أن يلوم نفسه الآن؟ أينقص قلبه لوماً؟...

تراها هل أحببته و لو للحظة؟ و متى كانت تلك اللحظة؟

يشتاق إليها, إلى الهواء حولها حيث كان يجلس إلى جانبها, فلا يفصله عن الجنة إلا أربعين سنتي متراً, يشتاق... فيخرج قلمه الرصاص و يمسك ورقة بيضاء... يكتب, و يكتب...

يعرف أن رسائله إليها لن تصل, فيكتب رسالة إلى الله...

يكتب فيها ما يكتب, يصب فيها آهات قلبه, ثم يطويها على حزنه و أشواقه و يضعها في صندوق قديم في مكتبة جده.

يمشي في الطرقات هارباً منها... و أين يهرب؟ لم لم يتركوا مكاناً لم يزوروه؟ أكان عليهم أن يتركوا في كل مكان ذكرى تحاصره بها؟
يشعر بها تسكن فيه إلا أنه يشعر نفسه يمشي فيها, و مهما مشى و ابتعد فإنه لن يخرج منها..
فتاة كانت تتجلى فيها منتهى حريته, صار حبيساً فيها... تنظر إليه بعيونها بأشجارها البنية في الطرقات تراقب تعذيبها له, تلاحقه بحة صوتها في حفيف الأشجار, يمشي على شعرها في الطرقات المزفتة.. و يسمع اسمها في كل أغنية, كانت في كل مكان حوله, كانت هي دمشق و سماءها.. أحلى أحلامه و أقتم كوابيسه...
يجري إهلاسها في دمه كعقار يريه ألواناً غير الألوان, و يسمعه أصواتاً غير الأصوات, و تخلط في رأسه الروائح بالموسيقا في دماغ يضج بألف نقطة و فكرة في نفس الوقت, لكنها كانت تحتل لنفسها بنقطة دائمة مهما شغل باله بأي شيء آخر, كانت اللون في خلفية دفاتره مهما كتبت أفكاره فوقها فإنها لن تخفيها بالكامل...
يتذاكى ليتجنب التفكير بها, فحين يستشعر هجوماً منها أو يشتم عبق رائحتها تقترب يسرع ليغلق باب رأسه و يحكم القفل, و يضع خلف الباب ألف متراس و متراس, ليكتشف بعد قليل أنه أغلقه عليها... و هي ساكنة داخله تتربص به, يتطاير شرّرها في كل مكان... فيصارعها, يحاول استرجاع دماغه, يبعدها, و يشتبك معها بأسلحته البسيطة, لتنهكه و تطرحه صريعاً... فيسلم لها و للتفكير بها, يعيش إلى جانبها, تحيك مخيلته قصصاً معها... و يسبح فيها, يترك موجها يذهب به كيف يشاء, و يظل لساعات كالسكران مأسوراً ببريق طيفها و تراقص موجها, لتأخذه بعنف بلا أي رحمة حتى إذا ما شاءت ألقت به, قذفته بشدة و رطمته بصخرة كتب عليها "هي ليست لك".. فيخر من ألم الصدمة منهاراً...
قضى الفتى أياماً و شهوراً يتجنب النظر إلى الأشياء العاكسة, يخشى النظر إلى عيونه في المرايا, نوافذ السيارات و واجهات المحلات, يتجنب رؤية ما فعل الحزن بهما, يخاف أن يرى طيفها في أعمق نقطة فيهما...
لم يعد شيءٌ قادراً على إسعاده, و لم يعد يتابع تفاصيل الأخبار و لا إنجازات الثوار, و لم

يعد لأي فرح أو أي انتصار صغير طعمة كسابق عهده, يشعر بتأنيب الضمير إذ أن شوقه ليوم النصر الكبير مات في صدره, أي فرحة هذه إذا كان سيعيشها وحيداً؟ و أي نصر هذا إذا لم يشاركها الاحتفال به؟ بمن سيتصل لحظة سماعه الخبر؟ مع من سيجري الاتصال الذي كان من قبل قد كرّر تفاصيله في ذهنه عشرات المرات؟...

الخامس من كانون الأول **2012**

في غمامة من دخان جدته, في غرفة الجلوس, يسأل نفسه عن الذي مات فيه حتى يسمع خبر استشهاد أبو جوزيف فلا يستطيع أن يشعر بشيء, لا يستطيع أن يحزن أكثر... هل اعتاد الموت؟ أم أن زهده بالحياة وصل ذاك الحد؟ و ماذا يستطيع أن يفعل؟... الموت في كل شبر من بلده, و كاد ينال منها في البارحة, فقد نزلت قذيفة هاون تبرأ منها كل من النظام و الجيش الحر بجانب بيتها, و كادت تودي بحياتها...

ماذا لو ماتت؟ هل سيموت معها حبها؟ هل سينتهي معها ألمها؟ هل سينسى جرح رجولته؟...

بكل الأحوال لن يراها بعد اليوم, فحياتها و موتها بالنسبة له سواء, و لن يغير موتها شيء في حياته...

بشيء من قسوة على نفسه, و بصرامة ولدها إزمان الألم, لمعت الفكرة في رأسه.

ربما تردد قليلاً و ربما شعر بالذنب و تأنيب الضمير, إلا أنه قرّر أن ينفذ الفكرة و أن يقتلها في رأسه, أن يعتبرها قد ماتت, لا يعرف إن كان يستطيع ذلك و لا إن كان يعي قراره أم أنه من أثر الألم و دوار الدخان, لكنه قد يعطي فرصة لأي شيء يريحه من عذابها... فاعتبرها من الآن قد ماتت بالنسبة له.

قام إلى مكتبته و قد دفنها في ماضي ذكرياته إلى جانب الكثير من آلام طفولته... شعر و كأنه عزل بؤرة كاملة من دماغه, بما فيها من أفكار و ذكريات, ثم ردمها برماد قلبه المحروق.

و رغم عدم تخلصه من الألم و الشوق, إلا أنه شعر بطيف من راحة, أمل بعودته إلى الحياة... فيوماً ما عليه أن يكمل حياته و يتأقلم مع عدم وجودها فيها.

مرت أربع و عشرون ساعة استشعر فيها بفسحة أمل, لم تتركه طليقاً إنما أرخت حبال قيودها قليلاً عن قلبه و معصميه فقط...

كان يقرأ كتاباً لأحد اللادينيين يتحدث فيه عن أسباب تركه للدين, و وجد في نهاية الكتاب اسم كتاب آخر للكاتب نفسه شرح فيه أسباباً أخرى, فأخذ اسم الكتاب و نزل لمقهى نت قريب ليبحث عنه...

دخل المقهى و معه وحدة ذاكرة صغيرة ليضع عليها الكتاب, فتح الحاسوب, وجد الكتاب مباشرة و أخذه في وقت قصير, أتيحت له فسحة من وقت فتح فيها حسابه الشخصي و أخذ يتصفح في صفحته الرئيسية رويداً...

يتجول في حساب لا يقترب فيه من مجريات الثورة, تبدو فيه الحياة طبيعية و البلد بخير, الناس تعيش حياتها و الشمس مشرقة, إلّا أنها انخسفت فجأة خلف سواد داهم...

بصورة بالأبيض و الأسود و بعيون جمالها شديد الوقاحة, أطلّ وجهها يحتل شاشته بابتسامة ثقة, ابتسامة سخرية أن كيف تجرؤ؟ صرخت فيه بكل وضوح... "أنا هنا" من أين لك أن تقتلني؟!...

بأي سلاح يا عديم الحيلة؟..

فجأة عادت الفتاة التي قتلها للحياة لتطعنه في القلب مباشرة, خرجت من الشاشة و سحبت روحه و طارت بها إلى مكان أبعد ما يكون عن جسده, طارت بها إلى مكان بارد موحش و تركت الجسد مذعوراً مرتعشاً, شدتها بسرعة كبيرة متفاخرة بقوة قيودها, لتفهمه أنه أبعد ما يكون عن الخروج من شراكها, فلا تغرنه ارتخاء القيود, فهي لم تنته منه بعد...

كالطفل لا يفهم ما يبكيه, و لا ما حل به, حمل قطع نفسه الكسيرة و رجع للبيت,

ينطوي على نفسه... على ألمه.
لقد بدت سعيدة...
كانت هناك تعيش حياتها كما تعيش, تضحك, تسعد, تتسلى و ربما قد تحب... و في آخر النهار تقلّبه على الوجه الآخر في مقلاتها...
كان هنا يموت كل يوم دون أن يموت, يبتئس, يتألم, يعاني و ربما يبكي... و في آخر النهار يقلب في سريره على نار حبها...
فلتعش كما تحب, و ليتعذب كما عليه أن يتعذب, علّه تُحفظ عليه بعضٌ من كرامته أنها لا تعرف ما يحلّ به...
تلك الليلة كانت نوبة من نوبات جنونه... مهرجان جنون سمع طبوله في رأسه في بداية اليل فقرر ألا يتجه للسرير, فلا نوم الليلة...
جال في البيت... مشى فيه جيئة و ذهاباً لعشرات المرات, يدور في البيت و يدور البيت حوله, يمشي فيه كمن يهرول ليلحق حافلة تركته وحيداً نادماً أنه لم يدركها لم يتمسك بها... أو ربما يتمنى لو أنه لم يقابلها في حياته, و لم يسمع باسمها و لا رأى طيفها...
ضجيج الألم في رأسه يصرخ دون انقطاع أن "إلى متى؟"..
و يتزاحم الصراخ حتى تختلط نبرات الأسئلة و الأفكار... ككورال حزين غاضب.
فلتأخذ أيام عمره و لترجع له يوماً... يا لمصيبته إن قضى أيام عمره مأسوراً في حبها...
كيف؟ كيف يا ذات الشعر الأسود حولت السؤال في أسابيع, في أيام... من هل أستطيع العيش معها؟ إلى هل أستطيع العيش بدونها؟...
ليلتها فهم الفتى.. عرف... و آمن أن جنون مجنون ليلى كان قمّة العقل...
صار ينظر إلى هاتفه و هو يدور حوله ماشياً يستمع إلى الأصوات في دماغه و كأن أصحاب تلك الأصوات قد تعلموا لغات جديدة حديثاً...
ثم أخذ الهاتف و ضمّه... و أكمل مشيه الذي بات أشبه بالهرولة...
تجمعت كل النسائم التي تذكرها بها, كل المرات التي اشتاق لها, توحدت في عاصفة, تفتل به, و لا تترك له حولاً و لا قوة...
بحث عن اسمها بين الأسماء... و نظر إليه ملياً...

أكمل مشيه إلى أخر الصالون ثم وقف و عاد ينظر لاسمها من جديد, تأمل فيه للحظات ثم لمسه بإصبعه بهدوء... كفراشة تلمس نارها بجناحيها...
بدأ هاتفه يتصل بها... و كانت الساعة الثالثة صباحاً...
صرخت به كرامته... أن لا يا عمر... يكفي يا عمر...
ليس مجدداً يا عمر... لم يبق لك غيري.. لا تنتحر يا عمر... لا تنتحر...
بطاعة الطفل المهذب, بانصياع مجنون مسالم, هز رأسه.. سمع الكلمة.. أطفأ الجهاز.. و خر منهكاً منهاراً...

كم من الأيام يلزم الإنسان لينسى حبّاً؟ كم يلزمه من الوقت مقابل كل دقيقة مرت مع الحبيب؟... كم من الكيلومترات عليه أن يمشي لينسى كل خطوة معها؟... كم من الأحلام عليه أن يرى لينسى نظرة عينيها؟ كم من الدموع يلزمه ليعصر آخر نقطة من سمها؟...
كانت المعلمة التي لقنته الحب للمرة الأولى... المعلمة التي محت أميّته بالحروف الأولى للحب, ثم تركت طالبها وحيداً يتعلم بالطريق الصعبة بقية المعاني, يبحث عن أجوبة تلك الأسئلة وحده, يتعرف مرارة الحب بأن يذوق جرعاته واحدة تلو الأخرى, بأن يتلمس نيرانه بأصابعه... و هل أرسخ من التعلم بعد التجربة؟
معلمة قاسية رمت طالبها في منتصف المحيط ليتعلم السباحة, ليتعلم أن ما يسمعه من أساطير الحب و ملذاته خطير و خطير جداً...
تركته يتعلم أن أحقر سؤال في الحب هو "لماذا؟"
"لماذا تركتني؟ ما العيب فيني؟ هل كان اختلاف المعتقدات حجّة؟ لماذا لم ترضى فتاة كعلا بشاب كعمر؟ لماذا لم تحببني؟... لماذا؟"
يتعلم أحاسيس و مشاعر ليس لها مسميات في القواميس... كأن يشعر الدماء تمشي بطيئة في جسده.. تمشي ثقيلة حامضة و قد أشبعت بالحزن حتى بات القلب منهكاً أجهده صعوبة ضخها...

أن يشعر نفسه ناقصاً, يحتاج لما يكمله, كماله دونها مستحيل, فراغ في روحه و جسده... و كأنه يمشي و قد عض قرش خاصرته من جهة كبده, اجتزأ قوساً من بدنه, يمر منه الهواء بارداً كمن يرش الملح في عيون الجرح... أحاسيس ما كان ليفهما و لا تختصر بمفردة تعبر عنها...

بات نحيفاً بالكاد تحمل ساقاه المتعبتان رأسه الذي زاد حجمه بشعر منفوش و ذقن كثة... جسده نخره التعب حتى بات هشاً هجرته الحياة و ذبلت فيه الروح...

يرسم بخيالة الكئيب مشاهداً من حياة يقضيها مع امرأة يجتهد ليحبها فلا يستطيع... مع زوجة في أفضل حالاتها لن تبلغ مهما اجتهدت العشرة التي كانت تحتلها علا.. و علا فقط, و يفصّل خياله بالمشهد حتى يجد نفسه في ساحة عامة مع الزوجة المفترضة و معهما ولدين... فتمر به علا...

تمر كلعبة باهظة الثمن على واجهة محل, وقف أمامها طفل فقير يشتهي بيأس ما ليس له, يأس جعله بائساً زاهداً بما بين يديه, يحاول أن يرضى به لانعدام حيلته...

أيام و هو يحترق حتى لم يبق فيه شيء يحترق و كلما ضعف لهيبها فيه, وجدت لنفسها طريقة تذكره بنفسها...

مرة قصد كافيه ليجلس مع كتابه ظاناً أنها لن تجد طريقها إليه...

حين دخل الكافيه وجده مزيناً, ألوان كثيرة لم يلق لها بالاً.. و اتجه إلى كرسيه المعتاد.

ما أن بدأ القراءة حتى سمع بصوت عال جماعي: مفاجأة!!... و لقد تفاجأ بالفعل...

رفع رأسه ليجد طفلة صغيرة شقراء الشعر قد دخلت من الباب و الجميع يحتفل بها, و قد كتب بكرتون الزينة: عيد ميلاد سعيد يا علا!!... و ظلوا يغنون لعلا و يحتفلون بعلا... حتى غادر المكان و تركه بما فيه لعلا...

و ظلت لشهور تمسك به بخيط رفيع كالدّمية المقيدة, تدخله في حبها و تخرجه منه كظرف الشاي يغمس في الماء المغلي...

الخامس و العشرون من كانون الثاني **2013**

الساعة الخامسة مساءً

استلقى عمر في السرير ليأخذ قيلولة, يضع رأسه على المخدة و نافذة الغرفة تهتز فوق رأسه, لا يستطيع التمييز بين صوت الرعد و الريح و القصف المستمر على أطراف دمشق و ريفها.

كان لتوّه أنهى كتاباً اسمه "رحلتي من الشك لليقين" كتاب صغير لطبيب يدعى مصطفى محمود, يحكي فيها عن رحلة إيمانه و دلائلها العقلية, قرأه في يومين فقط, و شهد له بالصدق و اللغة العلمية البسيطة و النقاط الفكرية القوية و النظرة المتسامحة, و عاب عليه بعض النقاط الضعيفة أو المعتمدة على شيء من العاطفة...

إلا أنه كان من الكتب التي أعطاها تقييماً جيداً بين الكتب الكثيرة التي قرأها في الشهور الماضية, نظراً لخفته و اختصاره... ما قد يشجعه على قراءة المزيد من الكتب لنفس الرجل...

كان عمر يعرف أنه لم يعد هناك من داع للنوم في بيت جدته, و أن أي خطر أمني كان لتظهر له بوادر في الشهور الماضية...

إلا أنه كان يستغل الفرصة ليصاحب الكتب أطول فترة ممكنة, لينظم حياته و يطور نفسه, أراد أن يكمل رحلته الفكرية, التي كان يعزم ألّا تكون لها نهاية قريبة أبداً, و أن يتابع ما بدأ به بعد عودته للبيت التي كان ينوي أن تكون في الأسبوع القادم... رحلة فكرية هي رحلة العمر, قد يقضي عمره كله و يموت و هو يحاول البحث عن نتائجها...

كان في الفترة الماضية يحاول بلورة أفكاره, لا يترك الكتب و لا دفاتر جده التي فاجأه محتواها بكونه نقاشات فكرية مع نفسه و مقارنات و مقتطفات من الكتب, مذكرات و

تجارب تعكس مرور جده برحلة فكرية مشابهة...
كان عمر يسأل كثيراً من الأشخاص حوله و خاصة أصحاب العقول اللامعة عن آرائهم, يحاول أن يلقي نظرة عن نسخهم الإيمانية الخاصة.
يذكر مرة جواب أحدهم لا ينساه أبداً حين سأله من هو الله بالنسبة لك, فأجابه: الله كما أؤمن به يجيب الكافر به المضطر له...
لاحظ توجه الناس إلى التساؤل كثيراً في تلك الفترة, فلم يكن هو حالة خاصة.. لا يعرف السبب بدقة لكن لربما كانت ظروف الثورة و ما يتعرض له الناس من شتى أشكال القتل و التعذيب و حاجتهم للخلاص, و لله المخلص...
لمرة واحدة قابل شيخاً, حاول أن يحصل منه على بعض الأجوبة, لكنه تفاجأ بضحالة نظرته و تقييد فكره, أحرجه بحضور درس فقه له, فزاد عليه ضيقاً بعض ما جاء فيه دون فهمه, كان الدرس عن القصاص و الديّة, و صار يسأل نفسه لم تكون دية المرأة نصف دية الرجل, و لم لا يقتل الحر بالعبد؟...
قابل شباباً كثر.. فاجأه بعضهم بوعي و انفتاح...
شاءت الصدفة أن يكون أحدهم يدعى عمراً أيضاً, احتك به أكثر من غيره.. كانت نسخته الإيمانية نابعة من كونه طبيباً نفسياً, فكان يمشي من منطلقه العلمي فيطابق ما يتماشى مع الدين و لا يغوص في تفاصيل أخرى... مثلاً هو يرى أثر الغيبة السلبي على النفس البشرية بأن تورث الضعف في الشخصية, فالمرء حين يغتاب أحداً يعكس و بدون شعورٍ الأمر على نفسه... فكما يتحدث عن الآخرين بسوء يخاف من أن يتحدثون عنه كذلك, فعادة ما تصاب شخصيته بضعف يكسر مقوماتها الداخلية... أو أثر النرجسية أو الرياء على نفس الشخص مثلاً, و غيرها من آفات السلوك...
فكان يرى أثر تلك الآثام من منظور علمي ثم يقول نهاني ديني عن هذا فسأوافقه و هذا ديني...
و لا يأخذ الأمور بحرفيتها المطلقة و لا تفاصيلها المعمّقة...
آراء و آراء أعجبه بعضها و لم يفعل الآخر, ساعدته في إعطاءه حجارة لتكوين لوحته الفسيفسائية الخاصة...

نام ساعة و نصف الساعة ثم أفاق من قيلولته, أخذ دوشاً سريعاً, حضر كأس شاي, حمله و اتجه إلى المكتبة...

أضاء نورها, و اتجه إلى دفاتر جده, أخذ الدفتر الذي كتب على جانبه **2005** - **2006** فتحه بصورة عشوائية من منتصفه, فوقعت عينه على عبارة خطت بيد راجفة قد نهشها المرض:

" ... فهذه الحياة عذاب و تعب و نضال, هذه الحياة تحمل بين أيامها ما لا يخطر لك من المصائب, الخيار لك, إما أن تجعل لذلك معنى, أو أن تذهب إلى أنّ كلّ شيءٍ فيها عبثٌ و تعاني ما تعاني دون دافع أو معنى..."

بداية محفزة لدفتر كان آخر ما كتبه جده قبل وفاته... عاد لأوله و بدأ القراءة بهدوء... ما أن أتم قراءة أول صفحتين منه حتى عرف أنه لن يستطيع التوقف عن القراءة...

كانت كلماته بسيطة هامسة, تخاطب العقل, و تداعب الروح... كلمات تعكس تسامح الرجل و عمق تفكيره. تفوح رائحة القهوة التي لم يكن كأسها يفارق الجد من بين صفحات الدفتر, و تسري الأفكار دافئة هادئة, و كأن جدّه كان يجالسه يخاطبه بطيبته و حنيته المعتادة...

مرت عليه الساعات بهدوء و سكينة, يتلذّذ بكلِّ حرف, و ترتسم على وجهه المرهق ابتسامة رضى.

أتاح له ذاك الدفتر الصغير نافذة يرى منها العالم من منظور جديد, أحياناً كان جده ينتقل فجأة إلى فكرة أخرى بطريقة تعكس كون الدفتر أشبه بمذكرات أو تجميع أفكار, لكن دون أن تفسد تناسق سيمفونيته التي أذابت مسامع عمر و أسكرته على أنغامها.

بنهم غير مسبوق يتناول صفحاته الواحدة تلو الأخرى, يعيد بعض الأفكار الآسرة أكثر من مرة, و تصدر عنه بين الفينة و الأخرى صيحة إعجاب طويلة هادئة تخرج من العمق " الله...!!"

مزيج من كلمات العقل تنتشي لها الروح و يقشعر لها البدن حتى يخرج عمر روحه من

جسده و يتجه بها إلى روح جدّه يعانقها... يغمض عينيه و لسانه يكرر "رحمك الله.. رحمك الله"

كم تأثر حين ضرب جده مثلاً جاء به على ذكر زوجته, فظهرت من بين الحروف مشاعر حب عميقة, مشاعر صادقة لم تقدر السنون على إذبال أوراقها...

فيما كان منكبّاً على القراءة بدأت عتمة السماء تنجلي بهدوء, و بدأت الألوان المتدرجة تتخطط فيها, غيوم حمراء رقيقة تعكس إرهاق اللّيالي و كثرة الدموع, و سكون تقطعه على استحياء بعض زقزقة العصافير...

فتح عمر لآخر الدفتر فوجد أن هناك عدداً من الصفحات البيضاء التي لم يُكتب عليها شيء, و أنه بقي عدد قليل من الصفحات فقط ليقرأها, فأحب أن يجعل لها مراسم خاصة...

قام و غسل وجهه و لبس ثياباً للخروج من المنزل, رتّب نفسه و تعطّر, حضر فنجان قهوة, ثم عاد للمكتبة التي بدأت الشمس برسم مستطيلين صغيرين من نور على أرضيتها.

بابتسامة هادئة أكمل الصفحات الباقية, سمع نبض كلماتها بإنصات.

واضعاً يده على وجهه تأملت عيناه آخر سطرين, ثم أعادهما أكثر من مرة... كان بين آخر سطرين و بقية الدفتر مسافةٌ فاصلة و لم يكن لهما ارتباط وثيق بما قبلهما كانا:

"... أرهقت السنون أشرعتي, و رحلتي بلغت خواتيمها, معرفتي لك محدودة... محدودة جداً, لكن لعلّها اليوم في أجمل صورها, و قد اشتقت إليك... فعرفني عليك, و عجّل باللّقاء, فوحدك تعلم... وحدك تعلم..."

بابتسامة اختصرت كلماته الحائرة, و بعيون تنظر للكون من هذين السطرين, كرّرهما في رأسه بصوت جدّه, و مرّر أصابعه على تلك الكلمات بهدوء يستشعرها بكل حواسه و يصافح جدّه عبرها...

أغلق الدفتر و ضمّه إلى صدره, و ظل جالساً على كرسيه دقائق عدّة...

ثم قام و وضع هاتفه و محفظته في جيبه, حمل مريوله و توجه للغسّالة, نظر إلى بقع الشوكولا مبتسماً و رمى المريول الذي لم يغسل من شهور في الغسيل...

قبّل جدته النائمة و خرج من البيت...

يتمشى في نسيم الصباح البارد و هدوئه الذي بدأت تمزقه بعض حافلات المدارس و الموظفين, كان يمشي بجانب حائط مقبرة "الدحداح" و كان على الرصيف طفلان ينتظران الحافلة, يلعب أحدهما بالحصى برجله, و قد بدأت الحياة تتسرب لعروق المدينة...
وضع يده على حائط المقبرة التي دفن فيها جدّه, كان الحائط بارداً رطباً من أثر المطر الذي هطل بالأمس...
كان حائطٌ واحدٌ يفصل بين ضجّة الحياة و سكون الموت... حاول أن ينصت لهم, هم هناك الآن, و يعرفون الكثير... شعر بشيء من رهبة, أخافه غموض عالمهم, ضجيج حياتهم المتخفّي بسكون المقبرة... فدعا لهم, قرأ لهم الفاتحة جميعاً و تمنى لهم الراحة و أكمل طريقه...
مشى إلى غير مكان محدد, فوجد نفسه بغير قصد يتجه إلى دمشق القديمة.
يمشي و يمشي, لا يرى أحداً و لا يسمع شيئاً إلا صوت لحن هادئ في رأسه, تتساقط عن جسده القيود شيئاً فشيئاً مرتمية خلفه على الأرض... إلى غير رجعة, فتحت روحه يداها لتستقبل البعيد القادم... و استنشق الهواء الجديد إلى أعمق نقطة في رئتيه, و أكمل مسيره...
حديث دار معه, حديث لا بلغتهم و لا كلماتهم, و نزلت قطرة رقيقة خفيفة من مطر على وجهه, خلع نظارته بيساره و رفع نظره ليتفحّص الغيوم التي تسارعت القطرات الهاطلة منها شيئاً فشيئاً...
تعالى اللحن في رأسه, و اشتدت المطر, ليتناغم صوتها على الأرض مع الموسيقا في رأسه.
صارت تضرب جسده بحباتها الكبيرة, ففتح لها الباب... تركها تتغلّغل فيه, تتسرّب بين أنسجة جسمه و تغسل آخر خلية فيه...
كان الناس حوله يحتمون منها بأي شيء و يتجهون إلى الأطراف, فيما تقصّد هو أن يمشي تحتها حتى تبللت ثيابه و شعره... كلما زاد ابتلالاً طلب بشوق المزيد, تمشي المياه على وجهه تتلمس تفاصيله, و تجري فيه لتنساب سيول من أحزانه إلى الأرض, اختلطت مياه المطر النقية بدموعه... لتجري معاً في عروقه جارفة ما في طريقها من هموم...
يرج الهاتف في جيبه ليوقظه من حالته تلك... يخرجه من جيبه, يجاهد ليفهم الاسم

بعيون تغبشت رؤيتها و شاشة هاتف غطته مياه المطر, تتحول دموعه إلى دموع فرح..
يفتح ليتأكد من الصوت... صوت كان يحتاجه كثيراً و اشتاق إليه كثيراً... كان صوت
محمد...

-19-

السابع عشر من شباط **2013**

خلف زجاج واجهة غبشه فرق الحرارة بين داخل المحلّ الصغير و خارجه جلس الشّابان, حرارة الصاج تدفئ المكان كلّه, رائحة الزعتر, و الشاي الخمير و صباح دمشقي تشكي له فيروز كيف علموها الحب و تركوها بصوتٍ لا يبحّه برد الشتاء ولا تزيده شمس الصيف إلا حياةً, تولد عليه أجيال و تهرم و هو باق كدمشق تماماً فوق الزمن...
جلسة كررها الشابان كثيراً منذ خروج محمد من المعتقل و عودة عمر إلى بيته في وقتين متقاربين منذ ثلاثة أسابيع تقريباً.. حتى باتت عادة.
كانا يجلسان هناك يحدث كلٌّ الآخر عن تفاصيل رحلة الشهور الماضية, و خلال الجلسة يكتشف كلٌّ منهما أنّ من يجالسه يختلف كثيراً عن الشخص الذي تركه.

ذقن عمر و نحفه و مسحة الهدوء على وجهه, تجعل من الصعوبة بمكان تحديد من كان بينهما في المعتقل ومن كان حرّاً طليقاً.

ينظر محمّد لصاحبه الذي صار يجالس الكتب, يسمع الآراء المتنوعة, يجالس أنواعاً مختلفة من الناس, يقضي ساعات مع الأطفال النازحين في مراكز الإيواء في دمشق يتعلم منهم أكثر ما يعلّمهم, يحول كل حزنٍ إلى دافع, ينظر للطب بنظرة مختلفة, يخرج من درس اللغة الألمانية إلى مركز يتعلم فيه الدعم النفسي, و يحاول أن يكون بلسماً أين ما حل, ذاق الألم فيحاول أن يمنعه عن غيره و أن يداو من يتذوقه... فيرى فيه كل ما كان يسمعه منه عما يريد أن يكون...

قد يكون طريق ثورة بلده تعاني من عراقيل تحرفها و صعوبات تعوقها, إلا أن ثورته الشخصية كانت تحثّ خطاها, و نيرانه تشق طريقها إلى السلة التي جمع فيها أوراقه السلبية يوماً...

محمد بدوره خاض رحلة كفيلة بتغييره جذرياً, خلقت في داخله شعلة قلة هم القادرون على امتلاكها.

كثير من الخارجين من سجون الأسد يخرجون و قد مات شيءٌ في عيونهم, و قد غادرت الحياة وجوههم, و تلزمهم شهور و ربما سنين ليتعافوا من آثارها إن تعافوا, يعانون من أعراض جسديّة و نفسية تستمر معهم طويلاً, و تتراوح من الانعزال و الاكتئاب إلى النرجسية المفرطة...

منذ خروج محمد و هو يبهر عمر كيف استطاع تحويل آلامها إلى طاقة إيجابية...

كان عمر و من يوم خروج محمد قد قرأ و بشكل سريع بعض مقالات و كتب الدعم النفسي استعداداً منه ليقف إلى جانبه و يساعده, كان أروعها على الإطلاق بالنسبة له كتاب "الإنسان يبحث عن معنى" للطبيب فيكتور فرانكل... إلّا أنّه وجد في محمد بحدّ ذاته مكتبة كاملة يتعلّم منها...

يجلس بعيون باسمة يستمع له لساعات و هو يروي أدقّ تفاصيل تلك التجربة, عن استجماعه لقوته النّفسية و مساعدته زملائه في المعتقل, عن صعوبة الحياة في مكان يصبح فيه قرص الصابون قمّة النعم, و عن المشاعر المصاحبة للحظات التعذيب و ما بين

نوبات التعذيب...
يتناول الأمر بنظرة إيجابية و روح رائعة, يحكي القصص المؤلمة بطريقة ساخرة تجعل عمر في لحظة يضحك من قلبه و في أخرى يحبس بالكاد دموعه في مقلتيه...
يستغرب كيف تمكن محمد شديد الاهتمام بالترتيب و النظافة إلى حد الهوس... أن يتحمل قذارة المعتقل... أن يلحظ أثناء استلقائه في زنزانته صرصوراً يقترب باتجاه رجليه فيعود لنومه بدل أن يقوم ليتخلص منه, إذ أنهكه قلة الطعام و شدة التعذيب... و هو يقول لنفسه "فليفعل ما شاء, لن أنهض..."
يدهشه كيف استطاع محمد صاحب البنية الضعيفة أن يتحمّل ساعات من التعذيب و أياماً من الشبح على باب زنزانة عاتمة و قد سالت تحت قدميه دماء زملائه...

في محلهما الصغير حمل عمر صينية عليها فطائر بالجبنة و أخرى بالزعتر و كوبي شاي و وضعها على الطاولة...
- أتذكر ليلة نمت عندك يا محمّد؟..
- و من ينساها؟
- ليلتها كنت أحدثك قبل النوم.. و كنت أودّ أن أخبرك بأمر ما لكنّك غفوت قبل أن أباشر....
كنت يومها سأبوح لك بإعجابي الخفيّ بعلا...
ضحكة أطلقها محمد ثم قال...
- يا رجل.. لم يكن هناك من داعٍ أن تخبرني أصلاً, بريق عيونك حين تراها أخبر الجميع, سعادتك ساعاتٍ بعد اجتماعك بها فضح أمرك... لا يحتاج الأمر ذكاءً, حتى حذاء المظاهرات شعر بك بكل وضوح..
على كلّ.. صدقني أنا سعيد أنك مررت بهذه التجربة لتعلّمك و تحفّزك لتحويل ضيقك إلى طاقة بناءة تدفعك للأمام... فقط أتمنى أحياناً أنّي لو كنت إلى جانبك...
- هل تذكر يا محمد بم كنت تلقّبني ممازحاً عند دخولي مكاناً فأظل أسلّم على الأشخاص فيه و أجتمع بهم و ألوّح بيديّ للباقين؟...

ضحك ثم قال: نعم... كنت أقول وصل حافظ الأسد... يا رجل تعرف نصف الناس و تقضي الوقت تلوح لهم, لم أعرف في حياتي شخص اجتماعي لهذه الدرجة...
- صدقني مرت عليّ أيام إمّا أهرب من الناس, أو أبحث عن أحد قريبٍ أحادثه فلا أجد... مرت عليّ أيام أبحث في هاتفي عن اسم صديق حبيب لقلبي أرسل له رسالة أسلم عليه... أصبّح عليه أو أمسّي... فلا أجد من أحد بقي في البلد... كلّه سافر... و أنا جالس مقطوع عن العالم في بيتٍ لا نت فيه.
- ألا تنوي السفر أنت أيضاً يا عمر؟
- على الأقل ليس قريباً... قد يأتي يوم أضطر فيه للسفر لأتمّم اختصاصي, إلا أنني أنوي أن أبقى هنا أطول مدة أستطيع البقاء فيها, أن أبدأ بالاختصاص هنا ثم ربما أكمله في الخارج... و ربما لا أسافر أبداً... كثير من زملائي يظنونني مجنوناً لقولي هذا, لكنّي كما تعلم أحب أن أدخل نفسي في مشاريع عدة إلى جانب الطب... و دمشق تقصقص أجنحة عشّاقها, و تأسر أفئدتهم بطريقة تسلبهم متعة العيش في أي مكان آخر... لذلك و رغم كوني محبّاً للسفر و تجربة الجديد إلا أنني لا أستطيع إطالة الغياب... المهم في الحياة أن أقوم بما أنا راضٍ عنه لا ما يجب علي...
لا أنوي أن أكبر في الغربة حتى لا تعود تعرفني بلادي, و تنسى ملامحي حجارة حارتي الصغيرة, لا يهنأ لي العيش بعيداً عن دمشق التي كان فيها حبّي الأول و فيها سيكون إن شاء الله الأخير...

سمع محمد كلام عمر و عيناه تنظر خارجاً إلى أكياس رمل وضعت في الجهة المقابلة, ليتمترس خلفها جنود حاجز, و إلى جانبها كتل اسمنت عازلة, و خلفها غرفة أطلت منها فوهة بندقية...
بملامح حزينة لحال معشوقتهم دمشق, و من عمق المعاناة التي وصلت لها البلد, تنهد بعمق قائلاً...
- يا رب...
- أبو حميد, عندما كنا نتحدث عن الإيمانيات, قلت لي ذات مرة, أن إيمانك في المعتقل كان قويّاً في معظم الوقت... و أنه بلغ مرات ذروات لم يصل لها من قبل...

- نعم و الله.. صحيح
- لم قلت معظم الوقت؟.. هل ضعف لبعض الوقت؟
- نعم... في المعتقل مرت بي لحظة بلغ فيها إيماني أضعف مرة في حياتي و أخرى بلغ فيها أشده...
- حدثني عن تلك اللحظتين...
وضع محمد من يده فطيرة بالزعتر, نفض يديه, و عدّل جلسته, و بدأ برواية قصته على عمر.
- أضعف لحظة كانت ليلة خميس...
كان شاب من درعا قد دخل معنا إلى المعتقل من حوالي الشهرين, و ظلّ معنا في الزنزانة قرابة العشر أيام, كان الشاب صغيراً خفيف الظل, لم يترك على قلوبنا هماً, أدخل البهجة إلى جو الزنزانة..
كان يعود من نوبات التعذيب ضاحكاً فيدخل الضحك على الجميع, كان مجنوناً لا يهمه مصيبة مهما كبرت, و لا يكفّ عن رواية النكات...
نقلوه بعد فترة وجيزة و لسبب أجهله إلى زنزانة منفردة... اشتقنا إليه جميعاً, و حل الحزن و الكآبة ضيفاً ثقيلاً على الزنزانة كلها... حتى صرنا نزقي المزاج, لا يتحمّل أحدٌ منّا الآخر...
تركوه في المنفردة, لا يحادثه أحد و لا يسمعه أحد, وحيد متعب, كاد الفتى يفقد صوابه, حتى بات يحدث باب الزنزانة يروي له عن تعبه, يحكي له عن أهله و عائلته التي تنتظره في البيت, يتقلب في أرض زنزانته كأفعى تتلوى في عشّها و قد اشتد بها الحر, حاول أكثر من مرة أن يطلب من سجانيه إعادته إلى مهجعنا لكنه كان يقابل بالنهر و الضرب و باءت جميع محاولاته بالفشل... حتى مرّ عليه خمسون يوماً و هو على حاله تلك.
وصل لدرجة من التعب صار يستحيل الحياة معها لشاب مرح كثير الكلام, و صار الموت أهون عنده من قضاء يوم آخر في تلك الزنزانة, نادى على السّجّان, صار يصرخ أن تعال عندي كلام هام.. عندي اعتراف هام!... و حين سأله ما الهام, قال له: قصة كبيرة جداً لا أستطيع البوح لك بها و لا حتى لرئيسك و لا رئيسه... فلربما تكون أنت أو أحدهم أحد

من هم في الشبكة السرية التي تنوي شراً بالنظام من داخله...
و ظل يهول بالقصة و يكبّرها حتى ضج الأمن بها و وصلت القصة إلى الضابط المسؤول عن المعتقل كله...
في اليوم التالي حضر عدد من الضباط بما فيهم رتب عليا, بعضهم جاء من فروع أخرى ليسمعوا شهادة الفتى التي قد تثبت وجود شبكة من داخل الأمن نفسهم, و جاؤوا بالفتى ليحكي لهم الموضوع...
حين سألوه ما قصتك يا فتى؟ أجابهم "ما قصتي أنا؟! و الله لا يوجد أي قصة... و لكن بالله هل ستتركونني وحيداً في تلك الزنزانة حتى أجن؟!"... تفاجأوا لوهلة و استغرق الأمر دقيقة كاملة ليستفيقوا من صدمتهم ثم صرخ فيه الضباط و استشاطوا غضباً به و توعدوه بشر ميتة...
رموه في زنزانتا لساعتين ليأخذوه فيما بعد و يفعلوا به ما توعدوه به, روى لنا في تلك الساعتين تفاصيل ما حدث معه, تفاجأنا من تصرفه, و ضعنا بين الضحك لجنونه و البكاء لمصيره...
أخذوه بعدها و بدأوا به ضرباً مبرّحاً حتى عمّ صوته كل زنزانات المعتقل...
يصرخ بأعلى صوته لساعات "يا الله! ... يا الله!!".. فيرد عليه الجلاد.. "أين هو الله لينقذك اليوم؟ لا أحد سيخرجك من فعلتك, أين هو الله؟.." ثم يتابع بكلام شديد الكفر و التجرؤ على الذات الإلهية حتى يشعر أحدنا أن سقف المعتقل سيسقط علينا...
نوعوا بأساليب العذاب معه حتى لم يتركوا واحداً و استمر صراخ الفتى و نحيبه لساعات و ساعات, تتقطع قلوبنا لحاله.. حتى بدأ يخفت و يخفت... إلى أن سكت...
عمّت بعدها مهجعنا أنات البكاء كما عمّت بي حالة من ضعف الإيمان و الاكتئاب, هزتني و أتعبتني ليومين أو ثلاثة...

لحظات سكون حلّت بعد رواية محمد للقصة... وضع فيها عمر يده على خده و راقب محمداً بعينين متوسعتين و فم مطبق, ثم تابع محمد...:
كانت أضعف لحظة إيمان تحلّ علي, أن أسمعه يتذوق أشد العذاب و ينادي الله و لا

يجد مجيباً...
أما أشد لحظات إيماني فكانت أيضاً ليلة خميس, الخميس الذي تلا ذاك الخميس مباشرة..
في المعتقل يا عمر, أشدّ العذاب هو العذاب النفسي... حين تسمع زميلك يتعذب و يصرخ و لا تعرف متى يحين دورك, حين تسمع السجان يقترب ليفتح الزنزانة و تقول سأسمع الآن اسمي, سينادي عليّ, حين تظل بعد نوبة التعذيب تترقب بذعر نوبة التعذيب التالية...
يومها حين اقترب السجان شعرت بيقين لا أعرف مصدره أنه آت ليأخذني...
فتح باب الزنزانة... بعفوية و بلا قصد تحضرت لأسمع اسمي, و عدلت جلستي, و بالفعل لم يخيبني, نادى اسمي مع الكنية بصوت عال, كانت تلك ربما أبشع مرّة أسمع فيها اسمي...
نهضت فوراً, وضع القيود على يديّ و قادني إلى غرفة في الأعلى بالضرب و الركلات...
شاءت الأقدار أن يستلم تعذيبي جلاد غليظ مفتول العضلات... و شاءت الأقدار أن يُقتل أخوه و هو عنصر في الأمن أيضاً في وقت سابق من ذاك اليوم على يد الجيش الحر...
فكان يضربني و كأني أنا من قتل أخاه, و يصرخ مع كل ضربة "هذه من أجلك يا سومر! و هذه من أجل حريتكم... قتلتم أخي يا أولاد الـ...!"...
كانت تبدو على ملامحه نشوة أثناء التعذيب, ملامح تعكس متعة غريبة بما يفعله, تتجلّى فيها أبشع صور الساديّة, يضرب و يضرب حتى يلهث و يتعب, فيتوقف قليلاً و يدخن سيجارة و كأنه ينتشي بفعله, ثم يعود من جديد...
نظر محمد في وجه عمر الذي كان مقطباً متأثراً بما يسمع, و سكت لثوان ثم ثبت نظره في عيون عمر بعيون سادها الاحمرار و تزاحمت فيها الدموع و قال...
أتعرف يا عمر... كانت تلك أقرب لياليّ إلى الله...
لم أكن أشعر بألم, كان جسدي يعاني و روحي في نعيم, ناديته من مكان ما في داخلي, فشعرت بيده تمسح على قلبي...
نسيت الألم يا عمر و عشت أتنعّم, رأيت رحمات الله تغمرني, تدفئ برد بدني و تسكن خوف قلبي, تأخذني بقوة أقوى من كل المسكنات التي درسناها, و تضمني حتى تخرج

كل خوف كامن بين ضلوعي.
لا أعرف إن كان هناك كلمات تشرح ما شعرت به... كان قريباً أقرب من جلادي, رحيماً أرحم مني بجسدي المتألّم, فهمني و أفهمني حتى بدت الكلمات سخيفة و صرخات الجسد تافهة و بات السجان ضعيفاً مريضاً... سموت فوقه و فوق رائحة عفن الغرفة, صرخاتي تشبع غرائزه المريضة و روحي تصعد إلى مكان يبدو فيه كلّ هذا العالم بما فيه... سخيف جداً...
- يا لله....
- و هكذا يا عمر, و بطريقة بعيدة عن المنطق, كانت أضعف لحظات إيماني حين سمعت غيري يتعذب و لا ينجده أحد, و أشد لحظاتي إيماناً حين كنت مكانه...
و لهذا فهمت عليك حين قلت لي أنّك لن تروي قصة المطاردة و الرجل الأصلع لأحد لأنّهم سيجدون ألف حجة و تفسير و منطق, و لا أحد منهم خبر ما خبرت...
- تماماً..
لحظات صمت ثم تذكر محمد أمراً من حديث الجلسة الماضية...
- لم نكمل الحديث المرة الماضية يا عمر, كنت تشرح لي بعض الأمور عن إيمانك... و كنت تريد أن تحدثني عن "طبقات" أو شيء كهذا.. ماذا كنت تنوي أن تقول؟
- آه, نعم...
كنت أقول لك وقتها أن نسختي الإيمانية ليست كاملة اليوم, و سيتغير شكلها و سيضاف إليها و يحذف منها كلّ يوم, أصلاً ليس من المفروض أن تكون كاملة اليوم أو أن أجمد في مكان ثابت, فهي رحلة عمر تتكامل صورتها يوماً بعد يوم, و تتغير بتغيري و تطور تفكيري و مداركي و تغير ظروفي و قناعاتي و احتكاكي بألوان الناس المختلفين.
لكن ما يمكن أن أقول أنه واضح و ثابت, هو تقبّلي للناس بما هم عليه... ما مررت به على قصره نسبياً أفهمني و أشعرني بغيري...
و ما جربته في حياتي من صغري حتى الآن أذاقني عينات صغيرة مما يتناوله أصناف من الناس من المتدين التقليدي حتى الملحد, ألبسني نظارات مختلفة رأيت فيها ما يرون, و ترك لي فرصة للاختيار و بناء نظرتي الخاصة, فلن أحكم على شخص كنت مثله مرة... أو

كان ممكن أن أكون لو تغيرت ظروفي...
ما أؤمن به يلزمني وحدي و لا يجوز أن ألبسه غيري أو أطالبه به, حتى أنني كصديقك لا أملي عليك المقصد الذي وصلت إليه أو الطريق التي اخترتها إنما قد أوضح لك مواصفات السيارة التي أركبها في رحلتي, مثل التقبل, التوازن و التواضع وعدم الاعتداد بالعقل بطريقة متعجرفة عمياء, فأكبر دليل على عجز العقل تغيره بين ليلة و ضحاها... و أن يتجلى تواضعك في أن تبحث, فنحن نسأل أسئلة احتاج من قبلنا سنين و سنين ليكتبوا أجوبة لها في مؤلفات, لنعتد بكل بساطة بجواب تبنيناه دون تمحيص و اندفاعاً من أسباب تتعلق بالهوية لا بالمنطق...
سيارتي تلك نقلتني من إيمان "هذا ما وجدنا عليه آباءنا" إلى وجهة, المفروض أن أصبح أكثر رضىً كلّما اقتربت منها... وجهةٌ تقنع عقلي و تسعد روحي و تفتح قلبي بالحب ليتسع كلّ الناس...
تناول عمر كأس الشاي و أخذ رشفة, سأله خلالها محمد...
- طيب... و ما الطبقات؟
ضحك عمر... نعم نعم الطبقات نسيت...
أخرج عمر من جيبه قلمه الرصاص و سحب الورقة التي تحت الفطائر, و رسم مستطيلاً طويلاً, قسمه لثلاث قطع الوسطى هي أكبر من المتطرفتين... ثم أخذ يشرح عليه و يرسم و يشخبط...
كتب في الطبقة العليا لفظ الجلالة "الله" و في الوسطى "التصرفات و الشعائر الدينيّة" و في السفلى "مقدمي الدّين"...
انظر يا محمد... حالياً أشعر أن القداسة عندي تتدرج هكذا... لله القداسة المطلقة و التي لا يتمتع بها سواه, و في الأسفل قداسة الشيوخ و الأسياد و القساوسة و التي تبلغ الصفر في منتصف القطعة الخاصة بهم و تنزل ما دون الصفر كلما اتجهنا لنهاية قطعتهم... فلا قداسة لأشخاص نهائياً بل يبلغ بعضهم درجات تحت الصفر لاحتكارهم الدين كسلطة و تحدثهم باسم الله و استلامهم الوصاية على الناس بما يجعلهم أعداء منهج تفكيري...
في الوسط توجد الأديان و شعائرها و كلّ ما يتعلق بها و التي تتفاوت عندي يوماً عن

اليوم الآخر, و يقترب بعضها للأعلى فيما ينزل الآخر, و لربما هنا يكمن الكثير مما أبحث عنه...

بكل الأحوال قد توافقني في طرحي أو تخالفني فيه, و قد أختلف مع نفسي أنا في الغد و قد أغير نظرتي, هذا ليس بمشكلة, إنما المشكلة تكمن في المشي في الطريق بشكل معاكس من الأسفل باتجاه الأعلى, و أن أبحث عن الله منطلقاً ممن يقدموه لي, فإمّا أن أرفضه لرفضي إياهم كأشخاص... فألحد, أو أن ألبس كلامهم كما يفصّلوه لي فأسلمهم دماغي يفكرون عني... فأضيع, و أبتعد عن طريق الله ظانّاً أني أمشي عليها...

البدء يكون من هنا.. (و أشار للقطعة العليا من الرسم) و من هنا (و أشار إلى رأسه) و من هنا (و أشار إلى قلبه)...

سكت ثانيتين ثم تابع...

هذا المستطيل خاص بي, و لو لم تردني أن أحدثك عنه لما فعلت, المهم عندي أن أنصحك بمواصفات السيارة, و أن تكون حراً.. و أن تفكر... و تتقبل غيرك...

قاطع الحديث صوت انفجار...

- ما هذا يا ترى؟

- لعلها قذيفة هاون, سيتبرأ من إطلاقها الجميع كالعادة...

- يا رجل, بعد خروجي من المعتقل, تفاجأت بسوء الوضع الأمني, و اشتداد المعارك, و هطول القذائف بلا والي...

- كم انحرفت الثورة, و كم امتلأت بالأخطاء, حتى صارت القاعدة الثابتة فيها هي الأخطاء... ابتعدت عن حلمنا حتى صارت صراع محاور على رقعة الشطرنج المسكينة سوريا...

- ما يحزنني هو الحال التي وصلها كثير من الناس, إن نطق أحد بضمير صاح و عقل, و آثر مصلحة البلد فوق كل شيء, و أراد أن يوعي الناس لما يحاك للبلد من اقتتالٍ يدوم سنيناً و يجعل الحرب الأهلية في لبنان مزحة أمام ما يحاك لها... يخرج ألف شبيح و ساخر يشتمه و يخوّنه, و ربما يهدر دمه و ينادي على السلاح ثم يغلق حاسبه ليعود لحياته و تسليته, و قد يكون طالباً في الصف الحادي عشر أعطته مواقع التواصل منبراً...

ما يحزنني هو تمزق البلد بين تيارات مختلفة, و تقسيم البلد إلى جبهات يراد لها أن تصطدم مع بعضها, و يراد حصر قوى في مناطق معينة, بما يضمن حماية إسرائيل, و إبقاء البلد في حالة فوضى ترجعها للوراء عشرات السنين...

- آخ يا صديقي, ما أوصلنا له النظام حال لا يصدق, سعيه لإيصال الوضع لطرفين متصارعين تقع مسؤولية الإجرام على كل منهما, و تحويل الصراع إلى إقليمي طائفي بات أقرب للنجاح من ذي قبل... دفعه للتسليح بارتكابه أبشع ما يمكن أن يرتكبه نظام بحق شعب أعزل, بارتكابه مجازر سيحكي عنها التاريخ طويلاً, استدرج بها الشعب إلى الساحة التي يتقن العمل فيها و هي العنف و الذي قد يستمر طويلاً خاصة بسبب حشده أجزاء من المجتمع معه بدوافع طائفية و غيرها...

على كل يطول هذا الحديث كثيراً, علّنا نتحدث به في الجلسة القادمة و في جعبتي ما أحكيه لك عنه الكثير, لكن عساي أقول لك شيئاً واحداً, ما ابتلينا به من إخراس المجتمع المدني في عهد الأسد استمر اليوم و بشكل أقوى مع تعالي صوت السلاح الذي يخرس كلّ ما عداه... إلا أنني و عن نفسي لن أنتظر حتى يتغير هذا الواقع لأسمع صوتي, و بات منهجي اليوم هو رسم الابتسامات, مقابل كل الدموع التي يرسمونها, أجهد لزرع الابتسامات و إعانة المتضررين, و عملي مع الأطفال في مراكز الإيواء و الدعم النفسي للمعتقلين السابقين يندرج تحت هذا السياق...

- ذكرتني... هل أنت ذاهب إلى مركز الإيواء غداً؟

- نعم, بإذن الله...

- أريد أن أذهب معك في الغد...

بابتسامة رضىً: أهلاً و سهلاً و مرحباً...

تابعا حديثهما المنوّع و كأنّ كان عليهما حل قضايا العالم كلها في ذاك اليوم, إلى أن خرجا من المحل و تمشيا على مهل... فتركا كل تلك الأحاديث و اكتفيا بالاستمتاع بالطريق...

- بحوزتك علكة يا عمر؟

ضحك و أجاب.. لا... لم أعد أحملها أينما ذهبت, كان أحدهم يقول لي أن العلكة لا تنظف الأسنان بعد الأكل, و أنها يجب أن تؤكل بعد أن ينظف المرء أسنانه بالفرشاة

لتكون مفيدة, و كنا نتجادل كالحمقى عن العلكة و الفرشاة...
ضحك محمد ...
- أظنني عرفت الشخص...
عمر, تعال من هنا, أريد أن أمر بجانب الجامع الأموي.
- حاضر, كما تريد...
تمشيا في سوق مسقوف, اشتريا كيس سكاكر, و راحا يتخاطفان حباته كطفلين صغيرين إلى أن اقتربا من ساحة الجامع الأموي...
دخلا الساحة الرطبة أرضها... جدران الجامع و أجنحة الحمام و السماء و نسمة الحرية الباردة, مهما تكرّرت مشاهدة تلك الساحة, فإنها تعيد تشكيل نفسها كل مرة لتعطيك لوحة جديدة...
بعيون مسحها خليط من المشاعر الدافئة, نظر محمد إلى المئذنة و السماء, و قال...
"لقد دعوته من عتمة زنزانتي الضيقة الصغيرة, في مكان في الأسفل لا يصله نور الشمس, فأجابني من رحابة كونه, و غمرني بلطفه"

الثالث من آذار **2013**

(الساعة الثامنة و ثلاث عشرة دقيقة صباحاً)

حاملاً بيده كيساً بلاستيكياً أبيضاً و متّجهاً إلى بيت جدّه, يلبس قميصاً أبيضاً و فوقه جاكيتاً أسوداً غامقاً, يراجع في ذهنه صورة وجه طفلةٍ صغيرةٍ دخلت البارحة قسم

الإسعاف أثناء دوامه فيه.
على الأغلب كانت الطفلة تلفظ أنفاسها من قبل دخولها المشفى بوقت لا بأس به, لكنّ دكتور الإسعاف جرّب معها ست دورات إنعاش...
كون عمر لا زال طالباً فقد كانت مشاركته محدودة, و لربما انحصرت آخر الأمر في أن يمسك رجلها الصغيرة أثناء تمسيد الدكتور قلبها و يبتعد عند كل صدمة كهربائية, يمسكها يدفئها و كأنه يبثها شيئاً من روحه, إلا أن البشر ليسوا كالسيارات, إن خذلتك بطاريتك فلا بطارية تشحنك... و توفت الفتاة... و لفظ الوجه البريء روحه بنفخة سمعها عمر بوضوح...
تعلّم الحياة عمراً الدروس يوماً بعد يوم, و لعلّ بعض ما تعلمه من تجربته المحدودة في الطب أنه لا يمكن لطبيب أن يعيش كل حالة مريض و كأنه شخص يخصّه, عليه أن يعتاد الأمر, و إلا لصارت حياته جحيماً, لكنه سمح لنفسه هذه المرة باستثناء وحيد, فنعومة ملامحها تركع أعتى القلوب...
لم تكن الفتاة لتهتمّ بمصدر الشظية التي دخلت صدرها, لم تكن لتهتم من المسؤول و من القاتل, و فيما لم تهتم هي بالسبب, لم يهتم أحدٌ بما حلّ بها, و كانت واحداً من رقمٍ لا ينزل عن المئة كل يوم تفقدهم سوريا, يتاجر به من يتاجر و يفاخر به من يفاخر... و لا يهتم أحد في العالم لحياة طفلة رسمت لها نهاية قبل أوانها... عمر كان يهتم...
قطرات من دمها الطاهر صبغت مريوله, لم ينتبه لها حتى بلغ منزله و رمى مريوله على السرير, فلمحتها عيونه... لوهلة لم يكترث ظاناً أنها بقع الشوكولا التي اعتادتها عيونه لأشهر, و بدأ تبديل ثيابه, ثم انتبه و تذكّر أنّه غسلها, فرجع إليه و حمله, يمعن النظر بها و يحاول تذكر متى نزلت عليه تلك البقع, متى تحولت بقع الشوكولا إلى بقع دم...
قام صبيحة اليوم و وضع مريوله في الكيس الأبيض و وضع معه أغراضاً أخرى, كالتذكار البلاستيكي ذو المغناطيس و ربطة اليد السوداء اللذين اشتراهما قرب مدحت باشا, ربطة اليد التي كانت بألوان علم الاستقلال و المصحف الصغير اللذين كان قد أهداه إياهما محمد... و غيرها من الأشياء الرّمزية.
كان متجهاً إلى بيت جدّه ليأخذ من مكتبته كتاباً كان قد قرأ منه مقتطفات فأحبّ أن

يكمله, كان الكتاب يدعى "فن الحب" للدكتور إريك فروم... أثبتت الأيام لعمر أن الحبّ لا يُتعلم من الكتب لو قضيت الحياة كلّها تقرأها, فيما تعلمك تجربة الحب الكثير عن الحياة, إلا أنّ الكتاب كان يصنف أنواع الحب و يناقشها من الناحية النفسية العلمية و ليس العاطفية البحتة...

دخل مكتبة جدّه... تأكد أولاً من إيجاده الكتاب, ثم توجه إلى الصندوق الخشبي القديم الذي كان يحتوي دفتر جده الأخير و في داخله رسائل عمر إلى الله, فوضع معهم أغراض كيسه, بما فيهم المريول, ليشتري غيره, لكنّ دماء الطفلة تلك استعصت على عمر أن يغسلها...

نظرة إلى الأغراض قبل أن يغلق الصندوق...

صندوق خشبي يضمر تحت غطائه قصصاً تلّخص مرحلة من حياته, يفتحه بين الفينة و الأخرى ليضيف عليه أغراضاً أخرى, أو ليسترق نظرة إلى الماضي و يتذكّر خلاصات دروسه...

نهض, حمل الكتاب, نظرة ضاحكة لجدته التي تعشق النوم, قبلة على جبينها, و خرج...

قد تكون ظروف أيّامه صعبة, قد تكون حال بلده تبكي الحجر, لكن قلبه اليوم ينبض بالحياة أكثر من أيّ يومٍ مضى... إن رضيت عن نفسك, و توازن ما بداخلك, فستصبح عصياً عمّا خارجك...

ركب حافلة " ميدان – شيخ" و رجع لآخر الحافلة, فتح الشّباك قليلاً, وضع سماعات في أذنيه, و فتح الكتاب...

يقرأ جملة, ثم يسترق النظر إلى فتاةٍ في الثلاثينيات من عمرها تجلس في الجهة المقابلة...

كانت الفتاة بشعر أحمر جمعته في ضفيرة قصيرة, تلبس نظارة طبية سميكة, و قد تناثر النمش على وجنتيها و أنفها, ضفيرتها تنزل على كتفها اليسار, و حجم الشعر المنفلت من الضفيرة يكبر كلما مشت الحافلة و هبّت نسمة من شبّاكها...

بيدها حقيبة صغيرة قد خرج منها كتابٌ لم تتسع له الحقيبة... لم يتمكن من معرفة اسمه...

جمال الفتاة الأقلّ من الوسط, يجعلها تتصرّف و كأنها خفيّة, لا يراقبها أحدٌ و لا تلفت

انتباه أحد...
تراقبهم جميعاً و كأنها خارجهم... تحلّ خفيفةً و تمشي خفيفة, لا يتعلق بها شيء منهم و لا يأسرها عالمهم..
لم يقيّدها لا خاتم في أصابعها و لا قيود تفكيرهم الضيّقة و التقليديّة...
تهب النسمات من الشباك فتضيق عيونها خلف النظارة, تتأمّل فيهم, تشفق لحالهم, رغم ظلمهم لها... فقد ظلموا أنفسهم قبل ظلمها...
في مجتمع جعل قيمة الإنسان بقشوره يسأل عمر نفسه: هل سيأتيها رجلٌ يقدّر قيمتها كإنسان يوماً ما؟
تدير وجهها فيقطع شروده بها و يعود لكتابه...
كانت السطور تتحدث عن حبّ الله, و كان الكاتب يقف موقفاً حيادياً كمحلّلٍ نفسي لا يظهر إيماناً أو إلحاداً...
و كان يشرح تطور الفكر الإنساني في فهم الله و تطور فهم حب الله للبشر و انتقاله بين عدة أنواع, و تشكله من اندماج نمط الحب الأمومي أو اللامشروط والحب الأبوي و الحب الأخوي, بعد أن أنهى فصولاً يشرح فيها كلاً من أنواع الحب على حدىً...
ثم من بين التحليل النفسي و الكلام العلمي المضبوط, ظهرت فكرة عاطفية عذبة... ذكر الكاتب فيها عن اعتقاد البعض بأنّه إذا أحبّ شخصٌ ما, فإنّ المحبوب قد وقع في قلبه سهم الحبّ ذاك, مهما صغر هذا السهم و مهما كانت ردة فعل المحبوب تجاه السهم... فإن سهماً قد انطلق و لن يرجع حتى يصل قلبه...
ثم جاء بعبارة من الأدب الصوفيّ ضربها مثالاً على تلك الفكرة, اقتبسها من كاتب من كبار كتّاب الصوفية... قال فيها..
"... و إنّك إن ذبت حباً لله... فاعلم أن الله و بدون شروط... قد أحبّك"
لامست تلك الجملة قلب عمر, و غمرته بشعور حب عارم, حب متبادل... أحبّه و استشعر حبّه, و سال قلبه ذائباً في دفئ حبه...
و خلع نظّارته ماسحاً قطرة في زاوية عينه اليمنى, و وضع نظارته إلى جانبه...
عاد بنظره إلى الفتاة, فوجدها ما زالت مستغرقة في تأمّلها عبر النافذة...

قد تكون ملَكَةً عند عمر أنه يشعر أحياناً ببواطن الناس... و لربما كان مصيباً أو مخطئاً, لكنه كان يشعر بطيبة قلبها... و صار يسأل نفسه عنها: هل سيأتي من يستحقها؟ أين ستجده؟ ترى هل سيأتي من ينظر لقلبها؟

طيب... يا ترى أين سأجد فتاة تفهمني أنا؟ هل سأجد فتاة طيّبة ذكيّة؟ هل سأجد فتاةً حنونةً صادقةً, تنظر للدنيا ببساطة, تفهم الحب, تتذوق المشاعر؟ كيف سأعثر على من توافقني؟

كيف سأجدها؟ كيف؟...

استفاق عمر فجأة من شروده لينتبه أنّه تجاوز موقفه بأمتار... فنهض فوراً و طلب النزول...

نزل بسرعة... رتب ثيابه, تفقّد محفظته و هاتفه, ثم مشى باتجاه القهوة...

مشيةٌ قصيرة لا تتجاوز مدّتها عادة السبع دقائق, إلا أنه حدثت خلالها اليوم أحداثٌ صغيرةٌ عابرة أطالت مدتها و أكسبتها أهمية...

لا يعرف لم, ربما هو القدر.. لكنّه بدل أن يذهب مباشرة للكافيه وجد نفسه يتجه لمخبز قريب وقف لدقيقة أمام واجهته, يفكر فيما يريد أن يفطر, ينظر إلى القائمة المعلقة على الحائط شارداً... و في رأسه يتكرر صدى السؤال... كيف سأجتمع بها؟... كيف؟...

قرر بعد شرود طويل أن يؤجل الفطور, ربما يدمجه مع الغداء, عاد أدراجه باتجاه الكافيه و مشى ببطء ثم توقف مرة أخرى أمام محل غيتارات يتفحص أسعارها و يتذكّر الحلم الذي بدأ به يوماً و لم يكمله, ثم عاد و أكمل المشي و السؤال نفسه ما زال يتكرّر و يتكرّر... وقف منتظراً لتمر السيارات, ثم عاود السير.

وقف فجأة لتفادي دراجة كادت تصدمه, و وقف لدقيقة يسلم على صديقٍ صاحب محل هواتف...

أيذهب للكافيه المعتاد أم يغير اليوم؟ فليذهب للمعتاد و ليغيّر في الغد...

" كيف سنتجمع في هذا العالم الكبير؟ كيف سأجدها بين كل هؤلاء الناس؟... كيف؟!"

لحظة يقف ليتفرج على القطط تصطف منتظرة اللّحّام ليرمي لها بقايا اللحم, و لحظة أخرى ليخرج لطفل صغير مشرد قطعة نقود...

تفاصيل صغيرة تافهة, تحدث كل يوم و لم يكن ليلق لها بالاً لولا أنها كانت السبب ليكون في ذاك المكان بالضبط على زاوية الرّصيف في تلك اللحظة بالضبط... فما أن وصل الزاوية حتى ناداه رجل عجوز... و قال له..

- ألم تكن يا عمو في حافلة "ميدان – شيخ"؟

- بلا...

- لقد نزلت مسرعاً و تركت هذه على الكرسي...

و أخرج من جيبه النظّارة الأسود إطارها...

نظر عمر إلى النظارة بابتسامة دهشة و هي تقول له... "هكذا..."

-20-

الرابع عشر من آذار **2034**

(أسبوعين في ومضة)

أمام مئة و اثنتي عشرة عيناً وقف دكتور الجامعة الشاب, يعطي كل عين حقّها من الاهتمام و الابتسام أثناء شرحه لها عن قدرة القلب على النبض ذاتياً بمعزل عن الجسم.
خلفه شاشة كبيرة يقف في منتصف القلب المعروض فيها.
يلبس قميصاً أزرق لا تقيده ربطة عنق...
و جاكيت طقمه الكحلي مرمي على طاولة إلى جانب حاسبه الشّخصي و إلى جانب الحاسب صندوق في كيس أسود.
لا يوفّر جهداً ليضمن وصول المعلومة و المساعدة على تذكّرها بشتّى الوسائل الممكنة, بالأمثلة و الفيديوهات و المزحة و ربطها حتى بقصص من الحياة في درس يحرص على جعله مزيجاً من التسلية و المعلومات و القيم, يتناغم فيه مع طلابه كقائد أوركسترا في لحن سريع الإيقاع يتعالى فيه صوت الضحك الجماعي للطلاب على مزحة يلقيها بين الفينة

و الأخرى...
يختم درسه بجملته المعتادة التي يكررها في نهاية كل درس, حتى بات الطلبة يكرّروها معه... "هذا كل ما لدينا اليوم عن القلب, و تذكروا أن تدعوه يضخ لكامل جسمكم و مع كل قطرة دم... الكثير الكثير من الحب."
ثم فتح الكيس و الصندوق و أخرج منه قطع شوكولا يرميها للطلاب واحداً واحداً, مع قوله "كل عام و انت بخير" متبعاً إيّاها باسم الطالب في كل مرة يرمي قطعة... فقد كان يوم الغد الأربعاء ذكرى الثورة السورية...
حين بدأ عمر بتدريس طلاب الطب قبل حوالي العشر سنوات, استغرب كثيرون الطريقة التي يتبعها, و قد سمع أحياناً بعض الجمل المحبطة و الأخرى التي تضمر استهزاءً خفياً, إلا أنّه أصرّ عليها و ظل يطوّرها, و اشتهر بأسلوبه ذاك بين الطلبة و المدرسين, ما دفع الجامعة أن تسملّه رئاسة قسم الإشراف الأكاديمي لتطوير أساليب التدريس و المناهج...

فلم يوفر جهداً لتطوير الطرق المتبعة و مساعدة الطلاب, و استفاد لذلك من ماضٍ كان فيه قليل المقدرة على الدراسة و التركيز, ليشعر بمعاناة الطلاب, و حاول جعل الصفوف بيوتاً و الطلاب أسراً...
كان باب مكتبه في الطابق الثالث لا يغلق, لاستقبال الطلاب في كل وقت, يستمع لمشاكلهم الدراسيّة كانت أو الشخصية و حتى العاطفية و يعمل على حلها بما تسمح له خبرته المتنامية من كونه مدير أحد مراكز الدعم النفسي و تطوير الشباب في دمشق...

استطاع عمر خلال السنوات الماضية تحويل كثيراً من أحلامه و أفكاره إلى حقيقة, و ما كان يتمناه من الدخول في مشاريع كثيرة إلى جانب الطب صار أقرب للحقيقة, ساعده على ذلك أنه امتلك مع صديقيه محمد و مضر مخبراً للتحاليل إذ اختص محمد بالتشريح المرضي و افتتح المركز بشهادته...
و من حوالي الست سنوات و بالاشتراك مع كل من محمد و مضر و صديق رابع اسمه عدي, فتح عمر مكتبة فكرتها مبتكرة... فقد حوّلوا أحد بيوت دمشق القديمة إلى مكتبة و مقهى مختلط, وضعوا بدل البحرة في الوسط رفوف كتب اسطوانية الشكل تحيط به

طاولات تعج بالقرّاء و فناجين القهوة, و في كثير من الأحيان العازفين و الموسيقيين و المتدربين, كما وضعوا رفوف الكتب على كامل محيط المنزل القديم, و احتكروا الطابق الثاني لهم كمكتب للقراءة و الكتابة يكتسحه اللون الأبيض و له واجهة زجاجية ضخمة تطل من الخارج على البيوت الدمشقية القديمة و من الداخل على شجرة البرتقال التي تركوها في وسط ما كان سابقاً أرض ديار.

طلب الدكتور المحبوب إلى طلابه الانتظار دقيقة قبل الخروج, قال لهم فيها:
"في ذكرى الثورة السورية, فقط أريد أن أذكركم بشباب كانوا في عمركم, و كان لهم أحلام مثلكم تماماً, شباب بعمر الورد, تركوا أحلامهم و مستقبلهم, ليرسموا لكم أحلامكم, نحن اليوم هنا بفضلهم, و كل لحظة نعيمٍ نعيشها إنّما نعيشها لأنهم قرروا أن يفدونا بحيواتهم, كتبوا تاريخ سوريا بدمائهم, و عرضوا نفسهم للاعتقال و التعذيب و الموت لنحيا بكرامة, بعضهم كانوا زملاء لي, دفعوا ثمن عبارة بخت على الحائط رصاصة قنّاص في صدورهم, لا زال طيف وجوههم يمرّ بي, ليذكرني بثمن الحرية الباهظ, إلى أرواحهم جميعاً نقف لو سمحتم دقيقة صمت نقرأ فيها الفاتحة و نطلب لهم الرحمة".
خرج عمر بعدها من الجامعة و استقلّ سيارته للمنزل حيث تنتظره زوجة و ابن و بنت و قد أعدّا عدّة السفر لرحلة مدتها أسبوعين كانوا قد خططوا لها طويلاً...
ما أن وصل حتى أنزلوا الحقائب و ركبوا السيارة العالية, و انطلقوا في رحلتهم...
روان زوجة عمر كانت واحدة من الفتيات التي عمل عمر بشعور أو بدونه على إبعادها, فبعد تجربته الحب ظل فترة يخافه و عواقبه, و بنى حول نفسه قلاعاً من القوانين, و ظل يبعدهنّ, و يغلق أي باب و أي فرصة... إلا أنها حين أقبلت كانت زلزالاً دمر كل قلاعه و خرق كل قوانينه و في فترة قصيرة أعلمته بكل وضوح و دون أي شك أنها فوق قوانينه و أنها... هي...
قابلها أول مرة في الكافيه المعتاد... سألته إن كانت الكنبة إلى جانبه شاغرة, فأجابها بسرعة و دون تردد بـ "نعم"... كما يفعل مع كل البنات... بعد أن رفع رأسه و رأى وجهها...
راوده الشك أنه أخطأ بفعله ذلك...
بعد مرور نصف ساعة من الطريق المتجه جنوباً يحدث فيها عمر أبناءه عن ذكريات من

الثورة التي كانوا ذاهبين في رحلة لإحياء ذكراها... سأله ابنه:
- كيف امتلك أولئك الشباب أن يخرجوا عراة الصدور في وجه الرصاص يا أبي... في كل مرة تعيدها يكاد دماغي لا يتصورها؟ أي دافعٍ هذا؟...
- كان التوق للحرية... للعيش الكريم فوق كل شيء, يجعلك تشعر أن لا شيء تخسره إن لم تعش الحياة كما تريد...
- حين أسمع عن التضحيات التي قدّموها لأجل الحريّة, أشعر بأهميتها و كم هي باهظة الثمن, حتى أشعرها أنّها القيمة الأسمى في الحياة...
- جيّد أنك جئت على ذكر الموضوع, كنت أود أن أذكر لك شيئاً...
أشار عمر إلى شاشة المسجلة التي كان قد أخفض صوتها أثناء الحوار, و قال:
- انظر لهذه الأعمدة التي تصعد و تنزل مع الموسيقا, كل منها يمثل صوتاً, و يتألف كل منها من مستطيلات صغيرة أو قطع صغيرة خضراء و حمراء و صفراء...
لو آتيتك منها أربعين مستطيلاً صغيراً فقط... و طلبت منك أن تملأها في عواميدها تلك.. فإنّه من الطبيعي أن توزعها باعتدال, لا أن تضعها كلها في عامود الحرية فيما تترك بقية الأعمدة فارغة, لا بدّ لك أن تضع بعضاً منها في عامود الصدق و بعضاً في عامود الاحترام وكذلك لكل أعمدة القيم و الأخلاق الأخرى و لا تنسى عامود الروحانيّات...
لتصنع نغمة حياتك بتوازن, و يكون لحنك جذّاباً جميلاً لا يقوم على آلة عزف واحدةٍ... لا بدّ لك من الاعتدال و التوازن...
انقضى الطريق الطويل في أحاديث العائلة, و أغاني المسجلة التي كانوا يرفعون صوتها كلما مرّت أغنية جميلة بين الفينة و الأخرى...
إلى أن وصلوا درعا... مهد رحلتهم الطويلة حول سوريا...
- أترون هذه المئذنة, لقد تم ترميمها بعد الثورة, بناها عمر بن الخطاب منذ حوالي ألفٍ و أربعمئة سنة و هدمها الأسد... من هذا المسجد انطلقت الشرارة الأولى...
ثم انقضت ساعات يتجوّلون فيها في أحياء درعا و آثارها و معالم الثورة التاريخيّة فيها حتى حل المساء... حيث مرّوا بأحد الساحات العامة فشاهدوا مجموعة من الشباب يحضرون لحفل الغد الذي سيتم فيه إحياء ذكرى الثورة, و قد حضر الحفل في اليوم التالي

مع زوجته و ولديه, كان الحفل صاخباً و الموسيقا ملأت الدنيا, نظر خلاله إلى زوجته و ولديه و قد انعكست أضواء الحفل على عيونهم و شعر في تلك اللحظة أن عالمه قد اكتمل...

استلقى على سرير في فندق متوسط الجودة, لينهض في اليوم التّالي ليكمل رحلته التي استمرت أسبوعين, مروا فيها على ساحة الساعة و متحف كفرنبل, على ضريح الحولة و كرم الزيتون, مرّوا على متحف دير الزور لبقايا القذائف و صور الثّورة, مرّوا على تدمر التي حكت لهم أنّي كنت قبله و قبل غيره و ها أنا أعيش بعده لتستمر الحياة, شربوا الشاي على شواطئ اللاذقية و جلسوا يتأملون نواعير حماة تدور و تدور و تحكي لهم كم غرف الأب من دمهم و كم غرف الولد, و رحل الأب و لحقه الولد و تركا خلفهم قصصاً تُحكى لأجيال بلد, مروا على حلب و حكت لهم قلعتها بعيون ذابلة كحيلة قصصاً و قصصاً عن الصمود...

ليمر أسبوعان طويلان, أسبوعان متعبان, أسبوعان بدأهما دكتوراً في جامعة في دمشق و أنهاهما سائحاً في جامعةٍ في حلب, أسبوعان مرّا و رحلة حدثت مع زوجةٍ و أطفال... كان هذا كلّه واقعاً جميلاً ملموساً استشعر به, استشعر كونه دكتور جامعةٍ و أباً لطفلين, أو ربّما كان مجرد طيف أمنية مرّت سريعاً كومضة في خياله في أحد الحافلات في طريقه إلى المشفى... يشرد في حلمه و يستفيق كلّ حين ليرى انعكاس عيونه في الزّجاج, حلمٌ مرّ كأنّه حقيقة في رأس شاب واسع الخيال تخيّل يوماً أن تحدث في بلده ثورة... شابٌّ كبر في عامين عشرين عاماً, عامين كانا كفيلين أن يعلّما طالب الجامع الحبّ و يعلماه أنّ الله يكشف أسراره لعباده بسخاء, لكن ليس كلّ الناس يرى, لا يراها إلا من يريد أن يراها, و من يبذل عناءً لكي يراها....

تمرّ كثيرٌ من الأيّام في حياتنا سريعة بدون قيمة, و دون أن يوضع لها عنوان و لا يسجل تاريخها, و تمر أيام أخرى كالتي مرت بعمر لا يمكن نسيان تفاصيلها...

تمر أيّام نتعب و تمر أيّام يضعف إيماننا ثم تمر أخرى تنسينا ما حلّ بنا...
تمرّ أيّام نشتاق دون أن نعرف لمن نشتاق... لربما نشتاق إلى من يكمّلنا و لم نلتق به بعد..
أو نشتاق لمكان آخر ننتمي إليه غير هذه الأرض, كنّا فيه يوماً أو سنكون...
تمرُّ أيّامٌ تضيع بوصلتنا و نشعر أننا بحاجته أو بحاجة أن نبحث عنه...
شيءٌ بين ضلوعنا يحتاجه و ينادي عليه...
فنستشعر به قريباً و في كلّ مكان...
شيءٌ في صوتِ أذان المغرب, أو في لحن أغنية قديمة لها ذكرياتها...
أو في اقشعرار جلدنا أول مرة شاهدنا فيها المعتصمين بالآلاف يهتفون للحرية في السّاحات...
نشعر به داخلنا لحظة أول صرخة في مظاهرة, حين تكون ملامح الوجه أصدق ما تكون, حين تصرخ ألمك بملء فيك و عيونك قد ضاقت بغضبها...
أو في ركعتيّ صلاةٍ لا تحادث فيها غيره.. أو في صدى صوتك في كنيسةٍ في أحد جبال سوريا...
أو في حمامة تعشّش على شرفة منزلك, تجعلك تسأل نفسك ما الذي يأسرها على تلك البيوض تضع نفسها تحت رحمة الخوف منك, و السّماء برحابتها تفتح لها أبوابها...
أو في رحلةٍ باصٍ صباحية عبر طرق طويلة و طويلة, يغلب فيها شوقك لمشاهدة الطريق رغبتك بالنوم...
أو في السعادة التي تغمرك من قضاء يوم مع صديق بلا تكاليف و بحبّ نقيٍّ بسيط, لقاء لا يلزمك لأجله لا تصنّع و لا حساب الكلمات...
أو لربما في ضحكة طفل, أو في رائحة الحليب المنبعثة من رقبة رضيع أثناء تقبيله...
أو في يد جدٍّ تمسك يد حفيدها, في حلقة رحمة تصل الأجيال سلسلة الأجيال, فلا الكبير يملّ رعايته و لا الصغير تعلّم أن يعترض على استقبال المودّة بعد...
أو في نسمات الصيفية و ذكريات الطفولة.. في حنان أختٍ تحمّل همّك قبل همومها...
أو في دمعة أم صادقة, أو في حرقة قلب فراق... في قبلة أمٍّ على جبهة ولدها قبل النّوم..
في لحظة خوف عارم, في الرجفة أثناء انتظار خبر...

في السعادة لحظة النّجاح بعد الشقاء الطويل..
في خروجك من نفق أزمةٍ طويل...
أو في مشوار تحت مطرٍ تغسل قلبك...
في صدفةٍ لا يفسّرها منطق غير مشيئة القدر...
أو بين سطور روايةٍ سكبت فيها الكثير من الدموع...
أو في لحظة صدقٍ مع الذّات...
في دماغٍ غريب تنبعث الألوان من تلافيفه...
في طيبة قلبٍ شاب يخفي طفلاً...
أو في سرّ الجمال المختبئ في بسمةِ علا...

- تمت -